تناقضات السياسة الامبريالية والاستعمارية في الوطن العربي بين ١٩٥٤-١٩٥٨

د. سمير بهلوان

١ ـ الاستراتيجية الامبريالية في ظروف تصاعد النضال الوطني من اجل التحرر ووحدة الوطن العربي « سورية ولبنان » .

مقدمة :

يعتبر الحفاظ على الاستقلال السياسي ، واستكمال التحرر الاقتصادي والاجتماعي احد المهام الملحة امام حركات التحرر الوطني العالمي ، في هذه المرحلة التاريخية المعاصرة . حيث بدا النظام الاستعماري ينهار امام النهوض العاصف لحركات التحرر الوطني ، وخرج الكثير من بلدان العالم من دائرة السيطرة والتبعية الاستعمارية ، وشكلت دول مستقلة ذات سيادة .

ان جملة هذه التطورات ادت الى زيادة حدة التناقضات بين معسكر الامبريالية الذي تتزعمه الولايات المتحدة كاقوى واعتى دولة رجعية في العالم . حيث اصبح هدفها الاول السيطرة على العالم وانتزاع أعظم مايمكن من مناطق نفوذ وسيطرة الدول الاستعمارية الاخرى ، وبين معسكر التقدم والاشتراكية وحركة التحرر العالمية ، الذي يهدف الى بناء عالم جديد ينتفي فيه الاستغلال وتتحقق فيه الحرية والتقدم للشعوب .

وعبر مختلف المراحل التاريخية بقي هدف الامبريالية الاساسي النهب والاستغلال ، وتكريس الارباح لصالح الاحتكارات ، وهذا ما ادى الى زيادة النزعة العدوانية ، وعسكرة الاقتصاد الامبريالي ، والركض وراء التسلح ، وسياسة الحرب الباردة ، وحافة الهاوية ، وخلق المشاريع والاحلاف الاستعمارية من اجل اغتيال حريات الشعوب ، وجرها الى عجلة النفوذ الامبريالي . كل هذا دفع حركات التحرر الوطني في افريقيا واسيا ، وامريكا اللاتينية الى تصعيد نضالها ضد سياسة الامبريالية بكل السبل الممكنة للخلاص من كافة اساليب التسلط واقامة علاقات اقتصادية جديدة تكفل امكانية تطوير الاقتصاد الوطني ، وتدعيم الاستقلال السياسي ، والتطور الاجتماعي .

ومما لا شك فيه ان حركة التحرر العربية تشكل جزءا أساسيا من حركات التحرر العالمية . اذ لقد كان الوطن العربي ومازال هدفا رئيسيا من اهداف الاستراتيجية الامبريالية العالمية . وكان مسرحا لمختلف الصراعات والتناقضات الاستعمارية لما تميز به من موقع استراتيجي ، وثروات طبيعية هائلة ، ومخزون بترولي كبير .

لقد استطاعت الغالبية العظمى من البلدان العربية في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية تحقيق الاستقلال السياسي ، والاتجاه نحو حل المشاكل الاقتصادية والاجتماعية ضمن مفاهيم البرجوازية . هذه المفاهيم

التي كانت تتناقض احيانا مع السياسة الامبريالية . وتتناسب مع مسا حققته الثورة الاشتراكية من انتصارات ديموقراطية . وهذا ما مهد الطريق امام تنامي حركة التحرر الوطني العربية ، واغنائها بالمضامين الاجتماعية في نضالها ضد الامبريالية العالمية . وهذا ما اشار اليه لينين « انه اثناء المعارك الحاسمة المقبلة للثورة العالمية فان حركة اكثرية سكان الارض الموجهة في البداية نحو التحرر الوطني ستندار ضد الاستعمار والامبريالية »(١) .

ومما لا شك فيه ان معارك الشعوب التاريخية ضدالامبريالية تكتسب اليوم ابعادا هائلة ، حيث اصبحت هذه الشعوب صانعة للتاريخ بعد ان كانت موضوعا للتاريخ فقط . وفي هذه المرحلة تكتسب الدراسة العلمية لتناقضات عصرنا الحالي الاساسية والثانوية ، معنى هاما ، في تسليح جيوش الثورة العالمية من اجل استنباط الامبريالية وبناء العالم الجديد المتحرر والمتقدم .

وفي هذه الدراسة التاريخية لمرحلة غنية من مراحل نضال شعبنا في سبيل تحرره وتقدمه ضد النهب الامبريالي سوف نحاول القاء بعض الاضواء على التناقضات الامبريالية في وطننا ، وحرب الاحتكارات العالمية والتي كانت جميعها تلتقي حول استمرار النهب والاستغلال ، وسحق حركة التحرر العربية ، والابقاء على التخلف في وطننا

عل" هذه الدراسة المتواضعة تشكل مساهمة في تسليح قوى التحرر الوطني والاجتماعي في وطننا من اجل مواصلة النضال ضد الامبريالية ، ومن أجل بناء المجتمع الاشتراكي الموحد .

(١) البرنامج السياسي للحزب الشيوعي السوري اقره المؤتمر الرابع في كانون الاول ١٩٧٣ ص ١٧ .

لابد لاي متتبع أو دارس لاحداث التاريخ المعاصر من أن يدرك تماما ان الحرب العالمية الثانية تعتبر نقطة تحول كبير في احداث تغيرات جوهرية واساسية في توزع موازين القوى على المسرح العالمي في صالح قوى التقدم والاشتراكية ، واعادة رسم خارطة العالم السياسية وفق الخطوط الجديدة لسمات تطورات احداث العصر ، حيث تحطم جهاز الفاشية تحت ضربات الاتحاد السوفيتي ، ونشأ المعسكر الاشتراكي وهذا ما ادى الى تحرر الكثير من بلدان العالم من السيطرة الاستعمارية ، وتكون دول جديدة مستقلة .

كما دخلت الامبريالية العالمية في المرحلة الثانية من ازمتها العامة ، في وقت تصاعدت فيه حركات التحرر العالمية ضد الامبريالية وفق مضامين اجتماعية تقدمية ، احتوت نضال الطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية ، والطبقة الفلاحية في العالم .

أمام مجمل هذه التطورات والتغيرات كان من المحتم على الدول الامبريالية ان تسلك طرقا جديدة تتناسب واستراتيجيتها العامة ، التي تتركز وبشكل اساسي حول المصالح الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية - في استمرار عمليات الاستغلال ، ونهب ثروات البلدان النامية - ومصادر الطاقة ، والتسابق للسيطرة على الاسواق ، وطرق المواصلات الحيوية ، وابقائها ضمن دائرة التبعية الامبريالية والسعي بشتى الوسائل لتطويق المعسكر الاشتراكي للحول دون تسرب الفكر التقدمي للشعوب المناضلة ودون مساندة حركات التحرر العالمية .

ومما لاشك فيه ان منطقة الشرق الاوسط كانت ومـا تزال نقطة اساسية بل مركزية في فلك الاستراتيجية الامبريالية العالمية . وقد بذلت السياسة الامبريالية في هذه المرحلة التاريخة بالذات جل ما عندها من قوى وجهود لتحافظ على مصالحها السابقة في الشرقين الادنى والاوسط

ضمن خطوط استراتيجية جديدة تتناسب والتطورات السياسية التي طرات على المنطقة واحاطت بها كنتيجة طبيعية لنمو وتطور حركات التحرر العربية واتجاهاتها الوحدوية والتقدمية .

لقد تميزت الاستراتيجية الامبريالية الشرق اوسطية بعد الحرب الكونية الثانية بسياسة الاحلاف العسكرية وخطط المشاريع الاقتصادية الاستغلالية ، وسياسة التقارب المدسوسة واتفاقات التعاون المسمومة المختلفة كما ان هذه القوى الاستعمارية لم تكن منعزلة عن تيارات داخلية تساندها وتنسق نشاطها وفق الاهداف العامة للامبريالية حيثما كانت داخل الحكم او خارجه او في المجالس النيابية او في صفوف الجيش . ولم يكن قيام دولة اسرائيل في فلسطين العربية الا تنفيذا لهذه الاستراتيجية التي ستجعل من الصهيونية العالمية اداة رئيسية في تجزئة وحدة النضال القومي والحول دون قيام دولة عربية موحدة بعزل المشرق العربي عن الشمال الافريقي العربي . وليس البيان الثلاثي الصادر عن الدول الامبريالية الكبرى (فرنسا انكلترا امريكا) عام ١٩٥٠ والذي يصرح بضمان حدود اسرائيل الا تأكيدا على تنفيذ تلك السياسة العدوانية .(٢)

واستمرت الدول الاستعمارية تلك (فرنسا انكلترا امريكا) في سياسة محاولة الحفاظ على المصالح الاقتصادية في الوطن العربي ، وادعت بسط رقابتها السياسية والعسكرية على الشرق غير آبهة بمصالح البلدان العربية . وهذا ما اكده البيان الثلاثي (البريطاني الفرنسي الانكليزي) في ٢٥ ايار ١٩٥٠ على أن المشتركين فيه لا يزالون يعتبرون البلدان العربية محمية لهم ومزرعة لهم ، ومصدرا للارباح الاستعمارية ورأس جسر لتحقيق خطط السيطرة العالمية ، وفي الوقت نفسه حاولت الولايات المتحدة

(٢) محمد عبد المولى الانهيار الكبير (اسباب قيام وسقوط وحدة مصر وسورية ــ دار المسيرة بيروت ١٩٧٧ ص ٣٥) .

الاميركية وبريطانيا وفرنسا ان تمنح نفسها حق الكلمة الفاصلة في أمر تسليح البلدان العربية ، وحق مراقبة علاقاتها الخارجية وكان هذا البيان أول عمل مشترك يصدر في الشرق الاوسط .(٣)

لقد كانت الخطة الامبريالية تدور حول سلسلة من الاحلاف تشمل الشرق الاوسط والوطن العربي بهدف تطويق المعسكر الاشتراكي وضرب حركة التحرر الوطنية . وكانت النواة الاولى صدور ــ اقتراح مشترك عام ١٩٥١ « لاقامة منظمة دفاعية تشمل المنطقة بوسميت» منظمة الدفاع» عن الشرق الاوسط » تشمل الاقطار العربية الاسيوية والباكستان وتركيا »(٤) . كما تبع هذا الاقتراح « اتفاق دفاعي عقدته انكلترا عام ١٩٥٤ بين انقره وكراتشي »(٥) يشكل مع الاقتراح السابق حجر الاساس في الحزام الجنوبي للمعسكر الاشتراكي وهو ما سيكون عام ١٩٥٥ حلف بغداد الذي سيشكل السلاح العسكري ضد الاتحاد السوفياتي .

لقد كان لحلف بغداد ، تاثير عميق على كل المستويات السياسية العربية لان اهدافه الجوهرية تركزت حول تاكيد الدول الغربية على الاحتفاظ بمواقعها الاقتصادية في الشرق الاوسط وتمزيق التضامن العربي والضغط على الامة العربية باعتبار الحلف لم يضم سوى العراق؛ ثم ضرب حركات التحرر العربية الناهضة والقضاء على اهدافها في التحرر والاستقلال والخلاص من التبعية الامبريالية .

كما شكل النشاط الامريكي بمشاريعه الفنية خطرا أكبر على حركات التحرر الوطنية في الشرق الاوسط والادنى ومكافحة كل حركة تقدمية

(٣) تاريخ الاقطار العربية المعاصرة ١٩١٧ ــ ١٩٧٠ « اكاديمية العلوم في الاتحادالسوفياتي معهد الاستشراق » . الجزء الاول دار التقدم موسكو . ص ٥٥ .

(٤) الانهيار الكبير مصدر مذكور ص ٢٦ .

(٥) المصدر السابق ص ٢٧ .

باسم « مكافحة الشيوعية » ، والقضاء على سياسة الحياد الايجابي (والتي اعتبرت من النجاحات الهامة في تاريخ حركة التحرر العربية وبشكل خاص في سورية ومصر حيث تم ظهورها) وضمان المصالح البترولية والاقتصادية الامريكية الضرورية لمساندة الصناعة الامريكية على الاستمرار في زيادة احتكاراتها وسيطرتها . فكان من اهم هذه المشاريع « مبدأ ترومان » الذي ظهر في ١٩٤٧/١٢/١٢ وشمل في البدء تركيا وايران وفي ١٩٥١ وافق الكونغرس الامريكي على ان يشمل دول الشرق الاوسط والدول العربية وقبلت به « افغانستان ، ومصر والعراق وايران ولبنان والسعودية واسرائيل والاردن والباكستان»(٦) حصلت هذه الدول بموجب المادة الرابعة من المبدأ « النقطة الرابعة » على مساعدات اقتصادية وفنية، وبطبيعة الامر كان وسيلة للتغلغل الامريكي وربط دوله بعجلة الامبريالية سياسيا واقتصاديا .

ولم يكن مبدأ ايزنهاور « ١٩٥٧ اقل خطورة من السابق وانما ظهر بتكتيك آخر وتحت شعارات جديدة « سد الفراغ في الشرق الاوسط » و « نظرية الخطر الشيوعي » ثم تقديم مساعدات عسكرية واقتصادية لحكومات تلك الدول وخصص الكونغرس الامريكي مبلغ ٢٠٠ مليون دولار لهذه الغاية(٧) وما كانت هذه المساعدات الا ستارا لاخفاء الاغراض الحقيقية للامبريالية .

كما دخلت المانيا الغربية المنطقة بأساليب جديدة ايضا حققت الكثير من النجاحات الاقتصادية ففي ١٩٥٠ تأسست في المانيا « شركة الشرق الادنى والاوسط » وكان لهذه الشركة فروعها الكثيرة وصلات وثيقة مع

(٦) هو منها نسيان النضال التحرري الوطني في لبنان ١٩٣٩ — ١٩٥٨ دار الفارابي بيروت ١٩٧٤ ص ١١٥ .

(٧) المصدر السابق ص ١٤١ .

المحتلين الدبلوماسيين والقناصل والصناعيين والمصدرين الالمان . اضافة الى العديد من المؤسسات والبنوك المختصة بالتجارة مع الشرق الاوسط وارسلت العديد من الخبراء والبعثات الرسمية والخاصة . وكانت المساعدات الفنية والاقتصادية خير وسيلة للتغلغل الاقتصادي والسياسي لهذا كان مشروع كروب والمسمى « بالنقطة الرابعة والنصف » مخصصا لآسيا والشرق الاوسط(٨) .

كذلك اتفاق التعويضات عن ضحايا النازية في اوروبا ١٩٥٢ بين اسرائيل والمانيا والذي (يقضي بجعل اسرائيل الوارث الشرعي لضحايا النازية وحدد مبلغ ٧٥٠ مليون دولار تدفع على اقساط خلال ١٢ عام(٩). وبالرغم من ان للامبريالية استراتيجية عالمية ، وشرق اوسطية موحدة الا انها اتخذت كما راينا اساليب تكتيكية مختلفة من دولة لاخرى تسير وفق المصالح الخاصة لكل منها . وانطلاقا من هذا كانت سورية ولبنان « محورا اساسيا لمصالح السياسة الاستعمارية في الوطن العربي لما يتميزان به من موقع استراتيجي هام من حيث الاشراف على الممرات الشمالية الشرقية الموصلة الى مصر ، وعلى الطريق البري ما بين العراق والبحر الابيض المتوسط ، وعلى شمال الجزيرة العربية ، والحدود الشمالية للوطن العربي . كما انهما راس حركة التحرر العربية منذ بدايتها في اوائل القرن الحالي . وقد اوضح باتريك سيل في كتابه « الصراع على سورية » بأن « سورية تعتبر مركز مراقبة جيد لرصد سياسات الدول الكبرى في المنطقة كما انها « المحور الذي تدور حوله اعظم التحركات الدبلوماسية التي يمارسها الغرب »(١٠) .

---

(٨) بدر الدين السباعي اضواء على الرأسمال الاجنبي في سورية ١٨٥٠ – ١٩٥٨ دمشق دار الجماهير ١٩٦٧ ص ٤٤٥ .

(٩) السباعي المصدر السابق ص ٤٤٦ .

(١٠) باتريك سيل الصراع على سورية « دراسة للسياسة العربية بعد الحرب » ١٩٤٥ – ١٩٥٨ بيروت دار الانوار ١٩٦٨ ص ١٠ .

اما في المجال السياسي الداخلي لسوريا ولبنان فقد دارت فيهما معارك حاسمة بين القوى التقدمية وبعض الحكومات البرجوازية الوطنية وبين قوى الامبريالية من اجل تنفيذ « حلف بغداد » ومبدأ ايزنهاور » ومشاريع اقتصادية اخرى قامت بالمنطقة . وهذا ما جعلهما عرضة للتهديدات الدائمة والحصار الاقتصادي والسياسي . وتم تنفيذ هذه الضغوط بمساندة الزبول العملية المرتبطة بالاستعمار كنتيجة طبيعية للمصالح المتبادلة .

فقد كان « نوري السعيد » وعرش العراق خير وسيلة لتنفيذ جميع المؤمرات والاحلاف العسكرية والسياسية ، ومختلف المشاريع الاقتصادية الامبريالية بل والنشاط لها في باقي الاقطار العربية ، وكذلك حكام الاردن . وفي لبنان لم يختلف الامر اذ لم يكن من مصلحة السلطة ان تقف مواقف عدائية من التغلغل الامبريالي للمحافظة على مصالحها الخاصة ، وكثيرا ما نجحت انكلترا وفرنسا وامريكا في لبنان بضغوطها على الحكومات البرجوازية الوسيطة بواسطة بعض الاقطاعيين وكبار البرجوازيين واثارة الكثير من الاحقاد العنصرية والطائفية والعشائرية ، واشعال الفتن لتسهل عملية تنفيذ الاستغلال . كما ان سياسة الباب المفتوح امام الغرب جعلت الرساميل الاجنبية تلعب دورا نشيطا وهاما في اقتصاد لبنان ومقدرات شعبه . رغم كل الصراعات المتزايدة فيما بينها حيث اخذ نصيب فرنسا من تجارة لبنان الخارجية يقل باستمرار بحكم تفوق رساميل اخرى منها لاسيما امريكا . ففي عام ١٩٥٦ كان يعيش في لبنان حوالي خمسة آلاف اميركي ووكالات ٨٨ شركة امريكية ، وفتحت ثلاثة من كبريات المصارف الامريكية لها فروعا في بيروت(١١) أما في سورية فقد كانت الامبريالية وراء مختلف الانقلابات العسكرية ، والحكومات

(١١) ــ التاريخ المعاصر مصدر مذكور ص ١٧٨ .

الديكتاتورية التي توالت على سورية منذ فترة الاستقلال وحتى عام ١٩٥٤ والتي يخدم كل منها استراتيجية استعمارية معينة ضمن شروط اقتصادية متنوعة . (ففي عام ١٩٤٤ كان الراسمال الامريكي في سورية ١٤ مليون دولار ، وفي ١٩٥٨ اصبح ٣٧٫٥ مليون دولار(١٢) كما تزايد عدد الشركات الاجنبية في سورية زيادة ملحوظة في الفترة الاخيرة من هذه المرحلة ففي عام (١٩٥١ — ١٩٥٢ كان هناك ٢٤٥٠ مؤسسة واصبح في ١٩٥٦ حوالي ٢٧٥٠ مؤسسة مع العلم ان قسما من هذه الزيادة ناتج عن تسجيل مؤسسات كانت تزاول نشاطها من قبل دون ان تكون مسجلة(١٣) لكن ماهو جدير بالملاحظة ان سورية استطاعت في الفترة الاستقلالية تلك ان تخفف الى حد كبير من سيطرة البنوك الاوربية التي كان احتكارها مطلقا في المرحلة الانتدابية واصبح نشاطها المصرفي في نهاية المرحلة لا يتناول الا نسبة تفوق الضعف قليلا من مجموع النشاط المصرفي . كما ان البنوك لم تعد حرة في اتخاذ السياسة المصرفية التي تخدم مصلحتها لخضوع هذه البنوك الى الرقابة والتشريع الحكومي السوري .

ومما لا شك فيه ان ضرب حركات التحرر العالمية كان وما زال من الاهداف الاساسية والجوهرية للاستراتيجية الامبريالية العالمية . لان هذه الحركات استطاعت ان تتصدى لمختلف اساليب التغلغل الامبريالي ، وقد حققت انتصارات رائعة في الاستقلالات السياسية بعد الحرب الثانية . واصبحت ذوات مضامين اجتماعية مما جعلها تشكل خطرا حقيقيا على السياسة الامبريالية في العالم . فهي ما زالت في تصاعد نضالي مستمر لاستكمال جوانب الاستقلال والتحرر الكامل والبناء الاقتصادي والاجتماعي .

---

(١٢) السباعي مصدر مذكور ص ٤٥٣ .

(١٣) المصدر السابق ص ٤٥٤ .

ان حركة التحرر العربية التي تشكل جزءا أساسيا من حركة التحرر العالمية قد حققت في الخمسينات من هذا القرن انتصارات كبيرة ضد سياسات النهب والاستغلال الاستعماري والامبريالي .

ففي شمال افريقية كانت حركة التحرر المصرية رائدة في انتصاراتها وتحديها لقوة الاستعمار البريطاني ولكافة الطرق التي رسمتها الامبريالية للابقاء على مصر في دائرة النفوذ الاستعماري . فكان نجاح ثورة تموز ١٩٥٢ نقطة تحول في التاريخ المعاصر لمصر ، وبداية لعصر التطور المستقل . ولم تكن خطوة عبد الناصر في تأميم قناة السويس عام ١٩٥٦ الا ضربة قاصمة لمواقع الرأسمال الاحتكاري العالمي في مصر . كما كانت له اثاره البعيدة لان ذلك الممر المائي الحيوي في وسط العالم كان مصدرا للصراعات الدولية عبر مختلف المراحل التاريخية في مصر والوطن العربي . وهذا ما دفع القوى الامبريالية الفرنسية والانكليزية ، ورأس حربتها الصهيونية وبقيادة المخططات الامريكية للهجوم العدواني المسلح على مصر عام ١٩٥٦ . وكان النصر الذي احرزته قوى التحرر المصرية بداية مرحلة متميزة باقتراب تصفية البقايا الاستعمارية ، واستمرار تعميق التحرر السياسي والاقتصادي في المنطقة العربية على خلفية التغيرات الجذرية العامة في العالم المعاصر ، والمرتبطة ببداية الطور الجديد الثالث في الازمة العامة للراسمالية وقد غدت المنظومة الاشتراكية العالمية خير سند لحركات التحرر العربية ودرعا امينالتطورها المستقل (وليست صفقة الاسلحة التي عقدها الاتحاد السوفياتي ومصر عام ١٩٥٥ الا نقطة تحول عظمى في الشرق الاوسط كما اعتبرت نهاية عهد قديم وبداية عهد جديد)(١٤) كل تصميم على استمرار النضال وتضامن القوى التقدمية العالمية والعربية ضد الامبريالية .

(١٤) الانهيار الكبير مصدر مذكور ص ٥١ .

كما ان ثورة الجزائر التي بدات ١٩٥٤ تعتبر مرحلة انتصارات اخرى لحركة التحرر العربية والعالمية في مجابهة الامبريالية ، والتي استمرت حتى النصر وتحرير الجزائر من الاستعمار الفرنسي عام ١٩٦٢ كما استطاعت تونس والمغرب ان تكمل الانتصارات في التحرر من الفرنسية عام ١٩٥٦ وفي العام نفسه تحررت ليبيا من سيطرة الفاشية الايطالية . وتحررت موريتانيا في ١٩٦١ من الاستعمار الفرنسي .

ليست انتصارات حركة التحرر العربية الاسيوية بأقل اهمية من انتصارات حركات التحرر العربية الافريقية اذ كانت قمتها في ثورة العراق ١٤ تموز ١٩٥٨ ، والقضاء على حكم نوري السعيد اداة السيطرة الانكليزية في المنطقة . وبقي النضال التحرري مستمرا في بقية دول المنطقة استكمالا للتحرر الكامل في تصديها للمشاريع والاحلاف الاستعمارية والعسكرية . وهذا ما دعم اليمن بانجاح ثورتها والحصول على استقلالها ١٩٦٢ .

اما في سورية ولبنان على وجه الخصوص فاثبتت حركة التحرر الوطنية اسبقيتها النضالية وقدرتها على مجابهة قوى السيطرة الاستعمارية حيث حصل القطران على استقلالهما السياسي في ١٩٤٦ وسجلا نقطة الانطلاق الاولى امام حركات التحرر العربية الاخرى الى جانب مواقف الدعم والتأييد والمساندة المستمرة لباقي حركات التحرر العربية والعالمية ففي لبنان كان عبء النضال التحرري ثقيلا جدا لان حكام لبنان كانوا وسيلة طيعة لتنفيذ المصالح الامبريالية وانجاح استراتيجيتها مما جعل ردة فعل حركة التحرر قوية ازاء الانحراف عن سياسة الحياد التقليدية التي سعت اليها سورية ومصر ، وتردي العلاقات مع البلدان الاشتراكية ، والعزلة عن الدول العربية المستقلة ، وانضمامها الى مشروع ايزنهاور وغيرها . وهذا ما دفع حركة التحرر في لبنان الى اتخاذ مواقف جديدة ضد كافة المشاريع والخطط الاستعمارية ، والتغلغل الامبريالي . وقاومت

بشدة شتى المواقف الحكومية في ميولها نحو الغرب وكثيرا ما نجحت في اجبارها على التراجع عن رغباتها في الانضمام لهذه الاحلاف والمشاريع. اذ اضطرت الحكومة اللبنانية الى التراجع عن مواقفها من حلف بغداد امام الاصرار الجماهيري المتزايد في المعارضة للحلف ولسياسة الحكومة. وظهرت اولى بوادر هذا التراجع على لسان سامي الصلح رئيس الوزارة حين اعلن (ان لبنان لن ينضم الى حلف بغداد وان موقف حكومته هو الحيـاد(١٥) . وبقي موقف حركة التحرر اللبنانية ثابتا في رفضه « لمبدأ ايزنهاور » واغراءاته المادية المعروضة وضد الحكومة الموالية في عهد الرئيس شمعون العميل الاول للامبريالية ، مما دفع بحركة التحرر الى اضراب شامل تحول الى انتفاضة مسلحة في ٧ ايار ١٩٥٨ بدأت في طرابلس وسرعان ما انتشرت وشملت لبنان الشمالي والشمال الشرقي ثم لبنان الجنوبي وانضمت الى الثورة المناطق الجبلية التي يقطنها الدروز وكانت مطالب الثورة ضرورة التراجع عن هذه السياسة والالتزام بالخط العربي الصحيح(١٦) .

وكما هو معروف ان التضامن وثيق بين حركتي التحرر في سورية ولبنان والمواقف موحدة في كافة المجالات النضالية بحكم وحدة الظروف التاريخية والمصيرية للقطرين . وكذلك شهدت سورية في هذه المرحلة اعنف النضالات السياسية على مختلف الاصعدة الداخلية والعربية والدولية متحدية كامل الضغوطات الامبريالية والتحالفات الرجعية . وفي هذه المرحلة بالذات بدا بروز القوى التقدمية على الساحة النضالية . وكان ابرزها الحزب الشيوعي وحزب البعث العربي الاشتراكي الذي استطاع ان يبرهن بمواقفه الثابتة وتحدياته للامبريالية والرجعية هويته

(١٥) هومنها نسيان مصدر مذكور ص ١٣٨ ـ ١٣٩ .
(١٦) التاريخ المعاصر مصدر مذكور ص ١٨٤ .

التقدمية . وقد احرز حزب البعث العربي الاشتراكي في الانتخابات النيابية ١٩٥٤ بعد الاطاحة بدكتاتورية الشيشكلي ١٧ مقعدا في المجلس النيابي(١٧) حيث فتح المجال امامه للدفاع الرسمي عن مصالح الجماهير الكادحة، وتأييده ومساندته لكافة حركات التحرر العربية واتجاهاته الوحدوية والتقدمية والاشتراكية . وهذا ما دفع القوى الامبريالية الى المزيد من الضغوط والحصار الاقتصادي والسياسي حول سورية وفي الوقت نفسه كانت سورية مستمرة بسياسة التعاون مع الاتحاد السوفياتي ودول المعسكر الاشتراكي وذلك لمساندته وتأييده المستمر لحركة التحرر العربية وكشفه مؤامرات الامبريالية امام قوى التحرر (ففي ١٩ تشرين اول ١٩٥٧ اذاعت وكالة تاس تحذيرا الى حكومات امريكا وبريطانيا وفرنسا الساعية الى تنظيم عدوان مسلح بالتساند مع اسرائيل ضد استقلال سورية(١٨) وفي ٢٠ آب ١٩٥٦ تم التوقيع على اتفاق تعاون بين الاتحاد السوفياتي وسورية لتوسيع العلاقات الثقافية بين البلدين وتوطيد وتطوير الصداقة)(١٩) وقد عكست زيارة الرئيس القوتلي الى موسكو في ٣٠ تشرين الثاني ١٩٥٦ مدى صدق الاتحاد السوفياتي ومساندته الشعب السوري والعربي وثبت من خلال اتفاقياته مع سورية وغيرها من الاقطار العربية صدق وثقة سياسته في التعاون والتاييد الذي قدمه عبر جملة المواقف والمساعدات المبذولة . وقد صرح رئيس الوفد السوري الذي زار الاتحاد السوفياتي في تموز ١٩٥٧ بأن المبادىء والشروط التي قدمت الينا في موسكو هي شروط تقبلها اية دولة كبيرة كانت ام صغيرة لان هذه الشروط لا تنال من استقلالنا انها مساعدة الصديق للصديق ،ومساعدة

(١٧) نضال حزب البعث العربي الاشتراكي ١٩٤٣ - ١٩٧٥ دراسة تاريخية تحليلية موجزة - القيادة القومية دمشق ١٩٧٨ . ص ٤٩ .

(١٨) التاريخ المعاصر مصدر مذكور ص ١١٥ .

(١٩) بدر الدين السباعي مصدر مذكور ص ٤٣٧ .

الاخ للاخ من اجل انقاذه من وضع اقتصادي ومالي صعب(٢٠) هذا عدا عن تأييده الاقطار العربية في سياستها المستقلة في مؤتمر باندونغ الذي اقر سياسة الحياد الايجابي ومبدا التعامل على قدم المساواه مع الشرق او الغرب(٢١) . من خلال كل ذلك يمكن ان نرى ان الامبريالية العالمية منذ نشوئها في اوائل القرن العشرين استهدفت استراتيجيتها الاستغلال والنهب بزيادة ارباحها واحتكاراتها . لكنها اختلفت في اساليب التنفيذ حيث عملت كل دولة امبريالية على زيادة ارباحها واحتكاراتها بالشكل الذي يتناسب وقدراتها الاقتصادية ، وهذا ماادى الى التنافس والتناقض فيما بينها ، وبالتالي سبب تفجير الازمات والحروب الامبريالية .

كما انها استهدفت في هذه المرحلة ضرورة القضاء على حركات التحرر الوطنية التي كانت في تصاعد وتحد مستمر ، وفيما بعد الحرب الكونية الثانية دخلت الامبريالية مرحلة جديدة من ازمتها العامة وبالتالي فرض عليها ان تلجأ الى اساليب جديدة للحفاظ على مواقعها وما تعتبره ممتلكات لها من المستعمرات واصبح التغلغل يتم عن طريق سياسة المشاريع الاقتصادية التي تعمل على ابقاء هذه البلدان ضمن دائرة السيطرة والتبعية الاستعمارية ، ويبعدها كل البعد عن اي تطوير صحيح في البنيان الصناعي والزراعي ، بل والتدخل في امورها السياسية الخارجية اضافة الى العمل على زيادة الضعف والتخلف والتمزق بما تثيره وتبثه من افكار عنصرية وطائفية بين مختلف الفئات وكانت سببا في كثير من الاحيان لتفجير ازمات وحروب داخلية وبذلك تكون قد حققت هدفا اخر من استراتيجيتها في ضرب حركات التحرر الوطنية المتصاعدة والتي

(٢٠) المصدر السابق ص ٤٤ .

(٢١) الانهيار الكبير مصدر مذكور ص ٥٢ .

يزيد تأثيرها العالمي في المرحلة المعاصرة . كما ان سياسة الاحلاف العسكرية كانت تستهدف في الاساس تطويق المعسكر الاشتراكي والاتحاد السوفياتي بحزام من الدول الموالية للغرب . وكان الوطن العربي نقطة اساسية في هذا الحزام لكي تحول دون تسرب الافكار الديمقراطية ودون مساندة حركات التحرر ومدها بالمعونات المادية والمعنوية . فلم يكن الرد الا مزيدا من التصدي والاصرار على متابعة النضال وزيادة التضامن فيما بينها مع حركات التحرر العالمية وزيادة من التقارب مع الدول الاشتراكية التي اثبتت حسن نواياها عبر مختلف الاتفاقات والمواقف الحاسمة الرسمية وغير الرسمية لنصرة الشعوب العربية ضد قوى الامبريالية والاستعمار .

٢ ـ مكان واهمية الشرق الاوسط (سورية ولبنان) في السياسة الامبريالية :

تشغل منطقة الشرق الاوسط موقعا جغرافيا ممتازا في العالم . يتوسط القارات الثلاث اسيا وافريقيا واوربا . ويشرف على اهم الممرات العالمية التي تعتبر صلات الوصل الرئيسية بين مختلف قارات العالم برا وبحرا وجوا . ويشكل الوطن العربي قلب الشرق الاوسط حيث تشرف الحدود الغربية للوطن العربي على الساحل الشرقي للبحر الابيض المتوسط كما تشرف دول شمال افريقيا على ساحله الجنوبي . ويعتبر مضيق جبل طارق في اقصى غرب المتوسط في المغرب العربي من الممرات الرئيسية العالمية على المحيط الاطلسي ، كما ان افتتاح قناة السويس في ١٨٦٩ زاد من اهمية البحر المتوسط واستراتيجيته الاقتصادية العالمية بتسهيل اتصاله مع البحر الاحمر الذي تمتلك كامل شواطئه الشرقية المملكة العربية السعودية ، وشواطئه الغربية تقريبا كل من مصر والسودان لينتهي هذان الشاطئان عند اهم الممرات المائية ، بمضيق باب المندب في اليمن العربي على المحيط الهادي هذا عدا عن اشراف جنوب المملكة

السعودية ودول الخليج والعراق على مياه الخليج العربي الغنية بثرواتها ومن الجدير بالملاحظة ان الثورة العلمية الحديثة في مجال المواصلات لم تفقد المنطقة اهميتها وحيويتها لان محور السياسة العالمية والامبريالية بقي يدور حولها .

انطلاقا من هذه الاهمية الكبرى للموقع الجرافي والاستراتيجي الحيوي للمنطقة كان لابد للدول الاستعمارية وخاصة بعد انتقالها الى المرحلة الامبريالية منذ اوائل هذا القرن من العمل على اقتسام واعادة اقتسام العالم لتحقق مزيدا من الاستغلال والنهب والسيطرة على شعوب العالم وثرواتها . والتي اتخذت ابعادا اكبر بعد الحرب العالمية الثانية بموجب التغيرات الجوهرية السياسية على الساحة العالمية بعد انتصار النظم الديموقراطية والاشتراكية والصمود الكبير لحركات التحرر الوطنية التي حتمت استمرار نضال الشعوب من اجل تحرير مصيرها في اوطانها . وهذا ما دفع بالامبريالية لتوجيه استراتيجيتها نحو القضاء على حركات التحرر الوطنية كهدف اساسي لسياستها العامة والتي اصبحت تتركز حول تطويق المعسكر الاشتراكي بسلسلة من الاحزمة العسكرية تضم دولا مؤيدة للغرب بغية تكريس النهب .

ومما لاشك فيه ان هذه المنطقة تحتوي ثروات طبيعية هامة تشكل مادة الصناعة الاولية ، الزراعية منها (كالقطن والتبغ والحبوب ،والزيتون والعنب وشجر التوت لتربية دود القز من اجل خيوط الحرير وغيرها) أو مواد أولية معدنية (كالحديد والفوسفات ، والمنغنيز والذهب والاملاح المعدنية التي تحتويها مياه البحار) هذا عدا عما كشف من ثروات بترولية هائلة تعتبر اهم مصادر الطاقة في العصر الحديث ، وعصب الصناعة الرئيسي . كما رات الامبريالية في الوطن العربي أسواقا واسعة لتصريف منتجاتها ، ولتحصيل اكبر قدر من الارباح ، ومجالا ملائما لتغلغل رؤوس الاموال عبر مختلف وسائل الاستثمار سواء عن طريق

القروض او البنوك او المشاريع الزراعية والصناعية والانشائية التي تخدم المصالح الامبريالية فقط ، وبنفس الوقت تحول دون ارساء قاعدة اقتصادية متينة في الدولة المستثمرة بل تعمل على تشجيع قطاعات الخدمات العامة ذات الفائدة المؤقتة . ومن المجالات الهامة التي لعب فيها الرأسمال الاجنبي دورا بارزا في الوطن العربي (احتكار الريجي « التبغ » ومد الخطوط الحديدية وانشاء الموانىء ، ومد الطرق ، وشركات المياه والكهرباء وغيرها) .

وهذا ما أدى الى زيادة حدة الصراع الامبريالي حول اقتسام واعادة اقتسام العالم للحصول على اكبر حصة من المستعمرات تمكنها من زيادة ارباحها واحتكاراتها ، ضمن هذا الجو الملائم لممارسة كافة نشاطاتها الاستغلالية ، وتنفيذ مختلف خططها السياسية وفق الاهداف الاقتصادية والتي يترتب عليها ضرورة الحفاظ على تخلف البلاد والابقاء على العلاقات الانتاجية السائدة بتثبيت النظم الاقطاعية والتي تمكن من استثمار قوة الفلاح بشكل كامل ، واقتصار العمل على انشاء زراعات تخدم المصالح الاقتصادية الاستعمارية فقط .

كما اعتبرت الشرق الاوسط والوطن العربي مجالا حيويا للنشاط التجاري الامبريالي بين كافة دول العالم لما يحتويه من موانىء ومنافذ بحرية ممتازة ، وملاحة نهرية هامة ، توفر اكبر قدر ممكن من تكاليف النقل مما يساعد على الاستغراق في الاستغلال والنهب ، وبالتالي لا بد من مساهمة القوى الامبريالية لايجاد طبقة برجوازية كومبرادورية حليفة في تحقيق المصالح الاقتصادية المتبادلة وفي الوقت نفسه تستخدم اداة لضرب حركات التحرر الوطني ضمن مواقعها .

هكذا كانت توجيهات السياسة الاقتصادية الامبريالية العامة في الشرق الاوسط وفي الوطن العربي خلال هذه المرحلة التاريخية المعاصرة

في الاطار العام . اما في الاطار المحدد وفي سورية ولبنان بشكل خاص فقد كان لهذين القطرين اثر كبير في تحريك السياسة الامبريالية الاقتصادية الفرنسية والانكليزية قبل الحرب الثانية وبعدها . اذ كانت الاطماع الفرنسية متجهة نحو سوريا ولبنان لما يشكلان من اهمية حيوية للمصالح الفرنسية في البحر المتوسط كما كانت انظار بريطانيا دائما متجهة نحوهما بالذات لما لها من مصالح اقتصادية اخرى عبر المنطقة بالذات . وهذا ما كان يثير مشاعر الخوف لدى الفرنسيين من اي توجه او تخطيط بريطاني ممكن حدوثه في المنطقة حتى اثناء انسحاب القوات الفرنسية من سوريا ولبنان حين حصولهما على الاستقلال السياسي خشية ان تحل القوات البريطانية محل المواقع الفرنسية .

ونتيجة لتخلخل مواقع الامبريالية الفرنسية من جراء خسائرها أثناء الحرب العالمية الثانية تزايد دخول الامبريالية الامريكية المتفوقة اقتصاديا الى المنطقة والى سورية ولبنان ايضا لتستطيع قبل غيرها من الدول الامبريالية الاخرى العمل على زيادة تراكم احتكاراتها وارباحها التي تمكنها من قيادة المعسكر الامبريالي وتحقيق استراتيجيتهاالعامة . وعلى هذاكان النشاط السياسي الامبريالي يتخذ ابعادا اكبر واساليب احدث كلما تصاعدت حركات التحرر الوطني العربية ، وكلما تزايدت اهمية الوطن العربي كمصدر رئيسي للبترول .

وظل الراسمال الفرنسي والانكليزي والامريكي يحتل المرتبة الاولى في اقتصاد سورية حتى عام ١٩٥٢ وبالرغم من هذا القدر من التخلخل الامبريالي فان مصالح البرجوازية الكومبرادورية السورية النامية اقتضت الحد من تغلغل رؤوس الاموال الاجنبية في كافة القطاعات الاقتصادية الوطنية وبالرغم من انها (البرجوازية) لم تكن حازمة في مواقفها فقد احرزت في الخمسينيات تقدما نسبيا في كافة المجالات الاقتصادية . حيث اتسعت وتحسنت زراعة

القطن باعتباره مادة أولية هامة في الصناعة النسيجية ، وتراجعت الصناعات الحرفية كثيرا بفعل المزاحمة الاجنبية (فاذا كان عدد عمالها عام ١٩٣٧ يقدر بـ / ٢٣١٩٤ / عامل فانه تجاوز هذا الرقم بكثير عام ١٩٥٧) كما أن التوظيفات في الصناعة الحديثة تضاعفت كثيرا عن المرحلة الانتدابية واصبحت خلال ١٤ عام من الاستقلال / ١٧٦٫٧٩ / مليون ليرة سورية وتزايد عدد المؤسسات الصناعية في سورية في نهاية ١٩٥٦ / ٤٥٩٣ / مؤسسة لصناعات مختلفة . كما استطاعت سورية ان تحقق تقدما ملحوظا في ميدان التجارة نتيجة تطور الزراعة والصناعة وتحسن وسائل النقل والمواصلات كما عجل حل الاتحاد الجمركي عام ١٩٥٠ بين سورية ولبنان في انشاء مرفا اللاذقية. وهذا ما جعل الامبريالية تزيد من ضغوطها الاقتصادية والسياسية حول سورية لابقائها في فلك التبعية الامبريالية.

بينما البرجوازية الكومبرادورية في لبنان اقتطت مصلحتها اتباع السياسة الاقتصادية المنفتحة على الغرب ويضيف يوسف خطار الحلو الاقتصادي اللبناني في الحديث عن وضع لبنان ، ويبين كيف اصبح لبنان مغرقا بالبضائع الاجنبية التي ساهمت الى حد بعيد في خنق الصناعة الوطنية ويقول « اصبحت سوقنا شيئا فشيئا خاضعة للتروستات الامريكية ، وشركات التصدير الاحتكارية في بلدان أوربا الغربية التي وجدت في سوقنا خير مصرف لبضائعها مستفيدة من فقدان شروط الحماية الجمركية ومن سياسة الانصياع التي كانت الموجه الاساسي لاكبر المسؤولين الذين تعاقبوا على لبنان »(٢٤) بهذا سهل نظام السوق اللبنانية المفتوح وتحالف

(٢٤) يوسف الخطار الحلو

البرجوازية مع القوى الامبريالية السبل امام النهب والاستغلال الامبريالي، وساد التخلف في شتى القطاعات الاقتصادية (حيث ارتفع حجم الاموال المودعة في المصارف اللبنانية من ٢٥٠ مليون ل.ل . عام ١٩٥٠ الى / ١٢٨٦ / مليون ليرة لبنانية عام ١٩٦٢)(٢٥) واعتمد النمو خلال الخمسينيات على قطاع الخدمات اعتمادا كليا تقريبا حتى بلغ الدخل من هذا القطاع ٦٦٪ من مجمل الدخل الوطني في بداية الستينات . ولم تبدأ الصناعة في النمو السريع الا بدءا من عام ١٩٥٩ وارتفعت الاموال الموظفة في الصناعة اللبنانية من ١٤٥ مليون ل.ل عام ١٩٤٥ الى ٢١٢ مليون فقط عام ١٩٥٨(٢٦) وهذا ما جعل حركة التحرر الوطنية في لبنان تزيد من قوة نضالها وثبات مواقفها ضد هذه السياسة الاقتصادية المفتوحة لتحد من التغلغل الامبريالي الذي جر على البلاد الكثير من الازمات الاقتصادية وزاد في تعميق التجزئة واثارة النعرات الطائفية والعنصرية بين مختلف الفئات الاجتماعية كي يظل الجهل والتخلف سائدا .

ومما لا شك فيه أن تتجه اهتمامات السياسة الامبريالية الى اهمية الشرق الاوسط العسكرية لتتمكن من تحقيق هدفها الاقتصادي ، والذي يعتبر المصدر الاساسي لمختلف تحركاتها في العالم . وانطلاقا من هذه الاهمية الاقتصادية والاستراتيجية اصبح الشرق الاوسط كما كان هدفا لمختلف القوى الامبريالية ومركزا من مراكز الصراع الدولي في تاريخنا الحديث والمعاصر لان هذه الاستراتيجية تمكن من الدفاع عن كافة المصالح الاستعمارية سواء ضمن المنطقة أو خارجها لسهولة الانتقال والاتصال منها والى شتى دول العالم ، وامكانية تنفيذ كافة خطط السيطرة . مما

(٢٦) المصدر السابق ص ٣٩٥

(٢٥) د. رزق الله هيلانه سورية بين التنمية والتخلف دمشق ١٩٧٢ ص ٣٩٢ .

جعل الدول الامبريالية تتصارع حولها للحفاظ على مصالح كل منها . وقد كتب تشرشل في منتصف القرن التاسع عشر يقول « اذا كانت بريطانيا ترغب في الحفاظ على سيطرتها في الشرق ينبغي لها بشكل أو آخر ان تدخل سوريا ومصر في نطاق نفوذها وسيطرتها »(٢٧) ومع تطور الاحداث اظهرت الحربان العالميتان مدى الاهمية العسكرية للشرق الاوسط التي تساعد الامبريالية على تحقيق أهداف استراتيجيتها المتطورة باستمرار مع تطور الاحداث العالمية . وقد كتب لويس فرتشلنغ في بحثه « استراتيجية الحلفاء في الشرق الادنى » في مجلة التقارير السياسية الخارجية في أول شباط ١٩٤٢ المجلد ١٧ عدد / ٢٢ / يقول « ان منطقة الشرق الادنى التي تقع جنوبي الجبهة الروسية الطويلة ، وشرقي ساحات المعارك الصحراوية في ليبيا وغربي منطقة الصراع الشاسعة في القسم الجنوبي الشرقي من آسيا تحتل اليوم مركزا رئيسيا في الاستراتيجية العالمية . فان طرق النقل تخترقها برا وبحرا مما يوفر نقل الجيوش والمعدات من جبهة لاخرى كما تخترقها ايضا طرق المواصلات التي تضمن تنسيق العمليات المختلفة لجيوش الحلفاء ولذا فان منطقة الشرق الادنى تعتبر حجر الزاوية في خطط الحلفاء الدفاعية »(٢٨) وفيما بعد الحرب الثانية وانتصار الحلفاء كانت بداية اهتمامات الولايات المتحدة بعد تزعمها للامبريالية العالمية هو الشرق الاوسط لانه المنطقة المركزية التي تساعدها كثيرا على تنفيذ خططها ومشاريعها العدوانية في التصدي لدول المعسكر الاشتراكي والاتحاد السوفياتي وهو ما صرح به الرئيس ترومان في ٦ نيسان ١٩٤٦ من خلال بيان قدمه بيوم الجيش قال فيه « في هذه المنطقة « الشرق الادنى » موارد طبيعية هائلة فضلا عن انها منطقة تقع عبر افضل

(٢٧) زين نور الدين زين مصدر مذكور ص ١٥ .

(٢٨) المصدر السابق ص ١٦ .

الطرق البرية والمواصلات الجوية والمائية . فهي لذلك بقعة ذات أهمية اقتصادية واستراتيجيــة عظيمة لذا يدرك المرء كيف ان الشرق الادنى والاوسط يمكن أن يصبح يوما ما حلبة لمنافسة عنيفة بين القوى الخارجية وكيف ان تنافسا كهذا يمكن ان يتحول فجأة الى نزاع مسلح(٢٩) وقد بين الدكتور محمد عبد المولى في كتابه الانهيار الكبير (ان بداية الاحلاف الغربية بعد الحرب العالمية الثانية كان حلف شمال الاطلسي « عام ١٩٤٩، وسارت الدول الغربية على هذه السياسة فيما بعد قاصدة ان تحيط الاتحاد السوفيتي ودول شرقي أوربا الشيوعية بسياج عسكري من كل جانب ، ومن الطبيعي أن توضع منطقة الشرق الاوسط بما فيها الدول العربية ضمن الاستراتيجية الغربية وصولا الى احكام السياج العسكري حول الاتحاد السوفيتي والكتلة الشيوعية(٣٠) .

انطلاقا من هذه الاهمية العسكرية رأت الدول الامبريالية ضرورة الحفاظ على اسرائيل في فلسطين العربية وساعدتها على استكمال مشاريعها التوسعية العدوانية في المنطقة لتجعل منها الركيزة الاساسية في خدمة أهداف الامبريالية في الوطن العربي ، ونقطة تهديد دائمة لأمن البلدان العربية المجاورة لتجبرها باستمرار على بذل أعظم ما تستطيع من طاقاتها المادية في سبيل اعداد الجيوش ورد العدوان . كما راحت الامبريالية تعمل على تنظيم خطط الدفاع عن الشرق الاوسط والاحلاف العسكرية بحجة الحماية من الخطر الشيوعي . بينما الغاية الرئيسية هي الحفاظ على مواقع الامبريالية في المنطقة ومن البدهي ان تتجه خطط الامبريالية وضغوطها المختلفة الى اكثر المناطق العربية اهمية لا سيما الدول التي استطاعت حركات التحرر فيها انجاز بعض الانتصارات في

(٢٩) المصدر السابق ص ١٧ .

(٣٠) محمد عبد المولى الانهار الكبير مصدر مذكور ص ٢٦ .

الاستقلال السياسي وتطوير الحياة الديموقراطية والحد الى درجة ما من التغلغل الامبريالي . وعلى هذا كانت سورية ولبنان الحلقة المستهدفة . اذ تعتبر سورية حارسة المسالك الشمالية الشرقية المؤدية الى مصر وطريق العراق الوحيد الى البحر الابيض المتوسط ، وحدود الوطن العربي الشمالية . كذلك لبنان لا يقل اهمية استراتيجية عن سورية لملامسته فلسطين ولكونه المنفذ الرئيسي على الشاطىء الشرقي للبحر المتوسط . وبهذا يشكل القطران صلة الوصل الرئيسية بين آسيا وافريقيا مما جعلهما مركزا اساسيا في السياسة الامبريالية الشرق اوسطية . خصوصا وان حركة التحرر في هذين القطرين ذات ابعاد عميقة تؤثر على تثوير المنطقة العربية .

ان المتعارف عليه اليوم من خلال مجريات الاحداث الدولية ان « السياسة تعبير مكثف عن الاقتصاد » وقد شغل الوطن العربي قاعدة سياسية كبرى بالنسبة للسياسة الامبريالية العالمية الساعية الى انجاح استراتيجيتها الاقتصادية والعسكرية في الشرق الاوسط . فكان عليها ان تعمل على ايجاد النصير والمؤيد المرتبط بمصالحها المباشرة وغير المباشرة وفي الخمسينات من فترتنا تلك استطاعت الامبريالية الانكليزية والامريكية ان توجد مجموعة من الحكومات العربية في دائرة التبعية للغرب الامبريالي وابعادها قدر المستطاع عن الاقتراب من الدول الاشتراكية الديموقراطية . فكانت حكومة نوري السعيد في العراق وعبد الله في الاردن ، وشمعون في لبنان افضل اتباع للامبريالية الامريكية والانكليزية ، وخير منفذ لما تمليه سياستها . وهذا ما جر البلاد الى المزيد من التبعية والتخلف والضعف . اما في سورية ومصر فلم تكن الامور هكذا بسبب مشاركة الحكومة في احيان كثيرة بعض مواقف حركة التحرر الوطنية الاستقلالية وهذا ما دفع بالامبريالية الى زيادة التركيز على القطرين ، فتعرضت سورية الى سلسلة طويلة من الانقلابات العسكرية والديكتاتورية اذ بلغت ما بين ١٩٤٩ ـ

١٩٥٤ ما يقارب ستة انقلابات عسكرية . وكان هذا اللون الجديد من الحكم الذي اخذ بالانتشار بعد الحرب الثانية ، واثر نهوض حركة التحرر الوطنية وارتفاع نفوذ الاشتراكية في العالم كما يصفه بدر الدين السباعي في كتابه اضواء على الراسمال الاجنبي في سورية) بمثابة شكل جديد من اشكال الاستعمار فمع حدوث الانقلاب الاول في سورية بقيادة الزعيم في ٣٠ / ٣ / ١٩٤٩ انتشر الارهاب الفاشي وحل البرلمان والاحزاب . واعتقل الاحرار ولوحق التقدميون ، وسيطرت الديكتاتورية ، وفسح المجال أمام الاتفاقات البترولية الامريكية بمد خطوط التابلاين عبر الاراضي السورية الى البحر المتوسط (وقامت شركة الاي بي سي بمد خطوط اضافية لخطها الاول الممدود في المرحلة الانتدابية فبدأت بمد خط ثان عام ١٩٤٦ (١٦) ليكون عقدة تصل كركوك بطرابلس . وبمد خط ثالث عام ١٩٥٢ بطاقة (٢٣ ـ ٣٠ عقدة) من كركوك الى بانياس(٢١) ـ وبهذا الشكل تساهلت الحكومات الديكتاتورية في مواقفها امام المشاريع والتدخلات الامبريالية دون أن تلتفت الى الوجه السياسي لهذا التدخل الى ان استطاعت الفئات الوطنية والديموقراطية ان تحقق في انتخابات ايلول ـ تشرين أول ١٩٥٤ انتصارا كبيرا ، وارتفع لاول مرة في تاريخ سورية صوت ممثلي الفلاحين والعمال في البرلمان السوري وعدد من نواب حزب البعث العربي الاشتراكي وقوى ديموقراطية اخرى)(٢٢) .

اما مواقف الحكومات اللبنانية فكانت اسوا بكثير مما كان في سورية لانها تلقت مختلف المشاريع الامبريالية بالكثير من القبول والموافقة (ففي أوائل كانون الثاني ١٩٥٧ اعلنت الحكومة عن موافقتها على مبدا ايزنهاور ، واعلن شارل مالك وزير خارجيتها ان حكومته مستعدة للتعاون مع

(٢١) بدر الدين السباعي مصدر مذكور ص ٤٥٦ .
(٢٢) المصدر السابق ص ٤٧٢ .

الولايات المتحدة الامريكية كما ان الرئيس شمعون كان قد اعلن في عدة مناسبات عن قبوله « بالمبدأ » ويقول كمال جنبلاط بهذا الصدد « ولما بزغ مشروع ايزنهاور وتسلق عليه شمعون وجماعته فورا كخشبة للخلاص من المازق الداخلي العسير »(٢٣) وكانت قوى التحرر الوطني في نضال دائم ضد هذه المواقف الرجعية وقد اصدر الحزب الشيوعي اللبناني بيانا انتخابيا في اواخر آذار ١٩٥٧ (دعا فيه جميع القوى الوطنية لجعل المعركة الانتخابية بالدرجة الاولى ضد مبدأ ايزنهاور وضد الارتباط باي اتفاق من نوعه يعطي مركزا لاية دولة)(٢٤) واستمرت المقاومة الوطنية في اشكال مختلفة من النضال والتضحية رغم اجراءات الدولة التعسفية في القضاء عليها وبهذا يمكن ان نتبين مدى اهمية الشرق الاوسط والوطن العربي الاقتصادية والجغرافية والاستراتيجية والسياسية ، وكيف جعلت الامبريالية من المنطقة هدفا لتحقيق اطماعها في زيادة احتكاراتها وارباحها وكيف سخرت كافة قواها السياسية لتتخذ من المنطقة ايضا نقطة ارتكاز لضرب حركات التحرر الوطنية المتصاعدة والقوى الاشتراكية والديموقراطية العالمية كي تستمر في السيطرة والنهب والاستغلال .

٣ ـ زيادة حدة التناقضات بين البلدان الامبريالية في النضال من اجل الحصول على مراكز النفوذ الانكليزية ـ الفرنسية ـ الامريكية .

ان الدراسة العلمية لتطورات الاحداث التاريخية في العالم المعاصر تبرهن على أن قانون « النمو الاقتصادي غير المتناسب » بين الدول الامبريالية يؤدي الى تعميق حدة تناقضاتها ، وانتشار الازمات العامة ، والصراع العنيف بينها ، من اجل تقسيم واعادة تقسيم العالم . لان

(٢٣) هومنها نسيان مصدر مذكور ص ١٤٢ .

(٢٤) المصدر السابق ص ١٤٥ .

النظام الامبريالي الاستعماري في جوهره الاقتصادي يقوم على اتباع مختلف أساليب النهب والسيطرة والاستغلال الوحشي للبلدان الضعيفة اقتصاديا ، والبلدان التابعة من أجل زيادة الارباح ، كما أن الامبريالية لا تميل ابدا الى التخلي عن مصدر هذه الارباح الطائلة . وفي هذا يبين لينين بأن « نظام الامبريالية هو نظام استعباد ونهب وعنف » ويوضح طبيعة العلاقات القائمة عليها فيقول « ان العلاقات القائمة على السيطرة والعنف هي الصفة النموذجية للمرحلة الجديدة في تطور الرأسمالية »(٢٥)

ولم تكن الحرب العالمية الثانية الا نتيجة للصراع العنيف بين القوى الامبريالية العالمية . واشتداد الازمة العامة للراسمالية ، والتي تمخضت عن تبدل واضح في القوى بين الدول الاستعمارية ، وظهور دول راسمالية فتية مثل المانيا ، واليابان لكن التبدل والصعود الكبير كان لصالح الرأسمال الامريكي . والذي يرمي في مختلف خططه الى السيطرة على العالم ، وانتزاع اعظم ما يمكن من المناطق والنفوذ وسيطرة الدول الاستعمارية الاخرى. كما حدث خلل واضح في مواقع الراسمال الانكليزي والفرنسي ، وهذا ما سيدفع للبحث عن أساليب متطورة للحفاظ على ما تبقى لهما من مناطق نفوذ والسعي وراء مكاسب جديدة لاستعادة المكانة الاولى المتقدمة بين الدول الامبريالية المتنافسة .

ومما لا شك فيه أن منطقة الشرق الاوسط والوطن العربي تشكل محورا رئيسيا ، واستراتيجيا من محاور الصراع والتنافس الامبريالي . لما يحتويه من ثروات طبيعية مغرية ، وطاقة بترولية هائلة ، وموقع استراتيجي ممتاز يساعد على تنفيذ الخطط العدوانية الامبريالية ضد دول المعسكر الاشتراكي ، والاتحاد السوفيتي الذي اضحى الخطر الاكيد

(٢٥) الاقتصاد السياسي . ل. ليونتيف الامبريالية (الجزء الثالث) مترجم عن الروسية دمشق دار الجماهير ١٩٦٨ ص ١١٠٠ .

أمام تغلغل النفوذ الامبريالي في المنطقة . لا سيما وان الاتحاد السوفيتي يعتبر السند الاساسي في دعم حركات التحرر الوطنية المتصاعدة في العالم.

وظل التنافس قائما بين الامبريالية الفرنسية والانكليزية حتى مرحلة الحرب العالمية الاولى الى ان تم اقتسام المنطقة العربية فيما بينها بموجب معاهدة سايكس بيكو السرية ١٩١٧ ، والتي حققت فرنسا بموجبها اطماعها ومصالحها البعيدة في المغرب العربي (تونس ، مراكش ، الجزائر) وفي المشرق العربي (سوريا ولبنان) اي استطاعت فرنسا خلال فترة ما بين الحربين الحفاظ على توازنها بين الدول الامبريالية نتيجة امتلاكها أكثر مناطق البحر المتوسط اهمية. لكن الحرب العالمية الثانية وماتمخضت عنه من نتائج هامة ، وحصول سورية ولبنان على الاستقلال السياسي عرض فرنسا الى الكثير من ضغوطات الدول الامبريالية بسبب الضعف الاقتصادي الذي اصابها اثناء الحرب الذي ادى الى تخلخل مواقعها بين الدول الامبريالية المتصارعة وبذلك فسح المجال امام بريطانيا التي كانت ترى دائما ان مصالحها تتركز ايضا في مناطق النفوذ الفرنسي كما ان فرنسا كانت تدرك تماما جوهر مخططات السياسة البريطانية منذ بدايات الحوار حول تقاسم مستعمرات الشرق الاوسط ، والتي قامت على قواعد مدروسة لامد طويل من اجل عرقلة نمو حركات التحرر العربية واتجاهاتها نحو تحقيق طموح الشعب العربي في الوحدة. لذا فقد قاومت فرنسا بشكل خفي مختلف مشاريع التغلغل الانكليزي في سورية ولبنان وخاصة « حلف بغداد » و« الهلال الخصيب » وغيرها لانها قدرت ان اي ارتباط بين سورية ولبنان من جهة ودول عربية اخرى من جهة ثانية يسيطر عليها النفوذ الانكليزي يعني ضرب النفوذ الفرنسي في المنطقة العربية ، رغم اعترافات انكلترا المستمرة في الاوساط الرسمية بسيادة فرنسا واحترام مصالحها في سورية ولبنان . وقد اكد تشرشل هذه الضمانات في مجلس العموم في ١٩ ايلول ١٩٤١ ان لا مطامع لنا في

سورية ولاتسعى لتخلف فرنسا او تزيحها لتحل مكانها او تستبدل المصالح البريطانية بالمصالح الفرنسية في اي جزء من سورية » (٣٦) .

كما ان الاتفاقية الانكليزية ـ الفرنسية حول الجلاء العسكري عن سورية الموقعة في ١٣ كانون اول ١٩٤٥ اوردت مجددا اشارة الى مناطق النفوذ المتفرقة وقد جاء فيها « تؤكد كل حكومة نيتها في تجنب القيام بما يضر مصالح الاخرى او مسؤوليتها في الشرق الاوسط » (٣٧) هذا الا ان فرنسا كانت تخشى كثيرا من ان تحل انكلترا محلها بعد انتهاء انتدابها على سورية ولبنان ومما يلاحظ حقا انه ماان تم طرد الاستعمار الفرنسي من سورية ولبنان حتى بدا الشرق الاوسط وكأنه منطقة نفوذ بريطانية . اضافة الى ذلك لم يغب عن السياسة الامبريالية ضرورة الارتباط بتيارات سياسية عسكرية داخلية في كل منطقة من مناطق نفوذها حتى تضمن باي شكل كان نجاح توسع التغلغل الراسمالي والنفوذ الاقتصادي الى اقصى حد ممكن . وفي هذا حققت الامبريالية الكثير من النجاحات . وقد القى الامير « عادل رسلان » بعض الضوء على علاقات فرنسا بحسني الزعيم في المقابلة التي اجرتها معه صحيفة الحياة البيروتية فقال (ان فرنسا حاولت تحسين علاقاتها بسورية في الايام الاخيرة من حكم القوتلي الا انها بذلت جهودا اكبر في هذا السبيل حين تسلم الزعيم السلطة وبذلت فرنسا كل جهد لحث البلدان الاخرى على الاعتراف بحكمه وكما يؤكد رسلان بان الزعيم دخل في مفاوضات سرية مع فرنسا لعقد معاهدة بينهما(٣٨) فضلا عن ان النفوذ الفرنسي بقي قويا في بعض الاوساط العسكرية في سورية بين اولئك الذين تولى الفرنسيون تنشئتهم .

(٣٦) باتريك سيل مصدر مذكور ص ٧٩ الصراع على سورية .
(٣٧) باتريك سيل مصدر مذكور ص ٨٠ الصراع على سورية .
(٣٨) المصدر السابق ص ٨١ .

اما الولايات المتحدة الامريكية فقد تسلمت زمام المبادرة في تركيا واليونان منذ عام ١٩٤٧ واصبحت اسرائيل القاعدة الاساسية الاولى للامبريالية في الشرق الاوسط . ونتيجة لاكتشاف كميات كبرى من البترول في السعودية وايران فقد اتخذت منهما امريكا قاعدة اقتصادية رئيسية . كما تسربت امريكا الى العراق والاردن ولبنان بموجب اتفاقية « الامن المتبادل » عام ١٩٥٤ . (وفي غضون عشرين سنة ١٩٤٨ — ١٩٦٧ ابتزت الاحتكارات الامريكية التي كانت تشرف على استخراج البترول في اغلبية البلدان العربية ربحا صافيا قدره /١٢/ مليار دولار في حين ان توظيفاتها في هذا الميدان لم تبلغ اكثر من مليار ونصف المليار دولار) .(٢٩) وفي الوقت نفسه كانت امريكا دائبة على ان تحل محل بريطانيا في المنطقة على اساس من الاستثمارات الاقتصادية والبترولية ، ومحل فرنسا ثقافيا .

وقد جاء مشروع ايزنهاور لملء الفراغ بالشرق الاوسط خير تعبير عن مدى التناقض بين الدول الامبريالية لان المشروع جاء بعد حرب السويس في ١٩٥٦ حيث تداعت قوى الاستعمار الانكليزي والفرنسي واشتدت محاولات امريكا للتسلل والاستيلاء على (التركة) اذ كانت تطمع الى ابرام ميثاق دفاع افريقي لضم ليبيا وتونس ومراكش ثم الجزائر بحيث يكون الميثاق متناسبا مع ميثاق حلف الاطلسي . ثم لابد لها من تحديد موقعها العسكري في الشرق الاوسط عن طريق المساعدات لبعض الاقطار العربية وبالمقابل انشاء قواعد جوية وقوات خاصة ومسلحة ترابط في بعض اقطار الشرق الاوسط . ولابد من انشاء قواعد بحرية دائمة للاسطول السادس الامريكي في البحر المتوسط وبهذا يرى دالاس صاحب المشروع ان هذه السياسة اذا تحققت فان

(٢٩) تاريخ الاقطار العربية المعاصر مصدر مذكور ص ٥٤ .

الشرق الاوسط وشمال افريقيا سيدخلان ضمن نطاق المسؤولية الاستراتيجية للولايات المتحدة الامريكية وهذا ييسر للولايات المتحدة اتخاذ التدابير المناسبة في المنطقة دون شريكتها بريطانيا وفرنسا (٤٠) وبهذه الخطط تتمكن امريكا من تطويق المعسكر الاشتراكي وضرب حركات التحرر في المنطقة واستلام زمام امور قيادة الامبريالية العالمية . وكما ادركت بريطانيا تماما ان الخصم الحقيقي هو امريكا .

وفي حدة هذا الصراع والتنافس بين القوى الامبريالية استطاعت المانيا الغربية بحكم نهوضها الاقتصادي وأساليب تغلغلها الجديدة الناجحة أن تدخل ميدان التنافس في الشرق الاوسط وتثبت انها القوة المحركة الرئيسية في اوربا الغربية لاعادة تقسيم مناطق النفوذ المتبقية بعد الحرب العالمية الثانية للامبريالية .

ومن الجدير بالملاحظة أن التغلغل الامبريالي سار وفق اساليب حرة مختلفة متناسبة والاوضاع الاقتصادية لكل منها وبشكل يمكن من تحقيق اكبر قدرة من السيطرة والتفوق لزيادة الارباح وهذا الركض والتنافس حول الاحتكارات كان يزيد باستمرار من التناقضات والصدامات والازمات العامة لان اسلوب الانتاج بحد ذاته يقوم على التنافس . وفي ذلك وضح لينين بأن (هذا النوع من المنافسة يخلق تناقضات واحتكارات وصدامات حادة وشديدة) (٤١) .

اذا وبالرغم من اختلاف التكتيك بين الدول الامبريالية المتنافسة فانها كانت تعمل جميعها الى تحقيق استراتيجية واحدة تتمركز اولا حول السيطرة والنهب وزيادة الارباح وهذا ما ادى الى زيادة حدة التنافس

---

(٤٠) الانهيار الكبير مصدر مذكور ص ٦٩ .

(٤١) ل. ليونتيف . الامبريالية مصدر مذكور ص ١١، ماخوذ عن لينين المؤلفات جزء /٢٢/ ص ٢٥٣ .

والتناقض والصدام المستمر فيما بينها . ومع تطور حركات التحرر الوطنية ، وانتصار القوى الديمقراطية وسقوط النظم الاستعمارية في العالم ، اتجهت الاستراتيجية الامبريالية نحو ضرب حركات التحرر الوطنية المتصاعدة ، وتطويق المعسكر الاشتراكي والاتحاد السوفياتي لمنع تسرب الفكر التقدمي والاشتراكي الى شعوب العالم المضطهدة في مناطق النفوذ الامبريالي بعد ان ثبت في كثير من المواقف الرسمية وغير الرسمية مدى مناصرة الدول الاشتراكية وعلى راسها الاتحاد السوفيتي لحركات التحرر العالمية والتي ادركت جميعها تمام الادراك ان اول المهام الاساسية المتوجبة عليها هي السعي الى الاستقلال الحقيقي والنضال الحازم للقضاء على التخلف التكتيكي الاقتصادي . وعلى التبعيـــة الاقتصادية للاحتكارات الامبريالية .

وما زالت هذه الشعوب العالمية ومن ضمنها الشعب العربي مستمرة في طريق النضال ضد السيطرة والتبعية كما ان القوى التقدمية فـي العالم تعمل لتصعيد هذا النضال ودفعه الى المزيد من التلاحم والتضامن لتحقيق الاهداف الاساسية لحركات التحرر الوطنية في التحرروالاستقلال الكامل من طغيان ونهب واستعباد الامبريالية العالمية .

٤ ــ مواقف البلدان وسياساتها في ظروف الاستراتيجية الامبريالية الجديدة

ان تبدل خارطة العالم السياسية في النصف الاول من القرن العشرين وجملة التغييرات والتطورات التي حدثت في العالم الامبريالي ، وانهيار النظام الاستعماري ، وصمود حركات التحرر الوطنية الكبيرة ، وظهور قوى ديمقراطية جديدة . هذا كله كما رأينا حتم على الامبريالية العالمية ضرورة اتباع اساليب جديدة لتحقيق استراتيجيتها الاقتصادية في النهب والسيطرة ، وبشكل يتناسب ومجمل هذه التطورات . اي ان مختلف

المشاريع والخطط الامبريالية كانت وفق تكتيك كل دولة امبريالية على حدة . بحيث يخدم مصالحها الخاصة ويضمن تفوقها على غيرها من الدول الامبريالية الاخرى وفي الوقت نفسه يخدم استراتيجيتها العامة.

وقد كان الشرق الاوسط ، والوطن العربي الساحة التي عكست مجمل هذه الاحداث باعتباره من اهم المناطق التي احتوت ثروات هائلة من النفط ، وبالتالي تركزت حولها الاطماع الامبريالية العالمية . اذا كان لابد للاستعمار من العمل على ايجاد نظم وتيارات سياسية في المنطقة مرتبطة بشكل مباشر او غير مباشر بعجلة السياسة الاستعمارية . ولذا حرص الاستعمار منذ بداية تغلغله ، وخلال فترة وجوده في الوطن العربي وحتى بعد سقوطه على ان تكون الفئات الحاكمة منحدرة من اصول اقطاعية تدين بثبات وجودها للامبريالية اضافة الى وجود فئات برجوازية كومبرادورية من صنع الامبريالية نفسها ايضاً . بينما الفئات المثقفة التي لعبت ادواراً هامة في سياسة الوطن العربي وقيادة احزابه ، كان اغلبها من ابناء الاقطاع والبرجوازية التي تلقت ثقافاتها في الغرب الرأسمالي .

كما عملت الامبريالية العالمية على تكريس التجزئة والانعزال داخل المنطقة العربية وتثبيت عروش رجعية ، أو حكومات ديموقراطية مزيفةاو امارات عشائرية . وبذلك يمكن تحقيق تبادل المصالح الاقتصادية بين تلك الاطراف القائمة على الحكم في الداخل وبين القوى الامبريالية الرامية الى الحفاظ على التبعية ومتابعة النهب والاستغلال . اذ لقد حققت المخططات الامبريالية الكثير من المكاسب عن طريق ربط غالبية الحكومات العربية بعجلة سياستها . ففي العراق ، استطاعت الامبريالية الانكليزية بمساعدة الاسرة الهاشمية ، والعميل المخلص « نوري السعيد »ان تجعل السياسة العراقية اداة طيعة لتحقيق اطماعها في ثروات العراق البترولية

عن طريق مجموعة من المخططات الاستعمارية كمشروع « سورية الكبرى » « والهلال الخصيب » و « حلف بغداد » . وقد اثبت نوري السعيد مدى اخلاصه والتزامه بالسياسة الامبريالية ففي احدى المحادثات التي جرت بينه وبين عبد الناصر من اجل العمل على تنفيذ الخطط الدفاعية للاقطار العربية « ميثاق الامن الجماعي » ضد الامبريالية ، كان تصريح نوري السعيد اكبر برهان على تبعيته واخلاصه للغرب اذ قال « اني لا استطيع ان اعتمد على العرب في الدفاع عن بلادي ، فاذا قلت لشعبي ولاصدقائي الاجانب انني ساعتمد على جيوش سورية والسعودية ولبنان للدفاع عن بلادي فسيقولون لي « نوري انك لأحمق » ان الطريقة الوحيدة للدفاع عن بلادك هي في عقد تحالف مع الغرب ، انني افهم شكواك تجاه بريطانيا(٤٢) ان هذا الحوار دلالة واضحة على مدى تبعية حكام العراق الى انكلترا ومدى الالتزام الذي فرض على السياسة العراقية تجاه الامبريالية .

أما في لبنان فقد كان وضع الحكم والقائمين عليه من كبار الاقطاعيين والبرجوازيين أسوأ مما هو في باقي الاقطار العربية المذكورة سابقا . لان لبنان بالرغم من حصوله على الاستقلال السياسي لم يستطع حكامه أن يتحرروا من السيطرة الامبريالية سواء في البرلمان الذي كان يمتلك مطلق الصلاحيات وبرئاسة رئيس الجمهورية ، أو من ناحية بنية قانون الانتخابات في ظل ديموقراطية السلطة البرجوازية اذ كان يعتمد الطائفية أساسا في توزيع مقاعد المجلس بنسب معينة . وكما يقول « هونيسان . في كتابه النضال التحرري الوطني في لبنان » ان ظاهرة الطوائف الدينية المتعددة موجودة في كل بلدان العالم تقريبا غير ان هذه الظاهرة لا تقوم بأي دور سياسي في تركيب بنية الدولة وجهازها لكن الطائفية في لبنان

(٤٢) الصراع على سورية مصدر مذكور ص ٢٧٣ .

اصبحت اسلوبا سياسيا يلعب دورا سلبيا بعيد المدى في الحياة الاجتماعية والسياسية في البلاد(٤٣) كما مارست الحكومات اللبنانية المتتالية شتى انواع الضغوطات على حريات الشعب سواء في الانتخابات ، او الصحافة والنشاطات الحزبية التقدمية . اضافة الى انتشار الفساد والرشوة في جهاز الدولة وقد كان حكام لبنان خير عامل على جر لبنان الى دائرة التبعية الامبريالية ومخططاتها الاستعمارية ، ويوضح كمال جنبلاط تلك العلاقة الكامنة بين سياسة الامبريالية واهدافها من جهة وبين الفساد السياسي الذي ازدهر كثيرا في ذلك العهد فيقول « ان سياسة الفساد والافساد ونشره وتعميمه هي من صلب مناهج الاستعمار وهي التمهيد الطبيعي لعرض مشاريعه وتحقيق اغراضه المباشرة . فالفساد هو الافيون الذي يسكر الشعوب ويدوخها فيجعلها قابلة للترفض في عهود النهضة والانطلاق وتكريم القيم » كما قبلت الحكومة اللبنانية بمبدا ايزنهاور منذ ظهوره وبكل اهدافه ومحتواه . لقد اعلن « شارل مالك » وزير خارجيتها في اوائل كانون الثاني ١٩٥٧ (ان حكومته ترحب بمبدا ايزنهاور وانها مستعدة للتعاون مع الولايات المتحدة)(٤٥) .

اما في سورية وبفضل النهوض الثوري الذي شهدته خلال الخمسينات ضد السياسة الامبريالية (التي لم تتوافق ومصالح البرجوازية

(٤٣) النضال التحرري الوطني في لبنان هومنها تيسيان مصدر مذكور ص ٤٧ . هناك تقليد منذ الاستقلال والميثاق يقضي بان يتولى سدة الرئاسة مسيحي ماروني ، والرئاسة الثانية (رئيس مجلس النواب) يتولاها مسلم شيعي ـ والثالثة رئيس مجلس الوزراء مسلم سني ، وان يكون وزير الخارجية مسيحيا من الروم الارثوذكس ووزير الدفاع درزيا الخ ...

(٤٤) المصدر السابق ص ٥٢ .

(٤٥) المصدر السابق ص ١٤٢ كانت القوى الديموقراطية في لبنان تسميه وزير خارجية الولايات المتحدة الامريكية في لبنان لنزعته الامريكية .

الكومبرادورية) ومخططاتها ، والاساليب الجديدة التي اوجدتها للحفاظ على مصالحها في سورية والابقاء على التبعية عن طريق الانقلابات العسكرية والديكتاتورية ، والتي مكنت الفئات الرجعية الموالية للامبريالية من الوصول الى السلطة وتحقيق المصالح المتبادلة . وبهذا كان حكم « حسني الزعيم » و « اديب الشيشكلي » خدمة كبرى للمصالح الفرنسية خاصة ومجالا واسعا لتغلغل الرساميل الامبريالية (الامريكية والالمانية والانكليزية والفرنسية) في مختلف قطاعات الاقتصاد الوطني . (اذ احرزت المانيا الاتحادية نجاحا في تطوير مبادلاتها مع سورية الى حد دفع المستشار التجاري الفرنسي في دمشق الى القول في تشرين اول ١٩٥٤ « بأن المانيا اصبحت اليوم اخطر منافس يصادف سورية ولا شك ان التراجع الذي اصاب استيراد سورية للسلع الامريكية والانكليزية انما هو نتيجة لهذه المزاحمة »(٤٦) .

وبشكل عام يمكن القول أن السمات الاساسية للحكومات العربية في ظروف تعميق التناقضات بين البلدان الامبريالية كانت انعكاسا واضحا عن مختلف التناقضات ،والتناقضات بين الدول الاستعمارية لان الوطن العربي عاش منذ فجر تاريخه الحديث ، ومع بدء التغلغل الامبريالي جملة من تأثير التيارات الفكرية الغربية المختلفة ومع تقادم الزمن كان الاستعمار عاملا في تعميق هذه الخلافات الفكرية التي تتناسب والمصالح الاقتصادية لكل دولة امبريالية ومع التطورات والتغيرات التاريخية ، وصعود حركات التحرر الوطنية نشطت الامبرياليةفي تطوير استراتيجيتها للاستمرار في النهب والسيطرة مماجعلها تسعى لتعميق التجزئةالسياسية العربية وزيادة ربطها مع السياسة الامبريالية وتناقضاتها ، مما يتيح

(٤٦) اضواء على الراسمال الاجنبي مصدر مذكور ص ٤٤٨ .

المجال لتحقيق اهدافها العامة وقد نجحت الامبريالية كما رأينا في جر غالبية الاقطار العربية الى عجلة السياسة الامبريالية والالتزام بها .

اذن كان للامبريالية وتناقضاتها وصراعاتها في المنطقة العربية اثرها الكبير وانعكاساتها السيئة على السياسة العربية ، كما أن السياسة الامبريالية عملت باستمرار على خلق فئات سياسية حاكمة في الداخل مرتبطة تمام الارتباط بمصالح متبادلة مع الاستعمار تدفع بكافة الاطراف المستقلة الى زيادة الضغط والحصار على حركات التحرر الوطنية ونضالها ومطامعها في التحرر واماني الجماهير المناضلة من اجل وحدتها ونهوضها.

* * *

الفيزياء الحديثة: مضامينها وتطبيقاتها في نطاق علم النفس

ندرة اليازجي

للفيزياء الحديثة تأثير بالغ في الفكر الفلسفي . فقد كشفت هذه الفيزياء عن محدودية الافكار الكلاسيكية وادت الى مراجعة عميقة للتصورات الاساسية العديدة في علاقتها بالحقيقة والواقع . وابانت كيف تختلف تصورات الفيزياء الجوهرية وما دون الجوهرية المادة والموضوع والمكان والزمان والعلة والمعلول عن التصورات الكلاسيكية المقابلة ، وكيف ادى التحول الجذري الى صياغة نظرة كونية شاملة .

ولا شك ان التبدلات المفاجئة في فلسفة الفيزياء ستؤثر ، عاجلا أم اجلا ، في العلوم الاخرى ، الطبيعية والانسانية والاجتماعية . وذلك لان هذه العلوم اخذت تصوغ ذاتها بصيغ الفيزياء . ولما كانت هذه العلوم قد صاغت ذاتها وفق مقولة الفيزياء النيوتونية ، فانها تبذل جهدها في الوقت الحاضر لتوسيع فلسفاتها الاساسية لسبب واحد هو ان الفيزيائيين قد تجاوزوا النموذج النيوتوني والديكارتي ، مما ادى الى ادراك العلوم الاخرى لما طرأ من تقدم في الفيزياء الحديثة . وفي هذه الدراسة ، نشير الى علائقية هذا الادراك الجديد بعلم النفس والطب النفسي .

النظرة النيوتونية الميكانيكية

يتوجب علينا ، ونحن نستهل دراستنا ، ان نصف النظرة الى العالم التي سعت الى تبديلها او تعديلها الفيزياء الحديثة . وتعرف هذه النظرة بأنها موقف من العالم يتصف بالميكانيكية . هي نظرة وجدت جذورها في فلسفة الذريين الاغريق الذين قالوا أن المادة مصنوعة في « اساسها من كتل بناء » عديدة ، هي الذرات ، تتصف بقدرة كامنة حيادية وهامدة في جوهرها . وكان الاعتقاد السائد ان حركتها تقوم على محرك خارجي يظن أنه ذو منشأ روحي يختلف اختلافا أساسيا عن المادة .

ولقد اضحت هذه الصورة جزءا هاما متصلا بطريقة التفكير الغربية وأدت بدورها الى انبعاث ثنائية الروح والمادة ، ثنائية العقل والجسد ، ثنائية طبعت الفكر الغربي بطابعها . ووجدت هذه الثنائية صيغتها الصافية ؛ ووضعت ذاتها في شكلها الواقعي ، في فلسفة ديكارت الذي اسس نظرته الى الطبيعة على التقسيم الجوهري للروح والمادة ، للأنا والعالم . وبالفعل ، افسح هذا التقسيم الديكارتي المجال امام العلماء

لاعتبار العالم المادي كثرة او تعددا من الموضوعات المختلفة تجمعت واحتشدت في آلة ضخمة . ولقد دعم نيوتن هذه النظرة الموجهة الى العالم وشاد ميكانيكه عليها ، وجعلها القاعدة التي تقوم عليها الفيزياء الكلاسيكية .

اذن ، فقد قام كون نيوتن الذي تحدث ضمنه الظاهرات الفيزيائية كلها ، على المكان ذي الابعاد الثلاثة ، الذي يعتمد بدوره على هندسة اقليدس الكلاسيكية . وهكذا كان كون نيوتن مكانا مطلقا ، اي وعاء فارغا مستقلا عن الظاهرات الفيزيقية التي تقع ضمنه . وفي هذه الحال ، تصف الفيزياء الكلاسيكية الميكانيكية التبدلات او التغيرات الواقعة في العالم المادي بلغة بعد مستقل ، هو الزمان المطلق المستقل بدوره عن العالم المادي ، والمتدفق برقة من الماضي مرورا بالحاضر الى المستقبل .

اما العناصر التي يتألف منها العالم النيوتوني التي تتحرك داخل هذا الحيز المطلق والزمان المطلق فلا تخرج عن كونها جسيمات مادية دقيقة صغيرة صلبة ، تعرف بانها اشياء لا تقبل التجزئة أو الاتلاف ، انبثقت منها المادة كلها . واستطاع نيوتن ان يصف حركتها الناشئة عن قوة الجاذبية في معادلاته عن الحركة . وعدت هذه المعادلات الاساس الذي شيدت عليه الميكانيكا الكلاسيكية . وبالاضافة الى هذا ، اخذت بانها قوانين ثابتة تتحرك وفقها الموضوعات او الاشياء المادية ، واعتمدت قواعد تفسر كلية التغييرات الملاحظة في العالم الفيزيائي . وتبين نظرة نيوتن كيف ان الله ، في البدء ، خلق الجسيمات المادية ، والقوى المنظمة بينها ، والقوانين الاساسية للحركة . وبهذه الطريقة ، انطلق الكون كله في حركته وتابع حركته منذ ذلك البدء ، مثل آلة ، تتحكم بها القوانين الثابتة التي لا تقبل التبديل .

هكذا نرى ان النظرة الميكانيكية المضافة الى الطبيعة تمت بصلة وثيقة الى حتمية صارمة . وتشاهد الالة الكونية الجبارة وكأنها تخضع

بكاملها للحتمية والسببية . فكل شيء يحدث ، يخضع لعلة أو سبب ، ويؤدي الى احداث او نشوء معلول محدد لا لبس فيه . لذا ، لا يدهشنا ان نعرف ان هذا الاصل الفلسفي الذي نشأت على خلفيته الحتمية الصارمة يمثل الفصل الجوهري بين الانا والعالم ، هذا الفصل الذي وطده ديكارت . ونتيجة لهذا الفصل او التقسيم والتجزئة ، نشأالاعتقاد بامكانية وصف العالم على نحو موضوعي ، واقصد ، دون التعرض للذكر اللاحظ او المراقب الانساني . ولا غرو ان مثل هذا الوصف الموضوعي للطبيعة هو المثال الذي يحتذيه كل علم .

التأثير الناتج عن المنهج النيوتوني على العلوم الاخرى

هيمن المنهج الميكانيكي النيوتوني الكوني على الفكر العلمي كله طيلة فترة تمتد من النصف الثاني للقرن السابع عشر حتى نهاية القرن التاسع عشر ، الامر الذي جعل العلوم الطبيعية بالاضافة الى العلوم الانسانية والاجتماعية ، تعدل ذاتها وفق الفيزياء النيوتونية . والحق يقال ان بعضها لا يزال مشدودا برباط إلى هذا النموذج رغم تجاوز الفيزيائيين له .

وقبل ان نستهل بحثنا عن الاثر الذي خلفته الفيزياء النيوتونية على علم النفس ، اريد ان اشير الى نقطة هامة في حديثنا ، هي أن التصور الجديد للكون ، وهو منبثق من الفيزياء الحديثة ، يدين الفيزياءالنيوتونية بالخطأ ، ولا يشدد على صواب نظريات العلماء الجدد الاخيرة . فلقد اقام العلماء الدليل ، وتأكدوا بعض التأكد ، وهم يعملون في نطاق العلم الحديث ، أن النظريات العلمية الحديثة برمتها تقديرات تقريبية لطبيعة الاشياء . وبناء على هذا ، تكون كل نظرية صحيحة ضمن مجال معين من مجالات الظاهرات . والى ما وراء هذا المجال ، لا تقدم هذه النظرية وصفا كافيا للطبيعة ، وهذا يعني ان الفيزيائيين يسمون الى البحث عن نظريات

جديدة تحل محلها ، او يعملون على التوسع في مضمونها في سبيل تحسين افضل لما جاء فيها من تقدير تقريبي .

اذن ، فالقضية المطروحة تعبّر عن ذاتها بالسؤال التالي : اي مقدار من الصواب والتقدير التقريبي نجده في النموذج النيوتوني يجعلنا نتبناه كقاعدة للعلوم الاخرى بشكل عام وعلم النفس بشكل خاص .

وللاجابة على سؤال من هذا النوع نقول : ١ ــ في الفيزياء ذاتها ، لا يصلح هذا النموذج ، بل لا يطبق ، على مستوى اللامتناهي في الصغر ــ الفيزياء الجوهرية وما دون الجوهرية ــ وعلى مستوى اللامتناهي في الكبر ــ الكوزمولوجيا والفيزياء الفلكية . ٢ ــ في حقول علمية اخرى ، قد تكون الحدود التي تقف عندها هذا النموذج من طبيعة اخرى . وجدير بالذكر ان ما نتحدث عنه ليس هو تطبيق الفيزياء النيوتونية على الظاهرات الاخرى بقدر ما هو تطبيق النظرة الميكانيكية المقلصة للعالم(١) التي قامت عليها الفيزياء النيوتونية . لذا ، يتوجب على كل علم بالضرورة ان يكتشف لذاته موقع حدود هذه النظرة للعالم ضمن سياق خاص .

التأثير الناتج عن فلسفة ديكارت على العلوم الحديثة

استطاعت آراء ديكارت ان تطبع علم النفس والطب النفسي بتأثيرها الحاسم . فقد اصبح الفصل الديكارتي بين الذات العارفة والموضوع المعروف القاعدة المتبعة في البيولوجيا ، والطب ، وعلم النفس والطب النفسي ــ العقلي . ومن اللحظة التي طرح فيها هذا الفصل تساءل

---

(١) النظرة المقلصة هي المذهب الذي يرد الموضوع او الشيء الى كتل بانية . وهي ، بالاضافة الى هذا ، تقليص الكيان الانساني الى حالة او وضع او بعد ، واخضاعه لتفسير ضيق محدود .

العلماء والفلاسفة عن الطريقة التي تم فيها تفاعل العقل والمادة مع بعضهما ، وعن دور وطبيعة كل من الدماغ والعقل ، فلا يدهشنا بعد الان ان نقول ان ديكارت عزز الثنائية وكرّس الفصل بين العقل والمادة ، والعقل والدماغ .

وفيما يتعلق بالبيولوجيا ، فقد وقف علماء البيولوجيا على جانب من جانبي هذا الخط او الحد الفاصل واعتنقوا مبدأ ديكارت في الكائنات الحية،وقالوا عنها بأنها الان منشأة نتيجةلتجميع اجزاء منفصلة ويفترض مثل هذا التناظر الوظيفي بين الآلة والمتعضيات فهما لهذه المتعضيات يوضح فرقا اساسيا بين تجزئة هذه المتعضيات وجمعها من جديد وبين معرفة اجزائها . وبالفعل ، لاتزال طريقة الفهم هذه تشكل العمود الفقري الذي يعتمد عليه التفكير البيولوجي المعاصر .

ولقد تأثر الطب بالنماذج الميكانيكية البيولوجية لانه يعد الجسد الانساني آلة خاضعة للتحليل والتركيب من خلال اجزائه . فالمرض ، من وجهة نظر الطب ، وجود خارجي يغزو الجسد ويهاجم جزءا معينا من اجزائه . وبناء على هذا ، يتجسد دور الطبيب في ان يتدخل ليحدث نتيجة عن طريق الجراحة ــ وهذا عمل جسدي ــ او عن طريق الادوية ــ وهذا عمل كيميائي ــ كما يسعى الى معالجة الجزء المريض المتضرر ، الامر الذي يؤدي الى اقامة نسبة بين الاجزاء المختلفة والاختصائيين المختلفين .

وفي الوقت الحاضر ، يواصل الطب الغربي طريقته في المعالجة ، وهي طريقة التقليص ، ويعمل على تطوير فروع علمه الاختصاصية الى نقطة لن يعود الاطباء بعدها قادرين على اعتبار المرض اضطرابا وقع في الجسد كله او في الطاقة الحيوية كلها ، كما يعجز عن معالجته وفق هذا المفهوم . وينحصر ما يقوم به الاطباء في معالجة جزء خاص من اجزاء الجسد . وتتم

هذه المعالجة على نحو عام دون اشراك الاجزاء الاخرى في العملية او دون اخذها بعين الاعتبار . ويغضون الطرف عن ، بل يهملون ، المعالم النفسية والاجتماعية لمرض المريض ويتركونها لشأنها . وان مثل هذا التصرف ، يفضي الى ان تترك المعضلات النفسية لعلماء النفس او لعلماء الطب النفسي الذين كانوا ولا يزالون يتخذون من المثال النيوتوني ـ الديكارتي نموذجا لهـم .

علـم النفس الكلاسيكي

هنالك طريقتان للمعالجة تدرسان العقل وفق معطيات علم النفس التقليدي القائم على الازدواجية الديكارتية . فمن جهة ، اختارت مدرسة علم نفس السلوك هذه الازدواجية من اجل دراسة تأثيرات العقل على المادة عن طريق دراسة السلوك . ومن اجل تحقيق هذا الهدف تم تطبيق ميثودولوجيا الفيزياء الكلاسيكية . ومن جهة ثانية ، اختـار فرويد الاستبطان طريقا لدراسة الذات العارفة . وعلى الرغم من انه لم يعالج دراسة المادة ، لكنه ، مع ذلك ، اراد أن يطور علم نفس علمي صاغه بدقة وفق معطيات الفيزياء الكلاسيكية .

علـم نفس السلوك

انبثقت مدرسة علم نفس السلوك من علم نفس القرن التاسع عشر الذي حاول أن يقلص الظاهرات النفسية الى « كتل بناء » نفسية او عقلية ـ هي مجرد تداع مبدئي للافكار والخواطـر وادراكات حسـية بدائية الخ . وتعزى هذه العناصر والمقادير النفسية الى حوافز او منبهات فيزيولوجية يفترض انها أسباب لها . وكما هي الحال في البيولوجيا الكلاسيكية ـ ينظر الى المتعضيات الحية بأنها الات تستجيب للمنبهات الخارجية . وجدير بالذكر ان آلية التحريض ـ الاستجابة هذه صيغت وفق الفيزياء النيوتونية .

ويدافع علماء نفس السلوك ، الذين يشكلون الاتجاه السائد لعلم النفس الاكاديمي ، عن طريقة معالجتهم ويدعون بأنها الطريقة العلمية الوحيدة المتوفرة لمعالجة القضايا النفسية . ويتهم اولئك السلوكيون مدارس علم النفس التي تؤكد على الجانب الانساني وتلك التي تتجاوز البعد الواحد في دراسة الشخصية الانسانية ، بانها مدارس غير علمية . وان دل هذا على شيء فانما ليقدم البرهان على الكيفية التي بواسطتها يوحّد علم السلوك العلم مع الطريقة التقليدية التي تتصل بالعلم النيوتوني .

التحليل النفسي

لما كان فرويد قد سعى الى صبغ علم النفس بالصبغة العلمية ، فقد اقام أو اسس علاقة لها دلالة فكرية او تصورية تصل التحليل النفسي بالفيزياء الكلاسيكية . وافضى بهذه الحقيقة في وضوح قوله : « المحللون النفسيون هم ، في واقعهم ، آليون عنيدون ، متمرسون وماديون » .

وعلى غرار الفيزيائيين ، بحث فرويد عن « كتل البناء » . وركز في بحثه على الغرائز الاساسية وافترض «الانا ، والهو ، والانا العليا » ، وسلم بأنها بنى نفسية اساسية ، تتمركز وتمتد في الحيز النفسي . وتدرك هذه البنى بوصفها نوعا من انواع الموضوعات الداخلية التي تتصارع مع بعضها . وتقودنا النظرة الى اعتبار آليات وطرائق العقل انظمة تسيرها قوى صيغت بصيغ الميكانيكا النيوتونية .

هكذا نرى ان النموذج الميكانيكي ، مثله مثل الفيزياء الكلاسيكية ، يتصل بالحتمية الصارمة . ولما كان الطب النفسي يرتبط بالفيزياء الكلاسيكية والنموذج الميكانيكي فانه يفترض ان ما يلقاه داخل الانسان ثابت فيه منذ الولادة ، ويقلص الباثولوجيا ، بل يعزوها ، الى اسباب

محددة غاية التحديد ومقصورة على الفرد . وعلاوة على هذا ، يفترض الطب النفسي ان المراقب او الباثولوجي امرؤ منفصل عن الظاهرة المراقبة ، وهي المريض ، الامر الذي لا يؤثر في المعطيات او البيانات او الحقائق . ويضفي التقسيم الديكارتي صيغة على الفصل الصارم بين العقل والجسد ، ويهمل التحليل النفسي الجسد بمقدار ما يهمل الطب العقـــل .

ولا ينفي ما تقدم الافادة الناتجة عن الطريقة التي يسلكها التحليل النفسي في نطاق المعالجة في حالات كثيرة ، واخرى ناتجة عن الفيزياء النيوتونية . ولكن قضية الافادة يتضمنها السؤال التالي : اين تقع حدودهـا ؟

يتراءى الجواب في حقلين : اولهما ، حقل الفيزياء ، وفيه يتوجب علينا التخلي عن الافكار والعقائد الكلاسيكية او تعديلها ، عندما نتوغل الى حقول تقع الى ما بعد محيطنا الفيزيائي العادي . ثانيهما ، حقل التحليل النفسي الكلاسيكي ، وفيه يتوجب علينا تعديل الافكار والعقائد المتصلة به عندما يتعمق استقصاؤنا في المعالم القصية النائية للنفس ، والتي تقع الى ما بعد تجربتنا اليومية العادية .

وينطبق صدق هذا القول على التجارب التي اجريت لسبر الابعاد الكثيرة المتجاوزة للشخصية الانسانية حيث لا مكان للنموذج الفرويدي فيها . فقد وجد الباحثون ان التجارب السرية ، والتجارب الخارقة التي يتعذر تعليلها علميا ، والتجارب التي اجريت على من عانوا من المخدرات والتجارب في نطاق ابعاد الشخصية الانسانية ، هي تجارب تتحدى التصورات والمفاهيم الاساسية المعتمدة في العلم الكلاسيكي . لذلك ، يصنفها علم النفس التحليلي الكلاسيكي مع زمرة الامراض التي تمت الى الفصام بصلة ، وذلك لان الاطار التصوري لبنية كلية تنقصه، الامر الذي

يجعله عاجزا عن معالجة موضوع يخص النطاق الذي يتجاوز ابعاد الشخصية الانسانية .

وحقيقة الامر ان مثل هذا الهيكل التصوري لبنية كلية اخذ ينبثق الى الوجود من الفيزياء الحديثة . فلقد اطلقتنا فيزياء القرن العشرين على وجهة نظر مستحدثة للكون المادي تختلف بتمامها عن وجهة النظر الديكارتية ، وتتطابق مطابقة كبرى مع وجهات نظر حكماء السربة في العصور والمذاهب ، وتنسجم مع تجارب قام بها افراد عرفوا بتلقائية ذاتية تجاوزت ابعاد شخصيتهم . ومن جانبي ، احب ان افيد علماء النفس ان يدركوا حقيقة هذا التطور الناشيء ، ليعوا ، كما تقول لهم الفيزياء الحديثة ، ان التفكير العلمي ليس بالضرورة تفكيرا ميكانيكيا او تقليديا ، وان التصورات الكلية والطرق المتمدة في المذهب الكلي دقيقة وسليمة على نحو علمي .

وجهة النظر الكلية التي تتبناها الفيزياء الحديثة

يمكننا ان نخص وجهة النظر التي تعتمدها الفيزياءالحديثة عن العالم ، بالمقارنة مع تلك التي تبنتها وجهة النظر الديكارتية ـ النيوتونية الميكانيكية ، بكلمات تشير الى انها وجهة نظر عضوية حية ، كلية وايكولوجية . هي نظرة لا تعتبر الكون مجرد آلة مؤلفة من تعدد او كثرة موضوعات ، بل تعتبره عملية عضوية وظيفية ، متحدة ، متناسقة ، غير قابلة للانفصال والتقسيم في اساسيا وجوهرها . وتؤكد ان هذا الكل المتماسك الذي لا يقبل القسمة لا يتصف بالتماثل والاتساق فحسب ، بل بالبنيوية : انه يؤلف انماطا ونماذج .

تتراءى لنا هذه الانماط في الكون لدى تتبعنا بنيته ،انطلاقا من الابعاد الكبرى الى الابعاد الصغرى . فعلى مستوى الابعاد الكبرى تكون البنية

على هيئة مجرات ، انظمة شمسية ، نجوم ، وكواكب . وعلى مستوى كوكبنا تكون البنية على هيئة بحار ، قارات ، جزر ، جبال ، اشجار ، ازهار ، طيور ، وحشرات . وعلى مستوى الانماط اللامتناهية في الصغر تكون البنى على هيئة بلورات ، رقاقات ثلجية ، جزئيات ، جواهر وجسيمات .

وتعد هذه الانماط بنى عملية واحدة ، ومن الاهمية بمكان معرفتنا ان احداها لا تعمل بمعزل عن الاخرى ، كما انها لا تستطيع ان تنفصل عن الكلي دون ان تتعرض للتلاشي والابادة . ويزداد هذا الامر وضوحا عندما نمعن النظر في المتعضيات الحية ، نذكر منها على سبيل المثال: طائر بمعزل عن بيئته الطبيعية التي تشتمل على الحالة السائدة فيها او الجو المحيط بها . ولا يقل الامر اهمية في نطاق ما يسمى اصطلاحا بالمادة غير العضوية : تقر الفيزياء الحديثة ان البنى والانماط المادية مثل الجواهر ، النويات ، الجسيمات والبنى الشديدة التعقيد التي تتالف منها ، تحقق وجودها ١ ــ عن طريق ترابطات داخلية متبادلة او مشتركة بحيث تسبب حركة اي جزء حركة الاجزاء الباقية ٢ ــ عن طريق ارتباطها واتصالها بالكل .

وان اقصى ما يمكننا القيام به هو ان نفصل بعض الانماط عما تبقى من الانماط على نحو تصوري ونتعامل معها بوصفها وجودات أو كيانات مستقلة معزولة . وهذا هو الحد الاقصى الذي نجح به العلماء في الماضي القريب وجعلهم يعتمدون الطريقة التي اتبعوها . ولا نخطىء اذا قلنا بأننا نستطيع ان نفكر بالاشياء العديدة الموجودة في غرفة ونعتبرها امورا منفصلة ، كما يمكننا اعتبار انفسنا افرادا منعزلين . لكننا ، لو انعمنا النظر مليا لوجدنا ، كما تقول الفيزياء الحديثة ، باننا نقترف خطأ جسيما في اللحظة التي نخضع لمثل هذا الاسلوب من التفكير . وفي مثل

هذه الحال ، يجدر بنا ان نطرح السؤال التالي : ما ضخامة او فداحة الخطأ في مثل هذا الاسلوب ؟

ان دراستنا لفيزياء الظاهرات في محيطنا اليومي المادي تشير الى تفاهة الخطأ . ولكن خطورة هذا الخطأ تكمن في ان نعد انفسنا مدققين في تعاملنا مع العالم بوصفه عالما يتألف من موضوعات منفصلة وهو على هذا المستوى . وتستمر الخطورة القائمة على المستوى الميداني المذكر وسكوبي اذ تقل فرصة نجاحنا ونحن نتعامل مع الناس ، على سبيل المثال ، في نطاق العلاج النفسي . وتزداد الخطورة على مستوى الفيزياء عندما نتعامل مع الابعاد المتناهية في الصغر ، وهي عالم الجواهر والجسيمات الذرية الصغيرة كالبروتونات والالكترونات ، فنضطر الى التخلي عن اسلوب التفكير الميكانيكي والطريقة التقليدية .

تعترف الفيزياء الحديثة ، وهي تمالج الموضوع بنفاذ بصيرة ، بأن الاحتمال صفة بارزة وأساسية من صفات الواقع الجوهري والجسيمي الذي يهيمن على العمليات كلها دون استثناء وجود المادة . ويشير هذا القول الى ان وجود الجزئيات والجسيمات الذرية الصغيرة لا يتعين ، بل لا يؤكد وجودها ، في أماكن محدودة ، انما يكشف عن « نزوع او ميل الى (*) التعين والتوكيد » . لذا ، نعجز عن التنبؤ بحادثة فردية على نحو يقيني ، ولا يسعنا الا التنبؤ بالارجحيات .

ومن الاهمية بمكان ان نفهم بوضوح ان إفراغنا من هذا النوع لقوانين الفيزياء الجوهرية والجسيمية الذرية الصغرى في صيغة إحصائية ، لا يعكس او يظهر جهلنا بوضعنا او حالنا في نطاق الفيزياء ، فلا يكون شبيها بجهل المقامرين وشركات التامين وهم يسخرون الاحتمالات خدمة لصالحهم . والحقيقة هي اننا إذ نقر بالاحتمال في الفيزياء الجوهرية ، انما نعترف بأنه معلم اساسي من معالم الواقع الذي يسود الظاهرات كلها .

ويتضمن هذا الدور الاساسي الذي يضطلع به الاحتمال فكرة جديدة تتأصل جذورها في السببية . فليس للاحداث الجوهرية علة محددة غاية التحديد . وعلى سبيل المثال ، قد يتفكك جسيم جوهري صغير على نحو تلقائي دون تدخل اية حادثة خاصة تسبب هذا الانحلال او التفكك . وبالفعل ، يمكننا فقط ان نتنبأ بالاحتمال المرتبط بوقوع الحادثة وحصول النتيجة . ولا يعني هذا ان الاحداث الجوهرية تقع بطريقة اعتباطية على نحو كامل : انها تخضع لقوانين احصائية ، اي ان القوانين الاحصائية تتحكم بها .

وعلى هذا المنوال ،استعاض العلماء عن الفكرة الكلاسيكية الضيقة للسببية بتصور اكثر اتساعا لسببية احصائية تتحدد فيها الاحتمالات الموضوعة من اجل احداث جوهرية بدينامكية المنظومة كلها .

اذن ، فالحكمة التي نستقيها من الفيزياء الحديثة هي ان تجزئة العالم الى موضوعات منفصلة مسألة تقتضي تقويم العالم تقويما مثاليا . ولا يعني هذا لا جدوى هذا التقويم المثالي ، انما يعني اننا لن نفهم اي نمط او بنية فهما كاملا ، اذا جعلنا منه وجودا معزولا او ظاهرة مستقلة . فما علينا ، والحال هذه ، الا ان ندرس الكون بوصفه كلا . ومتى تم ادراكنا له ككل ، استطعنا التركيز على اقسامه ومعالجتها كما لو كانت موضوعات منفصلة على نحو تقريبي . واما البدء بدراسة الاجزاء واعتبارها الكتل الاساسية التي تبني الوجود ، فانه اسلوب لا يساعدنا على فهم الكل .

ومن المعالم الهامة الاخرى التي تكشف عن النظرة العالمية الكلية التي تتبناها الفيزياء الحديثة يتبوأ الاعتراف بان الانماط التي ندرسها ديناميكية في ذاتها وجوهرها ، المركز الاول . فعلى المستوى الجسيمي الفري ، نعجز عن الفصل بين الزمان والمكان لاننا ندركها مرتبطين ارتباطا

جوهريا لا يقبل الفصل ، ويشكلان متصلا كميا ذا ابعاد اربعة يعرف « بالزمان ــ المكان » . وعندما نتصور جسيمات في هذا المتصل الكمي الزماني ــ المكاني يتوجب علينا ان ندركها ، ان استطعنا الى ذلك سبيلا ، وجودات ذات ابعاد اربعة ، كما ونفهم صورها على نحو دينامكي بوصفها صورا في الزمان والمكان . هكذا تكون الجسيمات الجوهرية الصغرى انماطا دينامكية ، انماط طاقة ، وانماط فاعلية .

نستخلص مما تقدم ان انماط الطاقة التي تمود للعالم الجسيمي الجوهري تشكل البنى الذرية والجزئية المتوازنة التي نجدها في حالة من التوازن الدينامكي وليس في حالة ستاتيكية : هنالك الالكترونات التي تدور وتنعطف فجاة ، وتنطلق بسرعة حول النويات ضمن الجواهر ، وهنالك الجواهر التي تهتز ضمن البنى الجزئية في توافق مع طاقتها الحرارية وفي انسجام مع الاهتزازات الحرارية العائدة لمحيطها . وتؤلف الجزئيات ، بدورها ، المادة وتكسبها مظهرها الصلب العياني : الامر الذي يجعلنا نعتقد بأنها مصنوعة من جوهر مادي اي من مادة صلبة اساسية . ولا شك ان الفكرة التي نشكلها عن الجوهر المادي ، ونحن نعالج المستوى العياني ، تساعدنا على تبني تقدير تقريبي ؛ ولا تصح هذه الفكرة عندما نعمل على تفهم المستوى الجوهري . فالجواهر تشتمل على جزئيات ، ولكن الجوهر المادي لا يصنع هذه الجزئيات . ويؤكد الدليل قولنا هذا عندما ندرك بأننا لا نشاهد مادة اساسية من اي نوع ؛ وان ما نشاهده هومجردانماط دينامكية يتبدل النمط الواحد منها الى نمط آخر على نحو مستمر ــ انه رقص متتابع للطاقة .

الفيزياء الحديثة وعلم النفس الحديث

بلغت الفيزياء الحديثة غايتها عندما تبنت فكرة مختلفة عن العالم ، تنأى بها عن التصور الذي اتى به الذريون الاغريق والفيزياء النيوتونية ، وتمثل في كون ميكانيكي يبنى من كتل . وسوف يتوجب على علماء النفس-

لكي يتساوقوا مع الفيزياء الحديثة ، ان يوسعوا هيكل علم النفس الكلاسيكي . وسوف يحذو الاطباء حذوهم في حقلهم وهم يعالجون الكائن الانساني ككل ، فيدركونه منظومة ديناميكية تشتمل على انماط نفسية وجسدية مستقلة ؛ منظومة هي عضو متكامل في منظومات اوسع واضخم تعرف بأبعادها المادية والاجتماعية والحضارية والثقافية .

ولعلنا لا نبالغ في قولنا ان يونغ كان الرائد الاول الذي ادرك هذه الحقيقة ، فادخل علم النفس الى هذه النطاقات الجديدة ، وتبنى مفاهيم وتصورات تقترب اكثر فاكثر من الفيزياء الحديثة . وهذا امر قصر فرويد في ادراك مضمونه . واذا ما عالجنا اوجه المفارقة والخلاف بين يونغ وفرويد لرأينا توازي اوجه الخلاف القائمة بين الفيزياء الحديثة والكلاسيكية . لقد اقام يونغ علاقة صميمية مع الكثير من علماء الفيزياء البارزين في عصره ، الامر الذي جعله يعي هذه الحقيقة . وهانحن نعرض فكرة كتبها يونغ .

« ان التقارب بين الفيزياء النووية وعلم نفس اللا شعور وشيك الحدوث . ومرد هذا الى ان كلا منهما ، وهو مستقل عن الاخر وينطلق من اتجاه معاكس ،يعمل جاهدا من اجل الولوج الى النطاق المتعالي . . . واني على يقين من ان النفس لا تتميز عن المادة بشكل كلي ؛ فلو كان التمايز الكلي قائما بينهما لما استطاعت النفس ان تحرك المادة . ولا يمكن ان تكون المادة مغايرة للنفس وغريبة عنها ؛ فلو كانت المغايرة قائمة لما استطاعت المادة ان تحدث النفس . ونستخلص من قولنا هذا ان النفس والمادة موجودتان في عالم واحد كلي تشارك الواحدة منهما في حياة الاخرى ؛ ولو فقدت هذه المشاركة لاستحالت العلاقة المتبادلة بينهما ولتوقفت الفاعلية المشتركة . وان تقدم البحث بدرجة كافية كفيل بأن يحقق انسجاما او اتفاقا مطلقا او جوهريا بين المفاهيم المادية والنفسية .

وفي هذا الصدد يمكنني القول ان محاولاتنا تتصف بالجرأة ، وتتجه الى هذه الغاية المنشودة والمرجوة » .

نستدل من هذه الفقرة ان ما بذله يونغ من جهد كان في صميم هذه الحقيقة او الغاية . وان عقيدته في اللا وعي الجمعي او المتجمع تمدنا بالحلقة التي تصل الفرد بالانسانية جمعاء ، كما تصل الفرد بالكون كله . وليس باليسير ان نقيم هذه الصلة ضمن هيكل ميكانيكي . لقد وعى يونغ هذه الحقيقة وابان انه يتحتم علينا ان نتجاوز الطريقة التي يعتمدها العقل لمعالجة قضاياه لنبلغ تلك النطاقات الجديدة . والحق يقال ان اللا وعي الجمعي وانماطه امثلة او نماذج اصيلة تستثني عن التحديد الدقيق .

يتجاوز يونغ الحد الذي بلغه فرويد في تعريفه للنفس فالنفس ، في عقيدته ، منظومة ديناميكية ، تتسم بدقة التبدل بين قطبين متقابلين متعارضين . والجدير بالذكر هو ان هذه الفكرة تتفق مع التوازن الديناميكي الذي بسطته الفيزياء الحديثة ، ويتصل اتصالا وثيقا بالافكار الصينية التي تدور حول منظومة العقل ـ الجسد .

التطورات الحديثة

يتابع علماء النفس الانسانيون ، وعلماء النفس المتجاوزون للبعد الواحد للشخصية ، ومدارس اخرى ، دراساتهم ، ويتجاوزون في انجازاتهم المعالم الميكانيكية العديدة لمدرسة السلوك والنموذج الفرويدي، الامر الذي جعلهم يتبنون الطرائق الديناميكية والكلية من اجل فهم اوسع واكثر تطورا للنفس الانسانية . وتلزم هذه الطرائق على نحو متزايد علماء النفس والاطباء النفسانيين ان يخلفوا وراءهم العديد من

التصورات الغربية الشائعة . وفي الوقت ذاته ، تشتمل الطرائق الجديدة على تصورات ومواقف ماثلة في الفيزياء الحديثة .

وكما يؤكد يونغ ، ليس ثمة من سبيل آخر لدراسة النفس في نطاقها ومداها الكاملين الا في بلوغ يصل اقصاه في تجاوز لطريقة المعالجة العقلية ؛ ويحصل مثل هذا التجاوز او التعالي في تفاعل وثيق بين الاختصاصي في المعالجة وبين مريضه انطلاقا من اللا شعور . ويعزى هذا الى سبب هو ان التفكير العقلي يتصل اتصالا وثيقا بالفكرة التي ترينا الزمن وهو يسيل ويتدفق على هيئة خيط ضيق طويل ، وان اللاشعور يعمل وفق اسلوب او طريقة مغايرة لهذا الخيط . واذا كان الامر كذلك ، فان نظاما تصوريا قادرا على التوفيق بين الاختصاصي المعالج وبين المريض في نطاق التفاعل اللاشعوري يتطلب بالضرورة توسعا وتطورا لفكرة الزمن التقليدية او المألوفة .

ولا يخفى علينا ان الفيزياء اخذت على عاتقها قضية التطوير هذه بشكل عام ، وشرعت فيها النظرية النسبية بشكل خاص . ومن المحتمل ان يتابع هذا التطوير مهمته خلال السنوات القادمة . وقد تتيح تجربة الفيزياء في هذا المضمار فرصة الكشف عن تصور الزمن ضمن نطاق العلاج . وقد ينقاد الصراع بين الزمن ، بشكله الخطي واللاخطي ، وهو يجسد الصراع بين المعالم الشعورية واللاشعورية للنفس ، بسهولة لطريقة المعالجة من نظرنا الى الزمن الخطي بانه مجرد فكرة تقربنا من غرض ، تماما كما هي الحال في الفيزياء .

نستنتج مما تقدم ان الفكرة الخطية للزمن تتصل اتصالا وثيقا بالمفهوم الكلاسيكي الحتمية ، للعلة والمعلول ، وان الافكار المصقولة الدقيقة عن الزمن في الاطار النفسي والفيزيائي ، تؤدي الى بعث أفكار مصقولة عن السببية . ولقد ابان يونغ صحة ما نقوله في محاولته الرامية

الى اقامة تصور للتزامن ــ هو الترتيب التزامني للاحداث او الحدول التاريخي التزامني . ومن المحتمل ان تطور علوم النفس الكلية الشاملة في المستقبل هذا التصور وتصقله وتنقيه من كل الشوائب . بحيث تتجاوز وتتسامى على الفكرة التي تميد العلاقة بين العلة والمعلول الى عنصر او عامل واحــد لا غير .

والحق يقال ان هنالك توازيا آخر بين الفيزياء الحديثة وعلم النفس الحديث ، يظهر في العلاقة القائمة بين المراقب والمراقب . ففي الفيزياء الجوهرية ، يتوجب علينا ان نتخلى عن الفكرة المتجسدة بمراقب موضوعي حينما نتأكد ان نسيج العلاقات الذي هو قيد الدراسة يشتمل على المراقب الانساني وشعوره ووعيه بطريقة اساسية . وهكذا لا يجد التقسيم الديكارتي بين العقل والمادة ، بين الانا والعالم ، موضعا له في سياق الشرعية التي اوجدتها الفيزياء الحديثة . اذ لا نستطيع التحدث في الفيزياء الجوهرية عن الطبيعة دون التحدث عن انفسنا في آن واحد .

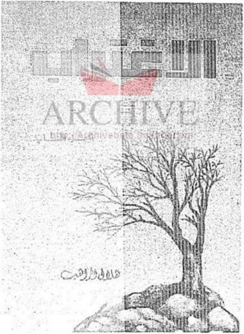
وبالطريقة ذاتها ، توضح الطرائق الجديدة لفهم مضامين علم النفس ، والطب النفسي التفاعل المتبادل بين الاختصاصي المعالج والمريض . اذن ، فالمعالجة ، وفق هذه النظرة ، تنتج من اللقاء الشخصي بين الاختصاصي والمريض ، هذا اللقاء الذي يشتمل على الكيان الكلي لكل منهما ويصب في عملية تحول متبادل ودي .

واحب ان انوه الى ان التوازن الاخير بين الفيزياء وعلى النفس يجثم في علاقة وجهتي نظرهما بوجهات نظر الحكمة السرية الشرقية او الصوفية . وكما أن الفيزيائيين يدركون ان الكثير من مفاهيمهم وتصوراتهم تتوافق مع وجهات نظر السرية الشرقية ، كذلك يتجه علماء النفس والاطباء النفسانيون بأنظارهم الى الشرق باحثين فيه عن بصائر وطرائق جديدة . فلقد وضع الشرق رسوما تفصيلية للوعي منذ آلاف السنين ، وكان

البعض من مدارس الحكمة الشرقية طرائق للعلاج النفسي . وكما يبدو ان المعلمين الروحيين القدامى ادركوا العلاقة القائمة بين الذهان والاستنارة .

لقد اغفل الاكاديميون الغربيون السرية الشرقية لاعتقادهم ان وجهات نظر حكماء السرية تناقض التصورات الاساسية للعلم الغربي . والآن نشهد بداية تبدل واسع في فروع العلم كلها وفي ثقافتنا كلها ؛ انه انتقال من نطاق التفكير الميكانيكي والتقليصي الى تفكير ايكولوجي وكلي . وان ما فعلته الفيزياء ، وهي المثل الساطع لعلم صعب نصب نموذجا لكل العلوم ، يتراءى لنا في تجاوزها لنماذج ميكانيكية اعتمدتها في الماضي ؛ وفي انها تقودنا الى نظرة شاملة شبيهة بوجهات نظر حكماء السرية الذين ينتمون الى العصور والتقاليد كلها ، والثقافات والحضارات غير المدونة ؛ حكماء هم افراد عرفوا بتجاربهم التلقائية المتجاوزة للشخصية .

هكذا تطبع النظرة الشاملة التي تتصف بها الفيزياء الحديثة العلوم الاخرى بطابعها المميز القوي ، وتكون علاجية في صميمها ، وموحدة على نحو ثقافي وحضاري .


الاغتراب
هلال الراهب

ملف المعرفة

القصة القصيرة في امريكا اللاتينية

اعداد وترجمة:
عاصم الباشا

مقابلات

حوار مع الكاتب

ميغيل انخيل استورياس

القصص

«زائر»

ماريو فارغاس ليوسا - البيرو

فندق صغير في شارع بلوميه

ماريو بينيلايتي - الأوروغواي

قل لهم ألا يقتلوني

خوان رولفو - المكسيك

ليست الأمور على ما يرام يا كارميلو روسا

ريبيرو - البيرو

المخابرة

سكارميتا - تشيلي

انشودة شجرة الحور كارولينا

كونتي - الأرجنتين

فرانسيسكا والمنية

كاردوسو - كوبا

الاضراب الاخير

برنارد وكوردون - الارجنتين

الفتاة ذات الندبة

ادواردو غاليانو - الاوروغواي

بمثابة التقديم

« بمثابة التقديم »

لا يطمع هذا الملف الى الاحاطة بواقع الادب القصصي في بلدان امريكا اللاتينية ، فما محاولتنا المتواضعة هذه سوى انتقاء لعينات حاولنا جهدنا ان تكون ممثلة لمشاغل كتاب تلك البقاع ، وانعكاسا لواقعها .

وقد وجدنا من المناسب في هذه العجالة ، تقديم القصص المنتقاة بمقتطفات من استفتاء أجري بين كتاب القصة في البيرو وبلقاء تم مع ميغيل انخيل استورياس قبيل وفاته بقليل ، مدركين ان هذا لا يفي بالغرض على الوجه الامثل .

ـ عاصم الباشا ـ

« ولدنا في بلد من اكثر بلدان العالم تخلفا ، وحياتنا بمثابة المعجزة : فقد جاوزنا العشرين من عمرنا ، قرابة الخمسين بالمائة من اهالي البيرو يقضون لاسباب متعلقة بالجوع قبل بلوغ العشرين ، . ونحن نمثل استثناء نسقا : فقد اتممنا دراسات جامعية ، وهذا امتياز في بلد يعاني الستون بالمائة من سكانه من الامية » .

ـ من بيان جماعة ادبية نشر في « مجلة البيرو الادبية » العدد ١ تشرين الثاني ١٩٦٦ .

في « مختارات من قصص البيرو « ١٩٥٠ــ١٩٧٠ » الصادرة عام ١٩٧٣ عن دار الباتثا ، مدريد ، يقدم جامع المختارات ، الناقد ابيلار دو اوكيندو لقصصه المختارة باستفتاء اجراه بين مؤلفي الاربعة عشرة قصة التي ضمها الكتاب ، وقد طرح عليهم الاسئلة التالية :

١ ـ ما هو رأيك في الادب القصصي الحالي في البيرو ؟

٢ ـ هل ثمة « حياة ادبية » في البيرو ؟ وهل تشارك فيها ؟

٣ ـ لماذا تكتب ؟ ما المحرضات التي تدفعك الى ذلك ؟

٤ ـ هل تعمل ـ او عملت ـ في مهن لا علاقة لها مع الادب ؟ وما هي ؟

٥ ـ هل تخصص وقتا منتظما للكتابة ؟

٦ ـ ما اعلى وادنى « تيراج » لاعمالك ؟ هل ترجمت؟ هل اعيد نشرها؟ هل نشرت خارج البيرو ؟ وهل نشرت شيئا على حسابك الخاص؟

٧ ـ من هم كتاب القصة المفضلون لديك ؟

١ ـ من البيرو .   ٢ ـ من الاجانب .

خوليو رامون ريبيرو (مواليد ليما ١٩٢٩) :

١ ـ ان رحيل كتاب بمكانة سيرو اليغريا ، خ . م ارغيداس ، س ، سالاثاربوندي خلال السنوات القليلة المنصرمة لهو خسارة كبرى بالنسبة لادب القصة في البيرو . ومن الصعب شغل تلك المراكز الشاغرة بين ليلة وضحاها .

والواقع ، ان القاص الوحيد المتمتع بأهمية عالمية والذي يتحمل مسؤولية تمثيلنا في المحافل الادبية هو فارغاس ليوسا ، وبسبب غيابي المديد عن البيرو اجهل ما اذا كانت قد ظهرت طاقات شابة قادرة على متابعة رحلة سابقيهم . لكنني آمل ان يكون الامر كذلك . ولا تستند آمالي هذه على ايماني بالمعادلات القديمة كـ « البيرو ، بلد القصاصين » أو بوجود « اتجاهات للعبقرية الوطنية » وانما على حساب للاحتمالات بسيط ، وانطلاقا من الظرف الاجتماعي والثقافي الذي تعيشه البيرو وامريكا اللاتينية عموما .

٢ ـ من الصعب ان يكون للبلدان النامية حياة ادبية . فتلك الحياة تتطلب شبكة من دور النشر ، المجلات ، المسابقات ، الجوائز ، اجهزة للنقد ، للتوزيع وللدعاية ، اضافة الى المعاهد المتخصصة ، وكل هذا موجود الآن في البيرو في حالة النطفة . انني موقن بافتقادنا لحياة ادبية ، الا في حال اطلاق هذه التسمية على حفلات العشاء الصغيرة التي عرفتها حوالي عام ١٩٥٠ والتي كانت تنظمها مجموعات محدودة من المتعصبين للادب ، والذين كانوا يتحدثون كثيرا ، يبدعون قليلا ، وينشرون اقل بكثير .

٣ ـ لا يكتب المرء لسبب واحد ، وانما لاسباب عديدة ، تتفاوت اهميتها تبعا للمراحل ولحالات البيئة التي يحياها الكاتب . انني اكتب

(والترتيب لا يخول الافضلية) لانه العمل الوحيد الذي يروق لي ولانه اكثر الاعمال ذاتية من كل ما أستطيع القيام به (ذلك الذي لا يناب عني فيه) ، ولان الكتابة تحررني من سلسلة توترات ، انهيارات ؛ لانني اعتدت ذلك ؛ من اجل الكشف ، ولمعرفة ما يكشفه الادب مما يعجز الفكر عن كشفه ؛ من اجل التوصل الى عبارة جميلة . لاجمل الآني دائما ؛ من اجل الدهشة التي تعتريني في اللحظة التي اشهد فيها ميلاد عالم مترابط بالرموز الاصطلاحية اخطه على الورق ، من اجل الادانة ، الرحمة ، الحنين ، ومن اجل اشياء اخرى كثيرة .

٤ ــ اشتغلت معلما ، بائع منتجات المطابع ، مساعد محامي ، بوابا في فندق ، جامعا للصحف القديمة ، حمالا في محطة القطار ، مترجما في وكالة أنباء ، ملحقا ثقافيا في سفارة .

٥ ــ اكتب بشكل مواسمي ، وقد اتوقف عن ذلك لمدى أشهر طويلة ، لكنني امارسها احيانا بشكل متواصل . وباصرار .

افضل الصباح او آخر الليل ، لكنني لا انجاوز الثلاث او الاربع ساعات يوميا . فما ان اتجاوز هذا الحد حتى أصبح عاجزا عن تسجيل كلمتين .

٦ ــ لا بد من توجيه السؤال الى الناشرين ، لكنهم متحفظون فيما يتعلق بهذا الموضوع .

اعتقد ان أعلى « تيراج » لاعمالي كان عشرة الاف نسخة ، وذلك عندما فازت روايتي « عبقريات ايام الآحاد الصغيرة » بجائزة بوبوليبروس ؛ ولعل مجموعتي القصصية « طيور باشق عديمة الريش » اقلها عددا : الفان . أعيد نشر رواياتي « حكاية من سان غابرييل » في تشيلي ؛ و « عبقريات ايام الآحاد الصغيرة » في المكسيك .

ترجمت « حكايـة من سـان غابريل » الى الفرنسية ، الالمانيـة والهولندية ، لكن القصص كانت اوفر حظا فقد نشرت ــ مجموعـة او افراديا ــ بالايطالية ، الانكليزية والرومانية .

لم انشر على حسـابي الخاص ابدا .

٧ ــ افضل من البيرو : خوسيه ماريا ارغيداس وفارغاس ليوسا . لا اعرف من الشـباب سوى الفريدو بريس اتشينيكة ، وهو في نظري قاص من نوعية خارقة ، وصوت اصيل فعلا في ادبنا فروايته « عالم من اجل خوليوس » تضعه في مقدمة الواجهة الروائية الاسـبانو امريكية .

افضـل عدم ذكر الاجانب ، فالقائمة لن تنتهي .

من اعماله :

« طيور باشق عديمة الريش » ــ قصص ــ ليما ١٩٥٥ .
« قصص طرقية » ــ قصص ــ ليما ١٩٥٨ .
« حكاية من سان غابريل » ــ رواية ــ ليما ١٩٦٠ .
« الزجاجات والرجال » ــ قصص ــ ليما ١٩٦٤ .
« ثلاث حكايات متهيجة » ــ قصص ــ ليما ١٩٦٤ .
« عبقريات ايام الاحاد الصغيرة » ــ رواية ــ ليما ١٩٦٥ .

ماريو فارغاس ليوسا ــ (مواليد اريكيبا عام ١٩٣٦) :

١ ــ اعتقد انها تعيش فترة حسـنة ، على الاقل من ناحية الكم ، فقد نشرت في السـنوات الاربع الاخيرة من الروايات والقصص ما تجاوز عددها بكثير الصادر منها خلال العشرين عاما السـابقة . وقد صـدر العديد من هذه الكتب لدى دور للنشر واسـعة التوزيع . اما من ناحية النوعيـة فيصـعب حاليـا اصدار حكم حول ما تمثله ، جملـة ، تلك الروايات والقصص . لعلها لحظة ارتقاء الكتابة القصصية ، ولكن ، وبما ان تقليدنا

القصصي فقير للغاية فهذه الغزارة لا تتمتع بأهمية كبيرة ، على كل حال ، يطيب لي القول انني لا اؤمن بما يدعى « الادب الوطني » هذا فيما يتعلق بامريكا اللاتينية على الاقل ، واعتقـد ان بالامكان القول بثقة ان الادب القصصي يعيش مرحلة ارتقاء ضمن المنظور القاري .

٢ ــ اعيش منذ اثنتي عشر عاما بعيدا عن البيرو ــ بغض النظر عن الزيارات الخاطفة ــ لذا اجيب على هذا السـؤال معتمدا ما سمعته ، اذا كان المقصـــود بتعبير « الحياة الادبيــة » نشاط ديناميكي لدور النشر للمجلات ، للمجموعات التي تتحاور وتتفق ، للمؤلفين الذين تترك اعمالهم اصداء في المجتمع ، فواضح ان الموجود من كل هذا في البيرو وهو نذر يسير ويكاد يكون محاكاة ساخرة بعض الشيء ، ثمة من يكتب ويقرا بالطبع، ومن يجتمع لاسباب عدة ضمن حلقات من الاصدقاء . اعتقد ان الحياة الادبية في البيرو محصورة في هذا .

٣ ــ تكمن اصول كل هواية ادبية في حالة عدم الرضى العميق حيال الواقع الذي يدفع المرء ، بجنون ، الى محاولة استبدال العالم الواقعي بآخر مخلوق بالكلمات ، والعالم المخلوق هو في الوقت ذاته انعكاس ونفي للواقعي .

ليس هذا التمرد عميقا فحسب بل وهو اعمى : فالمتمرد يجهل جذور التذمر الذي يجيش في نفســه ويكتب باحثا عنها . ولو عرف بدقة ما يقف عائقا دونه والحياة ، فمن المحتمل ان يتخذ تمرده اشكالا اقل خيالا من عملية خلق سراب لغوي (على سبيل المثال : الثورة ، الدير ، الانتحار) اعني انه لو علم الكاتب السبب الذي يدفعه الى الكتابة لكف عن كونه كاتبا (هناك امثلة عديدة) . اما فيما يتعلق بالدوافع فأعتقد ان واحدنا يكتب دائما منطلقا من بعض التجارب الشخصية التي تركت في نفسه آثارا

اعمق من غيرها ، وتصير تلك الآثار حضورا مهووسا يحاول التحرر منه من خلال الكتابة .

٤ ــ عملت صحافيا ، مترجما مؤقتا في المؤتمرات الدولية ، ومدرسا جامعيـا .

٥ ــ اكتب يوميا وبشكل منتظم منذ عام ١٩٥٨ تقريبا ، (عدا اجازات قصيرة بين كتاب وآخر) . لا اقل من خمس ساعات ، وقد تمتد الى ست او ثماني ، اعني انني اقضي هذا الوقت متوحدا في مكتبي محاولا الكتابة : وواضح ان هذا العمل قد يكون في كثير من الايام مجرد اجراء تصحيح ، مراجعة ، تفكير ، او اطلاق المسبات .

٦ ــ اعلى رقم حتى الآن هي الطبعة الروسية لروايتي « المدينـة والكلاب » ، فقد بلغت ٣٥٠ الف نسخة لكن دار نشر سالفات تعكف حاليا على اصدار نصف مليون نسخة من « الجراء » بسلسلة كتب الجيب ، اما ادنى الارقام فيعود لكتابي الاول « القادة » اظن انه بلغ الالف نسخة .

اعيد طبع كل كتبي لمرات عديدة واحيانا ، للاسف ، دون ان يستأذنوا المؤلف ، ترجمت رواياتي الثلاث الى لغات عديدة (المدينة والكلاب ١٥ لغة ، الدار الخضراء . ١(*) لغات ، محادثة في الكاتدرائية ٧ لغات) وكذلك القصص ــ منفردة في مجلات ومختارات الى الفرنسية ، الايطاليـة ، الانكليزية ، والروسية .

لم انشر على حسابي الخاص قط .

(*) هذه الرواية هي قيد الترجمة ــ الآن في العربية .

٧ ـ من البيرو : غارسيلا سودي لافيغا ، كليمينته بالما ، ارغيداس « الانهار العميقة » و « باوار مهرجان » خوليو رامون ريبيرو ، وبريس اتشينيكة من الشباب .

من الاجانب : قائمة طويلة اذكر منها فلوبير ، تولستوي ، فوكنر ، جويس ، جوهانوت مارتوريل ، كونراد ، كورتاثار ، غارسيا ماركيث ، اونيتي ، ديكنز .

من اعماله :

« القادة » ـ قصص ـ ١٩٥٨ .
« المدينة والكلاب » ـ رواية ـ ١٩٦٣ .
« الدار الخضراء » ـ رواية ـ ١٩٦٦ .
« الجراء » ـ قصص ـ ١٩٦٧ .
« محادثة في الكاتدرائية » ـ رواية ـ ١٩٦٩ .

الفريدو بريس اتشينيكه (مواليد ليما ١٩٣٩) :

١ ـ بصراحة ، لا استطيع اولا يتوجب علي ـ الاجابة على السؤال الاول لانني اقرا كثيرا من الاعمال التي نشرت مؤخرا في ليما أو في بوينس آيرس ، وهذا كي لا اقع في اغفالات مؤسفة ومجحفة . أعتذر ، فانني ارى الامتناع عن الادلاء براي اكثر جدية .

ويحدث لي شيء مشابه بهذا فيما يتعلق بالسؤال الثاني ، لكنني اتبين من خلال المقالات والتحقيقات المنشورة في ليما والتي تصلني بانتظام ان ثمة حياة ادبية في البيرو ، وان هذه الحياة تزداد اهمية واغتناء . لم اشارك بها مطلقا ، فالكتاب القليلون الذين تعرفت بهم التقيتهم في اوروبا ، وانا الخاسر في كل هذا بلا شك .

يمكنني الاجابة على السؤال الثالث : انني اكتب لشعوري بانه عمل استطيع القيام به بشكل حسن في هذه الحياة ، لقد جذبتني دائما القدرة على رواية قصة ، وما كان في وسعي قضاء حياتي جالسا في مقهى متحدثا الى الاصدقاء . يهمني التعبير عن بعض المخاوف ، بعض الغم ، وبعض الآمال التي تكتنف انسان يومنا هـذا . لو كنت هنا لاوضحت هـذه التصريحات ، فمن اجل ذلك لا بد من ايضاح الاسئلة . والحقيقة ان هذه المفاهيم قابلة للالغاء وللتبدل . ان صفحة واحدة ، مقطع واحد مكتوب بشكل جيد هو اكبر تشجيع بالنسبة لعملي الادبي .

اجيب على السؤال الرابع : شرعت في الكتابة في اوروبا ، وقد اضطررت الى البحث عن اعمال تتيح لي فرصة للكتابة . لقد مررت بلحظات صعبة كاي كاتب آخر . وانا اعمل الآن كمحاضر للاسبانية في جامعة نانتير (يعمل في جامعة مونبلييه حاليا) م . /

يخيل الي انني انتقلت الى السؤال الخامس : على الرغم من كل شيء فانني اتوصل عادة الى قدر من النظام في حياتي . انني اضع للعمل مواعيد محددة ، وعندما تسير رواية او مجموعة قصصية على ما يرام تتراجع كل نشاطاتي الاخرى وانكب على الكتابة يوميا . لكن هذا الامر لا يحدث صيفا ابدا ، فانا اهجر المدينة في الصيف واسافر كثيرا . لكنني ، مسافرا ، لا انقطع عن التفكير بما اكتبه او بما أزمع على كتابته . واعيش عادة مراحل تفكر مقررة للعمل الذي ساعكف عليه فور عودتي .

تروق لي الراحة ، وكثير منها ما بين كتاب وآخر .

استطيع الاجابة على السؤال السادس : نشرت مجموعتي « حقل مغلق » في كوبا ، وبلغت اربعة آلاف نسخة لكنني اجهل ما حدث لها فالذين قراوا العمل حصلوا عليه من « كاسادي لاس اميريكاس » او لانني اهديتهم

بعض النسخ . ترجمت بعض قصصي الى الالمانية والانكليزية ، اما فيما يتعلق بروايتي الاولى « عالم من اجل خوليوس » فانني استلمت النسخة الاولى لتوي واجهل كم سيبلغ عددها .

لم انشر على حسابي الخاص قط .

جواب السؤال الاخير : من البيرو : ارغيداس ، ريبيرو ، فارغاس ليوسا .

من الاجانب : يصعب تحديد اثنين او ثلاثة ك « مفضلين » انني انفعل بالكتاب الذي انا بصدد قراءته وقد اعجبت بهيمنغواي ، ومونتيرلان (كم هما متشابهان !..) لنقل انني استغرقت في السنتين الاخيرتين بموسيل وسيلين .

من اعماله :

« حقل مغلق » — قصص — لاهافانا ١٩٦٨ .
« عالم من اجل خوليوس » — رواية — برشلونة ١٩٧٠ .
« حياة مارتين روماتيا البالغ فيها » — رواية — برشلونة ١٩٨٢ .

فيما يلي ثبت بالكتاب المفضلين . وقد الحقنا الاسم برقم يشير الى عدد الاصوات التي حصل عليها كل منهم . ونذكر ان عدد المشاركين كان اربعة عشر كاتبا .

كتاب البيرو : ارغيداس (١١) ماريو فارغاس ليوسا (٧) خوليو رامون ريبيرو) ٦ (سيرو اليغريا (٣) الفريدو بريس اتشينيكه (٣) وصوت واحد لكل من غارسيلا سودي لافيغا ، ريكاردو بالما ، ابراهام فالديلومار) كليمينته بالما ، مارتين آدم ، فارغاس ، لويس لوايثا ، ميغيل غوتييريث .

كتاب امريكا اللاتينية : غ.غ ماركيث (٦) خوان كارلوس اونيتي (٤) خورخي لويس بورخيس (٣) خوليو كورتاثار (٣) خوان رولفو (٣) اليخو كاربنتيير (٣) جواو غيمرايش روسا (٢) وصوت واحد لكل من ميغيل انخيل استورياس ، كارلوس فوينتيس ، خوسيه ليثا ماليما ، اوغوستوروا باستوس ، ارنستو ساباتو ، نيستور سانتشيث .

كتاب اسبانيا : ميغيل دي سيرفانتيس (١) جوهانوت مارتوريل (١).

كتاب اللغات الاخرى : فوكنر (٥) جويس (٤) كافكا (٣) كونراد (٢) دوستويفسكي (٢) هيمنغواي (٢) فلوبير (٢) ستاندال (٢) تولستوي (٢) وصوت واحد لكل من بلزاك ، بيكيت ، براد بوري ، سيلين ، تشيخوف ، ديكنز ، دوس باسوس ، دوريل ، هنري جيمس ، مالرو ، مان ، موباسان ، ميلفيل ، هنري ميلر ، مونترلان ، موسيل ، بو ، بروست .

حوار مع الكاتب الغواتيمالي « ميغيل انخيل استورياس »

بطاقة :

ولد ميغيل انخيل استورياس في التاسع عشر من اكتوبر ١٨٩٩ . كان والده محاميا يعمل بالتجارة . خلاسي من طرف والده الذي هاجر اسلافه من استورياس (اسبانيا) عام ١٧٧٠ ، وهندي من طرف امه . انهى دراسة الحقوق عام ١٩٢٣ مدافعا عن اطروحة موضوعها « مشكلة الهنود الاجتماعية » . اشتهر استورياس بدفاعه عن ابناء عرقه ، سكان البلاد الاصليين .

مع انتهاء الدراسة ، ومهددا من قبل الدكتاتورية ، فر الكاتب الى اوروبا . قضى الاشهر الاولى في لندن ثم انتقل الى باريس التي اقام فيها عشر سنوات خص نصفها الاول لدراسة علم السلالات في السوربون (على يد جورج رينو الشهير بدراساته حول تراث امريكا الوسطى ماقبل الكولومبية) .

اعادت هذه الدراسة الى ذهن استورياس الحكايات التي سمعها طفلا فعمد الى جمعها في كتابه « اساطير غواتيمالا » ١٩٣٠ .

وعملا بنصيحة الشاعر بول فاليري عاد الكاتب الى وطنه حاملا في حقيبته مسودة « السيد الرئيس » ، الرواية التي تدين الديكتاتوريات ممثلة بالطاغية كابريرا . لكن الظروف السياسية منعته من نشرها حتى عام ١٩٤٦ ـــ . وانكب استورياس في هذه الفترة على الشعر والصحافة ، فاسس « صحيفة الهواء » والجامعة الشعبية ١٩٤٢ . واختير في العام ذاته عضوا في المجلس الدستوري .

عين عام ١٩٤٦ ملحقا ثقافيا لبلاده في المكسيك ، ثم وزيرا مستشارا في الارجنتين ، موطن زوجته . وشغل المنصب نفسه في باريس مابين عامي ١٩٥٢ ـــ ١٩٥٣ ، ثم في السلفادور . لكن الارهاب لم يلبث ان نفاه ثانية ، هذه المرة الى الارجنتين ١٩٥٤ .

وكان قد نشر عام ١٩٤٩ روايته الثانية (اهم اعماله في نظر العديد من النقاد) « رجال من ذرة » وجاءت بعدها ثلاثية الموز « رياح قوية » ١٩٥٠ ، « البابا الاخضر » ١٩٥٤ ، و« عيون المدفونين » ١٩٦٠ ، وكلها ادانات لممارسات الامبريالية الامريكية في غواتيمالا وفي امريكا اللاتينية بشكل عام . اما مجموعته القصصية الشهيرة « ويك اند في غواتيمالا » (عطلة نهاية الاسبوع بالانكليزية في الاصل) فقد نشرت عام ١٩٥٨ ، ثم صدرت قصائد « رسائل هندية » ١٩٥٨ و« بوليفار » ١٩٦٠ .

من رواياته الاخيرة « المتبنى » ١٩٦١ ، « خلاسية بنت فلان » ١٩٦٣ ، « مرآة ليدا سال » ١٩٦٨ . ونذكر من مجموعاته الشعرية « سوناتات » ١٩٣٧ ، « صدغ ذهبي » ١٩٤٥ ، « تمارين شعرية على طريقة سوناتات هوراسيو » ١٩٥١ ، و « مختارات شعرية من امريكا ماقبل الكولومبية » ١٩٦١ .

استقر استورياس نهائيا في اوروبا عام ١٩٦٢ . حاز على جائزة لينين للسلام عام ١٩٦٦ وفي العام التالي على جائزة نوبل للاداب .

توفي في مدريد في حزيران ١٩٧٤ .

★ ★ ★

ماذا يعني « الادب الملتزم » بالنسبة اليك ؟

● كثر الكلام حول ادب الالتزام ، او الادب الملتزم . ماأكثر ماكتب عنه .. ولاريب ان النقاش سيدوم طويلا .

استخدم مصطلح « الملتزم » في مجلة « الروح » منذ سنوات ، ثم تبناه جان بول سارتر في دراسته لذلك الادب .

اعتاد الكثيرون استخدام مصطلح « الملتزم » بمعنى سياسي محدد ، اي ان اضفاء هذه التسمية على مؤلف ما يعني الصاق بطاقة عليه تشير الى انه شيوعي او صديق الشيوعيين او يساري او ميال لليسار . واسلوب التمييز هذا لايسمح برؤية جلية لما معناه ادب الالتزام ، او الملتزم . الادب الموجه (بفتح الجيم) هو ذلك الذي يضع نفسه في خدمة قضية سياسية ، دينية او ايديولوجية . والاديب الموجه يطيع قوانين محددة ، واجبات محددة ، اهداف محددة ، الخ .. بينما يفرض الادب الملتزم مسؤولية ، وقد كنا نستخدم في الماضي اصطلاح « المسؤول » في امريكا اللاتينية . كان لدينا كتاب مسؤولون ، وآخرون تجنبوا ذلك حتى حيال انفسهم ، سلوكيتهم ، شعبهم ، ومايئنوء تحته . انني افهم من « الادب الملتزم » ذلك الادب المسؤول الذي يستجيب لما ينشده ويحتاجه الشعب ، والذي يكون بمثابة صوت للشعب ويتحول في الوقت ذاته الى جسر يوصل الامال ، والعذاب والافراح الى الشعوب الاخرى تاركا اثره الكوني .

فيما يتعلق بامريكا اللاتينية ، لو اعتبر ادبا ملتزما ذلك الـذي استجاب دوما لاحداث بلداننا ، لاوضاع الطغيان ، للارهاب ، للعذاب ، لانعدام الشروط الاساسية للحياة ، للجوع ، لافتقاد الارض ، الخ .. لكان ادبنا ملتزما دوما ؛ ادبا مسؤولا . فمنذ ابداعاتنا الاولى وحتـى اليوم استجابت الاعمال الكبيرة والهامة لدينا لاحتياجات الشعب الملحة، الحيوية . وهكذا نجد غالبية نتاجنا ادبا ملتزما .

هناك استثناءات بالطبع ، كتاب ينغلقون في اقفاصهم الذهبية ، في ابراجهم العاجية ، ينعزلون ولايهتمون بشيء مما يجري حولهم . انهم كتاب القضايا السيكولوجية والمشكلات التي يعانيها من لا يتواصل مع الواقع .

ولعل من الاجدر تسمية ادبنا ، بدلا من الادب الملتزم « الادب المحتل » ؛ اقصد : المحتل بالحياة .

ـ لقد قلت بحُق : بورخيس انه « من الكتاب الكبار ؛ لكنه احد الكتاب **الاوروبيين** الكبار » .

● انني من السكان الاصليين في امريكا ، وعندما اقرأ بورخيس يخيل الي انني اقرأ كاتبا اوروبيا ذا ثقافة اوروبية واسعة ، ذا اهتمامات اوروبية كبيرة ، دائم التحليل لشخصه ، لأناه الخاصة ، اجد في نصوصه كثيرا من الاهتمامات الاوروبية ولا التقي فيها الجذور الامريكية ، مشاغلنا ـ واذا شئت ـ عيوبنا .

لا انكر انه كاتب كبير ، لكنه لا يمثل ادب امريكا اللاتينية .

ـ هل كان للمنفى الطوعي والمرغم وللتعدد اهتماماتك آثار في اسلوب عملك ؟

● يقال ان لكل فنان ساعات الجلاء الخاصة به . وهي تلك التي يسهل فيها الكتابة ،التأليف ، الانتاج . ساعات التجلي لدي هي المحصورة بين الخامسة والثامنة صباحا .

عندما اعمل على رواية ، اتناول بعد استيقاظي كأسا من الشاي ثم أجلس الى آلتي الكاتبة ، جاهلا في كثير من الاحيان ما سأدونه فيها ، ولكن ، ما ان اتذكر الفصل او المقطع السابق اجدني اتابعه آليا ، كما لو ان في الدماغ شريط تسجيل راح يتحرك .

بعد ساعتين او ثلاث من العمل اسمع في راسي صوتا : « تيك » ، فأكف والتفت الى مراسلاتي ومشاغلي الاخرى .

يعود هذا الى مهنتي الاولى ، فقد كنت مدرسا في جامعة غواتيمالا ؛ وكان يتوجب علي الوصول الى العمل في التاسعة صباحا لالقاء محاضراتي، ثم عملت صحافيا وكنت اشتغل منذ الصباح الباكر في صحيفة مسائية . وعندما اصبحت دبلوماسيا في بيونس آيرس عام ٤٧ سهلت لي العادة استغلال الصباح للكتابة قبل ان اكون ، في العاشرة بالضبط في مبنى السفارة .

انني عاجز تماما بعد منتصف النهار وفي المساء ، ولا احاول الكتابة ليلا ، فعندما حدث ان فعلت اضطررت في اليوم التالي الى القيام بتصحيح طويل لانني كررت الكلمة ذاتها في مقاطع متعددة ، كما لو ان في الامر ارهاقا . لكن هذا اعتقد انه ليس بالامكان تحديد موعد محدد لانهاء كتاب ما . ولا يمكن قياس العمل الابداعي بالساعات او بالايام او بالسنوات .

انني اعمد في البداية ــ وبشكل عام ــ الى تسجيل اهم ما انوي قوله في مسودة ، فصلا وراء فصل . ثم احفظ هذه المسودة لمدة شهرين او

ثلاث ، وعندما يخيل الي ان التجربة الاولى قد بردت أعود اليها لأصحح واقتطع ما اعتبره فائضا ثم احفظ هذه المحاولة الثانية لشهرين او ثلاثة اخرى . اعاود مراجعتها بعد ذلك واقوم بما يسمى في لغة السينما بالمونتاج . ما ان انتهي من هذا اعطيها للطابع على الآلة الكاتبة لتنجز النسخة النهائية .

وبما انني اعتبر كتاباتي سمعيه اكثر منها مرئية ، اعمد الى قراءة المقطع ، او الصفحة ، او الحوار بصوت عال لمعرفة مدى ملاءمته . واذا لم اجد الصوت اللازم اصحح وابدل حتى ابلغه . اذكر انني صححت « السيد الرئيس » مرارا ـ عندما تكون شابا تجد الوقت لكل شيء ـ الى درجة بت فيها احفظ منها فصولا كاملة عن ظهر قلب .

ـ هل تعتقد ان مسؤولياتك الدبلوماسية اثرت سلبيا على عملك الادبي:

× على العكس ، لقد افادني ذلك كثيرا ، انني لست ميسور الحال ، ولولا هذه الوظائف لما استطعت السفر والتنقل . عندما عينني اريفالو وزيرا مستشارا في بوينس ايرس عام ٩٤٨ قال انني ساتمكن من العمل ككاتب وانني ساجد لعملي صدى في ذلك البلد . وقد انجزت خلال تلك السنوات « رجال من ذرة » ، « البابا الاخضر » ، كثيرا من القصائد التي نشرت انذاك ، و « ويك اند في غواتيمالا » التي نشرت فيما بعد .

ـ عندما شغلت منصب السفير في باريس ذلك الذي هجرته عام ١٩٧٠ ، اتهمت بالعمالة من قبل كثير من الكتاب اللاتينيين بسبب تمثيلك لحكومة ديكتاتورية .

× اجل ، لقد وجه الي كثيرا من النقد لموافقتي على شغل المنصب ، لكنني اوضحت دائما لماذا قمت بذلك . كنت في ايطاليا عندما بدأت معركة الانتخابات في غواتيمالا ، ومقابل المرشح المدني الوحيد مونتينيغرو كان

هناك اربعة مرشحين من العسكريين . والحكومة القائمة آنذاك كانت حكومة عسكرية ، وكانت قد اصدرت دستورا يهدف الى ايصال العسكريين الى السلطة ، لكن الشعب قال « لا » ، ونجح مونتينيغرو .

كنت قد كتبت حول هذا في الصحف الايطالية ، وشعرت نفسي ملتزما ـ الى هذا الحد او ذاك ـ مع الحكومة المدنية ، حكومة تستجيب بعض الشيء لمطالب الثورة . وعندما عرض علي المنصب فكرت انني مسؤول اتجاه غواتيمالا وان من واجبي خدمة البلد .

ـ قال غابرييل غارثيا ماركيث : « ان الرواية الملتزمة تحكم على القارىء برؤية احادية الجانب .. اعتقد ان القراء في امريكا اللاتينية ليسوا بحاجة لمن يتابع رواية مأساتهم الخاصة مع الارهاب والظلم لانهم يدركون جيدا من حياتهم اليومية ، انهم ينتظرون الرواية التي تكشف لهم شيئا ما جديدا » .

× اعتقد ان معادلة غارثيا ماركيث هي في الواقع معادلة متنكرة تدعو الرواية لدينا الى تجنب الخوض بمشاكلنا . تثير هـذه الدعوة سخطي لانها تدعو كتاب المستقبل الى اخفاء مأساتنا . واذا كان صحيحا اننا نروي المأساة وان امريكا متذمرة من سماعها ، فلتتابع الاستماع ، فما دامت تفعل ، يمكن ايجاد الدواء . لكنها لن تشفى لو عملت بنصيحته وخبات آلامنا لتروي ما ليس منا ، ما لا يخصنا ، بالاعتماد على (تسخين) مواضيع مأخوذة ، ليس فقط من واقع غريب وانما بشكل مباشر من الكتب الاوروبية . اذكر ـ على سبيل المثال ـ حالة غابرييل ماركيث في « مائة عام من العزلة » ، انها فاضحة : غارثيا ماركيث نقل الى صفحات روايته موضوع وشخصيات « البحث عن المطلق » لبلزاك .

ـ ماذا عنت بالنسبة اليك جائزة نوبل عام ١٩٦٧ ؟

× لم يخطر ببالي قط انني سأحوز عليها ، على الرغم من ان اسمي كان يرد كل عـام .

اعتقد ان الذي يستحقها بالفعل هو رومولو غاليغو .. ومنذ اللحظة الاولى خلق عندي انطباع انني منحت الجائزة كممثل لامريكا اللاتينية التي تلعب دورا هاما في الادب العالمي . كانت قد مرت ٢٥ سنة منذ اعطيت لغابريلا ميسترال . وعندما القيت الكلمة عن اعمالي واستلمت الجائزة شعرت بمزيج من المرارة والفرح ، لانني تمنيت لحظتها وجود والدي بجانبي ، واصدقائي ، وان يكون على قيد الحياة من احببت . انه الشعور باليتم الذي تغرق فيه في لحظات السعادة القصوى .

ـ الم تترك جائزة لينين للسلام ووسام جوقة الشرف الفرنسية اثرا عميقـا في ذاتك ؟

× كنت في جنوا عندما تم اختياري لجائزة لينين .. وما ان علمت بالامر ابرقت للمسؤول عن الجائزة اشكره واطلب منه العمل من اجـل مراجعة الاحكام التي صدرت بحق الكتاب الروس ... وباعتباري عانيت من الملاحقات رأيت من واجبي المطالبة بالافراج عنهم . اما بالنسبة لوسام جوقة الشرف فقد كنت اعلم انه يمنح للسفراء لدى انتهاء خدمتهـم ، لكنني لم اتصور انه سيكون من درجة « الضابط الكبير » فهي تمنح لرؤساء الحكومات عـادة .

عندما اطلق ديغول نداء التحرير من لندن كنت ادير صحيفة غواتيمالا وقد دعونا لمساندة قضية تحرير فرنسا . وقد اشار الوزير سومان في خطابه الى موقفي ذاك (كان قد اطلع على مجمل ما كتبته بهذا الشأن ـ . لقد سرني الوسام للغاية لانني اعتبر فرنسـا وطني الروحي الى حد ما .

ـ آمالك للسنوات القادمة ؟

× ان يكثر في امريكا اللاتينية الفنانون الجدد ، الروائيون ، الشعراء اعتقد اننا وصلنا الى نقطة هامة بفضل اسماء كبيرة لابد من متابعتها . آمل ان تترسخ نهائيا آداب امريكا اللاتينية في العالم ، في الضمير الكوني للكلمة ، وان يؤخذ شعراؤنا وكتابنا بعين الاعتبار دوما لانهم لا يقلون بشيء عن كتاب الدول الاخرى . ونصيحتي لكتابنا هي ان يعملوا ، فكما قال احدهم « العبقرية هي العمل » .

انني اؤمن بشبابنا ، وبشكل خاص بأولئك الذين يرتبطون بأوساطنا الحية ، بطموحاتنا . واكرر ان على الشباب ان يكتبوا حول العصابات ، حول الصراعات الداخلية التي تعيشها بلداننا ، حول النزيف الـذي يفتح فصلا جديدا لم يسبق ان عشناه وهو الان بين ايديهم .

لو شاء كتاب جيلي تأليف رواية حول حرب العصابات لزيفوا كل شـيء .

ـ وطموحاتك الخاصة ؟

× التفرغ للكتابة . عمري لا يسمح لي باضاعة الوقت . وما دمت استطيع الان تحقيق ذلك اود ترك روايتين او ثلاث ، قصيدة طويلة ما ، عمل مسرحي ..

وافكر بالعودة الى جزيرة ماليوركا في نهاية العام الجاري لاعـاود العمل على روايتي الجديدة المؤلفة من كتابين : « جمعة الآلام » و « اللقيط مرتـين » .

(×) عن مجلة « أصوات » ـ المكسيك ١٩٧٤ .

«زائـــــــــــر»

مــاريــوفــارغــاس ــــ ليوسا ـ البيرو

تلعق الرمال واجهة الحان ، وتنتهي هناك : تنزلق النظرة من الثغرة التي تستخدم كباب او عبر نبتة (الكاريثو) على مساحة بيضاء واهنة حتى تلتقي بالسماء .

التراب قاس وخشن خلف الحان . وعلى مسافة تقل عن كيلو متر واحد تبدأ المرتفعات المغطاة بالعشب . كل جبل منها اعلى من سابقه وكلها متحدة تغرز قممها في السحب كأنها ابر او فؤوس . الى اليسار ، ضيقة ، متماوجة ، ممتدة على حافة الرمال ونامية بلا توقف حتى تنتهي بين جبلين ، بعيدا عن الحان ، تقع الغابة ، احراج ، نباتات برية وعشب يابس معوج ، تخفي كل شيء : الارض المتشققة ، ثعابين « الكوليبرا » ، المستنقعات الصغيرة . لكن الغابة ليست سوى مجرد اعلان عن الادغال ، تقليد لها : فهي تنتهي الى منخفض عند قدم جبل صلد ، ذلك الذي تمتد وراءه الادغال الحقيقية . ودونيا ميرسيد يتاس تعرف هذا . فمرة ، منذ سنوات ، تسلقت سفح ذلك الجبل وتاملت من هناك ، بعينين مدهوشتين عبر لطخات السحب السابحة عند قدميها ، الارض الخضراء الممتدة طولا وعرضا بلا انقشاع .

ودونيا ميرسيد يتاس غافية الآن على كيسين . المعزى ، ابعد قليلا ، تحفر الرمل ببوزها ، تمضغ نثرة من خشب باصرار ، او تعب من هواء الاصيل الفاتر . تستقيم اذناها على حين غرة وتغدو جامدة . تفرج المراة عينيها قليلا :

ـ ماذا يحدث يا كوبرا ؟

يشد الحيوان الحبل الذي يوثقها بمربط . تنهض المراة جاهدة وتقف يبدو الرجل مرسوما بوضوح على مسافة خمسين مترا وعلى خلفية الافق يسبقه ظله على الرمال . ترفع المراة يدها الى جبينها كمظلة ترمق المكان بسرعة ، ثم تبقى ساكنــة .

الرجل قريب ، انه طويل ، ناحل وقذر ، شديد السمرة ، شعره مشعث وعيناه ساخرتان . يرفرف قميصه الذي فقد لونه فوق البنطال الصوفي ، وقد زم نهايتيه حتى الركب . تبدو ساقاه كقطعتي خشب اســود .

ــ مساء الخير ، ايتها السيدة ميرسيد يتاس . ــ صوته منغم واستهزائي .

لقد شحبت المراة تهمس :

ــ ماذا تريــد ؟

ــ لقد عرفتني ، أليس كذلك ؟ هيا ، ان هذا يفرحني . اريد تناول بعض الطعام من فضلك . وبعض الشراب . انني عطشان جدا .

ــ هناك بيرة وفواكه في الداخل .

ــ شكرا ايتها السيدة ميرسيد يتاس . انك طيبة ، كالعادة ، الا ترافقينني ؟

ــ ومن اجل اي شيء ؟

ترمقه المراة بتوجس . انها بدينة ومتقدمة في السن لكن بشرتها ناعمة وهي حافيــة . .

ــ انك تعرف الحان .

ــ اوه ــ يقول الرجل بلهجة صدوقة ــ لا احب تناول الطعام وحدي . انه محزن . تتردد المراة لحظة ثم تسير نحو الحان جارة قدميهــا على الرمال . تدخل . تفتح زجاجة من البيرة .

ــ شكرا . شكرا جزيلا ايتها السيدة ميرسيد يتاس . لكنني افضل اللبن . وما دمت قد فتحت هذه الزجاجة فلماذا لا تشربينها ؟

ــ ليست بي رغبـة .

ــ هيا ايتها السيدة ميرسيد يتاس ، لا تكوني هكذا ، اشربيها نخب صحتـي .

ــ لا اريـد .

تنم تعابير الرجل عن مرارة .

ــ انت صماء ؟ قلت لك ان تشربي هذه الزجاجة . صحة

ترفع المرأة الزجاجة بيديها وتشرب ببطء جرعات صغيرة ، تلتمع جرة من اللبن على الطاولة الوسخة المثقوبة . هش الرجل بيده طاردا الذباب المحوم حولها ، يرفع الجرة ويرشف جرعة طويلة . شفتاه مطبوعتان بحلقة من القشدة ؛ لكن اللسان يمحوها بعد ثوان محدثا صوتا

ــ آه ــ قال وهو يتلمظ ــ ما احسن هذا اللبن ايتها السيدةميرسيد يتاس . اكيد انه لبن المعزى اليس كذلك ؟ لقد راق لي كثيرا . هل انهيت الزجاجة ؟ لماذا لا تفتحين اخرى ؟ صحة

تطيعه المرأة بدون تذمر . يلتهم الرجل ثمرتي موز وبرتقالة .

ــ اسمعي ايتها السيدة ميرسيد يتاس لا تكوني خبيثة ، ان البيرة تسيل على رقبتك . ستبلل ثوبك . لا تهدري الاشياء هكذا . افتحي زجاجة اخرى واشربيها على شرف « نوما » صحة .

ــ ظل الرجل يكرر كلمة « صحة » حتى صارت على الطاولة اربـع زجاجات فارغـة .

عينا المرأة زجاجيتان . تتجشأ ، تبصق ، تجلس على كيس فواكه .

ــ يا الهي ــ يقول الرجل ــ يا لها من امرأة انك سكيرة صغيرة ايتها السيدة ميرسيد يتاس اعذريني لتولي هذا .

ــ ان ما تفعله مع عجوز مسكينة سيكلفك غاليا يا خامايكينو . سترى لسانها معقود بعض الشيء .

يقول الرجل بسأم .

ــ حقا ؟ بالمناسبة ، في اية ساعة سيحضر نوما ؟

ــ نومـا ؟

ــ اوه ايتها السيدة ميرسيد يتاس ، انك فظيعة عندما ترفضين فهم الامور . في اية ساعة سيأتي ؟

ــ انك اسود قذر يا خامايكينو . ان نوما سيقتلك .

ــ لا تتفوهي بهذه الكلمات ايتها السيدة ميرسيد يتاس ــ يتثاءب . حسن ، اعتقد ان امامنا متسعا من الوقت .

ينهض ويخرج . يمضي صوب المعزى . يرمقه الحيوان بحذر وبدون ثقة . يحل وثاقها ويعود الى الحان وهو يطوح الحبل كمروحة ويصفر : المراة غير موجودة . فيختفي على الفور هدوء ايماءاته الشهوانية المتخاملة يجول المكان بخطوات مديدة وهو يكيل اللعنات . ثم يتقدم من الغابة الصغيرة وقد تبعته المعزى . يكتشف الحيوان المراة خلف حرش ويبدأ بلعقها . فيضحك خامايكينو وهو يتأمل نظرات المراة الغاضبة للمعزى . تنم عنه اشارة مقتضبة فتتجه دونيا ميرسيديتاس الى الحان .

ــ حقا انك امراة رهيبة . اجل ايها السيد . يا للخواطر التي تراودك

يربط قدميها ويديها ، ثم يحملها ويودعها الطاولة . ينظر اليها بخبث وفجأة ارتسم اليأس على محياها . الطاولة ضيقة . ومع انتفاضها تقترب وقد ارتسم اليأس على محياها . الطاولة ضيقة . ومع انتفاضها تقترب من الحافة حتى تتدحرج اخيرا ، ثقيلة ، على الارض .

ــ يا للمراة الرهيبة . اجل ايها السيد ــ يكرر ــ تتظاهر بالاغماء وهي تسترق الي النظر بعين واحدة . ليس ثمة دواء لعلتك ايتها السيدة ميرسيديتاس .

ادخلت المعزى راسها في الغرفة وراحت ترمق المرآة بثبات .

☆ ★ ✭

يسمع صهيل الخيول مع نهاية الاصيل : مع زحف العتمة . ترفع السيدة ميرسيديتاس وجهها وتصغي وقد اتسعت عيناها .

ـ انهم. هم ـ يقول خامايكينو ، ويستقيم بقفزة واحدة .

ما زالت الجياد تصهل وتراوح بين سنابكها . فيصيح الرجل من باب الحان بحدة :

ـ هل جننت ايها الملازم ؟ هل جننت ؟

في منعطف من الجبل ، يظهر الملازم ، من خلف بعض الصخور : انه صغير الجثة ، مكور ، ينتعل جزمات ركوب الخيل ووجهه يتفصد عرقا . يتطلع بحذر .

يكرر خامايكينو :

ـ هل انت مجنون ؟ ماذا يحدث لك ؟

ـ لا ترفع صوتك ايها الاسود ـ يقول الملازم ـ وصلنا لتونا . ماذا يحدث ؟

ـ كيف ماذا يحدث ؟ اطلب من رجالك ان يبعدوا الخيول . الا تعرف مهنتك ؟

يحمر وجه الملازم ويقول :

ـ لست طلقا بعد ايها الاسود . فمزيدا من الاحترام .

ـ خبىء الخيول وقص السنتها اذا شئت ، ولكن يجب الا يسمع لها صوت . وانتظر هناك . ساعلمك باشارة ـ يفرج خامايكينو فمه والبسمة التي ترتسم على محياه وقحة ـ الا تدرك ان عليك ان تطيعني الان

يتردد الملازم لثوان ثم يقول :

ـ الويل لك اذا لم يحضر ـ ويأمر بعد ان يدير رأسه : ـ ايهاالرقيب ليتوما ، خبىء الخيول ..

يقول احدهم من خلف التل :

ـ امرك سيدي الملازم

يسمع صوت حوافر ، ثم الصمت .

يقول خامابكينو :

ـ هكذا يعجبني . على المرء ان يكون مطيعا . حسن جدا ايها الجنرال برافو ايها القائد . اهنئك ايها النقيب . لا تتحرك من ذلك المكان . ساخبرك

يريه الملازم قبضته ويختفي خلف الصخور . يدخل خامابكينو الحان عينا المراة تقدحان مقتا . تهمس :

ـ ملعون . جئت بالشرطة . ملعون ؟

ـ يا للتربية ، يا الهي ، يا لتربيتك ايتها السيئة ميرسيديتاس ماجئت بالشرطة . لقد اتيت وحدي ، وقد التقيت الملازم في هذا المكان . انك تشهدين بذلك .

تقول المراة .

ـ لن يأتي نوما . وستأخذك الشرطة الى السجن ثانية . وما ان يطلقوا سراحك حتى يقتلك نوما ؛

ـ ان عندك مشاعر سوء ايتها السيدة ميرسيدتاس . لا ريب في ذلك يا للتنبؤات .

ـ ايها الخائن ـ تكرر المراة التي تمكنت من الجلوس وركنت متيبسة هل تعتقدان ان نوما ابله ؟

ـ ابله ؟ ابدا . انه نبيه ككاكاتوا(*) ولكن ، لا تيأسي ابتها السيدة ميرسيديتاس . اكيد انه سيأتي .

ـ لن يأتي . انه ليس مثلك . عنده اصدقاء . سيخبرونه ان الشرطة هنـا .

ـ اتعتقدين ؟ لا اؤمن بذلك . لن يكون لديهم متسع من الوقت . فالشرطة جاءت من جهة اخرى ، من خلف الجبال ، وقد قطعت الرمـال وحيدا ، وكنت اسأل في كل القرى : « اما زالت السيدة ميرسيديتاس في الحان ؟ انهم اطلقوا سراحي ، وانا ماض لادق عنقها » . لا شك ان اكثر من عشرين شخصا قد هرعوا ليخبروا نوما بذلك . اما زلت تعتقدين انه لن يحضر ؟ يا الهي، يا لوجهك ابتها السيدة ميرسيديتاس .

ـ اذا ما طرأ سوء لنوما ـ غمغمت المرأة ساخرة ـ ستندم لذلك طوال حياتك يا خاميليكينو .

يكمش هذا منكبيه . يشعل سيجارة ويبدأ بالصفير . ثم يتجه الى الطاولة ، يمسك فانوس الزيت ويوقده . يعلقه على خشبة اعلى الباب .

يقـول :

ـ حل الليل . تعالي ابتها السيدة ميرسيديتاس . اريد ان يراك نوما جالسـة عند الباب منتظرة اياه . آه ، صحيح انـك لا تستطيعين الحراك ، اعذريني ، انني انسى كثيرا .

ينحني ويرفعها بين ذراعيه ، ثم يتركها على الرمل ، امام الحان ، يرتمي ضوء الفانوس على المرأة ويحيل بشـرة وجهها ملساء . انهـا تبـدو اكثر شـبابا .

(*) كاكاتوا : من طيور المحيط الهادي . يقلد الاصوات كالببغاء ـ الاسم من الملايو ، وهو قريب من الصوت الذي يحدثه .

ــ لماذا تفعل هذا يا خامايكينو ؟

صـوت دونيا ميرسديتاس ضعيف الآن .

ــ لم ؟ يقول خامايكينو ــ انك لم تدخلي السجن . اليس كذلك ايتها السيدة ميرسيديتاس ؟ تمضي الايام وليس لدى المرء ما يشغله . ان المرء يسأم كثيرا هناك . اؤكد لك هذا . ويعاني كثيرا من الجوع . اسمعي ، نسيت تفصيلا واحدا ، لا يمكنك البقاء فاغرة الفم كيلا تطلقي الصرخات لحظة قدوم نوما . ثم انك قد تبتلعين ذبابة .

يضحك . يبحث في الغرفة ويجد خرقة . يكم بها نصف وجه دونيا ميرسيديتاس ويراقبها للحظة طويلة ، لا هيـا .

ــ اسمحي لي بالقول ان مظهرك مسل ايتها السيدة ميرسيديتاس ، لا اعرف ماذا تشبهين .

★ ★ ★

يستقيم خامايكينو كالثعبان في عتمة اعماق الحان : بمرونة وبـلا قعقعة . يركن منحنيا على نفسه وقد استندت يداه على الطاولة . على مسافة مترين امامه ، ضمن مخروط الضوء ، تقبع المرأة جامدة ، وجهها متقدم ، كانها تشم الهواء : انها سمعت هي ايضا .

كان صوتا خافتا ، لكنه شديد الوضوح ، قادم من اليسار ، وقد تجاوز ضجيج الصراصير . وها هو ثانية ، اطول : اغصان الغابة الصغيرة تطقطق وتنكسر . شخص ما يقترب من الحان .

« ليس وحده ــ يهمس خامايكينو ــ انهم عديدون » يدخل يده في جيبه ويخرج الصفارة ويضعها بين شفتيه . انه ينتظر ، بلا حراك .

تنتفض المرأة فيكيل خامايكينو اللعنات من بين اسنانه المطبقة . يداها تتلوى في مكانها وتحرك راسها كالبندول محاولة التخلص من الكمامة . لقد خفتت الضجة . هل يسير على الرمل الذي يمتص صوت الخطوات ؟ وجه المرأة مدار الى اليسار ، وعيناها تجحظان من محاجرهما كعيني تمساح مسحوق . « لقد رآهم » تمتم خامايكينو . يضع رأس لسانه على الصفارة : المعدن حاد . ما زالت دونيا ميرسيديتاس تهز راسها وتغمغم بمرارة . يصدر عن المعزى ثغاء فينكفيء خامايكينو . يرى بعد ثوان ظلا يهبط على المرأة وذراها عارية تمتد الى الكمامة . ينفخ بكل قواه وهو يلقي بنفسه على القادم . عم الصفير الليل كحريق وضاع بين السباب المتفجر يمينا وشمالا ملاحقا بخطوات متسرعة .

وقع الرجلان فوق المرأة . الملازم سريع : ما ان ينهض خامايكينو حتى تكون احدى يديه قد تشبثت بشعر نوما بينما وجهت الاخرى المسدس الى صدغه .

يحيط بهم اربعة جنود ببنادقهم .

ــ اركضوا ــ يصرخ خامايكينو بالجنود ــ الآخرون في الغابة . بسرعة انهم سيهربون . بسرعة ــ قفوا ــ يقول الملازم . انه لا يشيح بصره عن نوما الذي يحاول ان يرى المسدس شزرا . يبدو هادئا . يداه تنسدلان على جانبيه .

ــ ايها الرقيب ليتوما . اوثقه .

يترك الرقيب ليتوما بندقيته على الارض ومدد الحبل الذي كان يعلقه على حزامه . يربط قدمي نوما ثم يوثق يديه . لقد اقتربت المعزى وبعد أن تشم ساقي نوما تبدأ في لحسهما بصعوبة .

ــ الخيول ايها الرقيب ليتوما .

اعاد الملازم السادس الى جعبته وانحنى على المراة . يفك الكمامة ويحررها . تقف دونيا ميرسيديتاس تنحي المعزى بضربة على ظهرها واقترب من نوما . تمرر يدها على جبينه دون ان تنبس ببنت شفه .

ـ ماذا فعل بك أيسال نوما .

ـ لا شيء ـ تقول المراة ـ هل تود التدخين .

يصر خامايكينو .

ـ ايها الملازم . هل تعي ان على مبعدة امتار من هنا ، في الغابة ، يقبع الاخرون ؟الم تسمعهم ؟ لا شك انهم ثلاثة او اربعة ، على الاقل . ماذا تنتظر لكي ترسل من يبحث عنهم ؟

ـ صمتا ايها الاسود ـ يقول الملازم دون ان ينظر اليه ، يشعل عود ثقاب ويوقد السيجارة التي وضعتها المراة بين شفتي نوما . يبدا هذا بمج انفاس طويلة . يطبق على السيجارة باسنانه ويلفظ الدخان من منخريه ـ جئت لامسك بهذا ، ولا احد سواه .

ـ حسن ـ يقول خامايكينو ـ اذا لم تعرف مهنتك فتلك علتك ، لقد قمت بواجبي . انا الآن حر .

ـ اجل ـ يقول الملازم ـ انت حر .

يقول ليتوما :

ـ الخيول ، سيدي الملازم

انه يمسك باعنة الجياد الخمسة .

ـ اركبه على حصانك يا ليتوما ـ يقول الملازم ـ سيذهب معك .

يمسك ليتوما بمعونة جندي آخر نوما وبعد ان يحل وثاق القدمين يجلسه على صهوة الحصان . يعتلي ليتوما الجواد خلفه . يقترب الملازم من الجياد ويمسك بعنان حصانه .

ـ اسمع ، ايها الملازم ، ومع من اذهب انا ؟

ـ انت ؟ ـ يقول الملازم وقد ادخل قدمه في ركاب السرج ـ انت ؟

ـ اجل ـ يقول خمايكينو ـ ومن غيري ؟

ـ انت حر ، يجيب الملازم ـ لا لزوم لمرافقتنا ـ بامكانك ان تمضي حيث تشاء .

يضحك ليتوما والجنود من على صهوات جيادهم .

يقول خمايكينو .

ـ اية فرحة هذه ؟ ـ صوته يرتجف : ـ لن تتركني هنا ، اليس كذلك ايها الملازم ؟

انك تسمع الاصوات التي في الغابة . كان سلوكي جيدا . لقد قمت بواجبي ، ولا يمكنك التصرف على هذا الوجه .

يقول الملازم :

ـ في حال اسراعنا ، ايها الرقيب ، سنصل « بيوريا » مع الفجر ويفضل السفر على الرمال ليلا فالحيوانات تكل بقدر اقل .

ـ سيدي الملازم ـ يصرخ خمايكينو الذي امسك باعنة حصان الضباط وراح يهزها بعصبية ـ لن تتركني هنا لا يمكنك الاقدام على فعلة مشينة كهذه .

يخرج الملازم قدمه من الركاب ويدفع خامايكينو بعيدا .

علينا السير خببا بين الحين والاخر ـ يقول الملازم ـ هل تعتقد انها ستمطر ايها الرقيب ليتوما ؟

ـ لا اعتقد ، سيدي الملازم . السماء منقشعة .

يتضرع خامايكينو وقد تورم عنقه .

ـ لا يمكنك الذهاب بدوني .

تبدأ السيدة ميرسيديتاس بالقهقهة وقد امسكت بطنها .

ـ هيا ـ يقول الملازم ـ فيصيح خامايكينو :

ـ ايها الملازم ! ملازم ! ارجوك !

تبتعد الخيول ، بطيئة . ينظر خامايكينو اليها مذهولا ، ضوء الفانوس ينير وجهه المشوه .

ما زالت السيدة ميرسيديتاس تضحك عاليا . تصمت فجاة وترفع يديها الى فمها كالبوق .

وتصرخ :

ـ نوما ! ساخذ لك الفاكهة ايام الآحاد .

ثم تعاود الضحك ، بصوت مدو .... وتنم عن الغابة الصغيرة ضجة اغصان واوراق يابسة تتكسر .

فندق صغير في شارع بلوميه

ماريو بينلايتي - الأوروغواي

لعلها المادة القديمة في عـدم التعرف على بعضهما امـام الناس . والحقيقة انهما صمتا في المترو . كان يرنو اليها بين الحين والآخر فترسم هي بسمة حزينة لا اكثر . كانت ساعة اغلاق المتاجر ، والعربة مكتظة بالناس ، وتفوح من الحشد رائحة هي مزيج الابطين وعطر « شانيل » . كما في سنة ٦٥ ـ كان الوصول الى محطة « فوجيرار » مواساة . حمل هو الحقيبة التي قدمت بها منذ ساعتين الى محطة ليون . كانت تثلج بشدة .

ـ انشتري خبزا ، جبن « غروبير » ونبيذ « بوجوليه » ؟

ـ اجل ، بالطبع ، كالعادة .

ـ كيلا نخرج للعشاء ..

ـ احسن ، فالشارع مقرف .

ـ وعلى الاقل .. عندنا تدفئة مركزية في السقيفة .

ـ ما احسن ذلك .

ابتاعا الاشياء واضافا علبة «فولواز» وكبريت من اجله،وشوكولا لها .

حملت هي الاكياس الجديدة بينما تابع هو بالحقيبة .

صعدا شارع كامبرون ، متلاصقين لدرء الثلج ، وسارا ببطء خوفا من التزلج .

حيتهما السيدة « بنوا » في فندق شارع بلوميه الصغير بابتسامتها الحادة واللامبالية المعتادة . مدت اليها يدها ونطقت العبارة التقليدية : يسرها وصول السيدة « ميندبث » (مدام ميندس) على ما يرام .

ابتسمت هي وهممت كجواب عبارة تقليدية اخرى .

تناول المفتاح وصعدا الى الغرفة .

كانت سقيفة ذات نافذة وحيدة يتراكم الثلج على عتبتها . ثمة طاولة وكرسيان بجانب النافذة ، والسرير الزوجي مغطى بشرشف ازرق . على الجدار صورة باهتة للوحة « رينوار » كانت البساطة وافرة ومضيافة .

— ما استطعت الحصول على الغرفة ذاتها . ال ٤٢ مشغولة .

— لا يهم ، انها جميلة ودافئة .

لكنها لم تخلع البالطو . كانت متجمدة . فتحت الحقيبة وراحت تخرج بعض الملابس بينما فتح هو باب خزانة قزمة .

— فرغت لك الجانب الايمن بكامله .

لم ترد ، لكنها راحت ترتب ملابسها على الرفوف والعلاقات التي حررها من اجلها .

مضى هو صوب الصنبور ، فتحه ، وانتظر المياه الساخنة ، غسل يديه ثم اخرج المأكولات من اكياسها ووضعها على الطاولة ، خلع سدادة الزجاجة ، قطع الخبز من منتصفه وبدأ يوزع شرحات الجبن عليه .

كانت ما تزال ترتب الملابس عندما اقترب من خلفها ووضع يده على منكبها ، أمالت رأسها بذلك الاتجاه لتلمس به اليد . اراد وقتها معانقتها .

ـ ليس الآن . انني جائعة .

ـ وانا ايضا .

غسلت وجهها . ثم جلست الى الطاولة . وراحا يقضمان الطعام بصمت فترة طويلة .

ـ يا للمأدبة .

ـ اعترف ان هذا يكاد يكون عشائي اليومي .

ـ انه لشيء رائع . كنت ميتة من الجوع ، فقد تناولت القليل من الطعام في القطار بسبب دوخة كنت اعانيها .

ـ والآن ؟

ـ الآن لا ، النبيذ والجبن اعاداني الى الحياة .

ـ عاد اللون الى خديك . كنت شاحبة .

ـ من الجوع .

ـ ما كنت تأكلين بشهية في الماضي .

ـ في الماضي هنا أم في ماضي الاوروغواي ؟

ـ لا هنا ولا هناك . كنت تفتقدين الشهية دوما .

ـ لقد رايت ان الامر ليس كذلك الآن . لعله ثاري . والحقيقة انني عانيت الجوع عام ٧٢ ، يوم اضطررت الى الاختفاء . جوع حقيقي .

ـ اعرف ذلك . كان الطعام في القلعة مقرفا . طعام الكلاب لم يكن يوما شهيا ، لكنه كان طعاما على كل حال ، ثم ان وزني خف .

ـ أجل ، لقد تحسنت هيئتك .

ـ وانت صرت جميلة .

ـ باه . . .

ـ لست ادري ان كان جمالا . فيك تعبير آخر . وكأنك اكثر انثوية .

ـ يا لطيف .

ـ راحت تجمع قشرة الجبن في كيس ورقي صغير .

ـ وانت ، هل تشعر نفسك اكثر رجولة ؟

ـ لا ادري . لكنني راض عن نفسي بشكل ما . لانني تحملت التعذيب ولم اتكلم . لم اخن . كان ذلك هو هوسنا في تلك الايام القذرة ، عدم النطق ، عدم التفوه ، قبل كل شيء .

ـ اوتظن ان ذلك قليل ؟ انني هنا لانك صمتت .

ـ ولهذا فقط ؟

ـ لا . اعني انك لو افصحت لهم ما عندك لتوصلوا ـ على الرغم من اختفائي ـ الى جمع المعلومات لالقاء القبض علي ، او لمنعي من الخروج .

ـ ولهذا فقط انت اليوم هنا ؟

ـ لا تكن غبيا . تعرف جيدا انني جئت لرؤيتك .

ـ وانا ايضا كنت ارغب برؤيتك . وارجو ان تشاني انت ذلك ايضا .

ـ اويوي ما اصعب هذه العبارة .

ـ انني عاجز عن قولها ببساطة .

تنهدت :

ـ حسنا . ها نحن هنا .

ـ في فندق شارع بلوميه الصغير . من كان يتصور عام ٦٥ اننا سنمر بما مررنا به ؟

ـ لا احد .

ـ اسمعي . اعتقد ان قوات الامن كانت تجهل ذلك ايضا .

ـ تجهل ماذا .

ـ مثلا : انهم سيفقدون انسانيتهم بهذا الشكل .

ـ ربما ، لكن الاهم هو اننا كنا نجهل ما ستصير اليه . يا له من طبق سلطة تجريدية الا يبدو لك كذلك ؟

امسك يدهـا :

ـ يبدو لي . لكنك الآن شيء محدد . وانت تعجبينني . لقد انتهى التجريـد .

استعادت هي ابتسـامتها الحزينة :

ـ و « لاورا » هي ايضـا شيء محدد . وتروق لك . انت تعرف انني لا أعاتبك ، فاوسكار هو كذلك شيء محدد .

ويروق لي . انها معلومات موضوعية . اليس كذلك ؟

ـ اجل بالطبع .

ـ اتعلم « لاورا » اننا سنلتقي في باريس ؟

ـ لم اجرؤ على اخبارها . واقسم لك انه ليس عجزا في صراحتي . لكنها تستعيد قواهـا ببطء . احـداث تشيلي كانت بالنسبـة اليهـا كارثة ثانية .

ـ ومن الذي لم يعاني منها ؟

ـ وهل « اوسكار » على علم بالامر ؟

ـ اجل اوسكار يعلم .

ـ وكيف تقبله ؟

ـ بشكل حسن . اقصد ، بأحسن ما يمكن تقبل أمر كهذا . يدرك انه لن يكون واثقا من علاقتي به ما لم التق بك ثانية .

ـ وانت ؟

ـ ربما يحدث لي الامر ذاته .

ــ كلنا نفتقد الثقــة . اليس كذلك ؟ انا ايضا ، علاقتي مع لاورا جيدة . وكانت لي علاقة بك . لست ادري لو انفصمت بسبب خلاف شخصي ، بسبب شجار الازواج لكان الامر مغايرا . لكننا كنا زوجان رائعان . اليس كذلك ؟

ــ اجل ، كنـــا .

ــ تعالي .

واتجهــا نحو السرير دون تلامس . وراح كل منهما يخلع ملابسه مديرا ظهره للآخر .

ــ هل انتهيت ؟

ــ انتهيت . تعال .

واستدار ببطء . كما لو انهما عبدان في رقصة متوازية ، كما لو انهما يكرران طقســا قديما . وتواجها ، عاريان جذبها اليه : فارتخت مستسلمة وراحت تنشج وهي تعانقه ، دون ان تتمالك ودون ان تحاول ذلك .

شعر هو بدموعها تبلل رقبته ، وشعيرات صدره . وانسلت دمعة اكبر من سواها الى الاسفل لتستقر عند الصرة .

كان يمرر يده بحنان على شعرها ، ويلقيه الى الخلف ليقبل اذنيها ، بينما استمرت هي بالبكاء دون ان ينجلي ما اذا كانت تفعل من السعادة او من اليؤس . انزل يديه وراح يمعن بلمساته ، وبشكل لا شعوري راحا يميلان نحو السرير . واكتشف فجاة ان الدموع التي تسيل على وجهه يمكن ان تكون دموعه هو . كان متأثرا وملتهبا بالرغبة . وبدات يداها تستعيدان ذلك الجسد الذي عرفته قديما . مكملا اياها ...

وشيئا فشيئا تحول النحيب الى شيء آخر ...

* * *

ما زالا مستلقيان . انه يدخن ، وهي تاكل الشوكولا ، يده المتحررة ترقد على بطنها .

ــ لقــد حطمونا .
ــ اجــل .
ــ كسرونا .
ــ اجــل .
ــ قطعونا شقفتين .
ــ اجــل .
ــ هل انت مصممة ؟
ــ انني كذلك .
ــ وانا لا اعرف ، لا اعرف .
ــ لماذا ؟
ــ لا اريد الاساءة للاورا . لكنني لا اريد كذلك تحطيم ذاتي .
ــ انك محطم ، انا محطمة . لا بد لنا من فهم ذلك . اوسكار ولاورا محطمان كذلك . .

لن نكون لهما بشكل كامل ابدا . واذا اجتمعنا انا وانت مرة اخرى ، لن يستطيعا العيش لانهما اضعف منا انا وانت . وفي تلك الحال لن يكون بمقدورنا التمتع بوجودنا . اليست هذه هي المسالة ؟

ام انني اجهلك ؟

ــ انك تعرفينني جيدا .

عبطت يده لمسافة قصيرة وتوقفت ، دافئة .

ــ سيكون صعبا . اليس كذلك ؟
ــ وبخاصة بدءا من اليوم .

وغطت يدها يده .
ــ قطعونا شقفتين .

قالت :
ــ بل اكثر . قطعونا شقفا عديدة صغيرة .

قل لهم ألا يقتلوني
خوان رولفو - المكسيك

ـ قل لهم ألا يقتلوني ، يا خوستينو هيا ، اذهب وقل لهم هذا ، من قبيل الرحمة ،هكذا قل لهم . قل لهم الا يفعلوا ذلك رحمة بي .

ـ لا استطيع ، ثمة رقيب هناك لا يود سماع اي شيء عنك .

ـ اجعله يسمع . استعمل حيلك وقل له انني اكتفيت فزعا . قل له الا يفعل ذلك محبة بالاله .

ـ ليست قضية مخاوف . يبدو وكأنهم ينوون قتلك فعلا . وانا لا اريد العودة اليهم .

ـ اذهب مرة اخرى . مرة اخرى فحسب ، وانظر ما تحصل عليه .

ـ لا ، لا ارغب بالذهاب ، فانا ابنك واذا مضيت اليهم كثيرا سينتهون الى معرفة من اكون وسيراودهم فكرة اعدامي انا ايضا . من الافضل ترك الامور على حالها .

ـ اذهب ، خوستينو قل لهم ان يرأفوا بي . قل لهم هذا لا غير .

ضغط خوستينو على اسنانه وطوح رأسه قائلا :

ـ لا

وظل يهز رأسه طويلا .

ـ قل للرقيب ان يسمح لك بمقابلة العقيد . واحك له مدى شيخوختي ، تفاهة قيمتي . ماذا سيجني من قتلي ؟ لا مربح في ذلك . لا بد ان يكون عنده قلب آخر الأمر . قل له أن يفعل ذلك لينقذ روحا .

نهض خوستينو عن كومة الحجارة التي كان قاعدا عليها وسار حتى باب الحوش ، ثم استدار ليقول :

ــ انا ذاهب . اذن ، وماذا لو اعدموني انا ايضا ؟ من سيعنى بزوجتي وبالابناء ؟

ــ العناية الالهية يا خوستينو ، هي ستعنى بهم . اهتم بمضيك الى هناك ولنر ما تفعله من اجلي . هذا هو الملح الآن .

✲ ✲ ✲

جاؤوا به عند الفجر . وقد انقضى الآن بعض من الصباح وهو ما زال هناك ، مقيدا الى السقالة ، منتظرا . ما كان يستطيع البقاء هادئا . كان قد حاول النوم للحظة ، علّه يهدأ ، لكن الوسن هجره . وانتفى الجوع ايضا . ما كان يرغب بشيء . ان يحيا فحسب . فالآن ، بعد ان ادرك جيدا انهم سيقتلونه ، غمرته رغبة هائلة في الحياة ، كتلك التي تعتري المبعوث لتوه . من كان يعتقد ان تلك القضية القديمة ، الزنخة ، التي حسبها مطمورة : قضية اليوم الذي اضطر فيه الى قتل دون لوبي .. ولم يفعل ذلك لمجرد الفعل ، كما شاء اهل « اليما » تفسير الامر ، بل لانه كانت لديه اسباب ، وهو يتذكر :

دون لوبي تيريروس ، صاحب « الباب الحجري » ورفيقه ــ لاضافة المعلومات ــ اضطر هو ، خوفينسيونالا ، الى قتله لذلك السبب ، لانه صاحب « الباب الحجري » ولانه ــ وهو رفيقه ــ بخل عليه بالعلف من اجل ماشيته . تحمل الامر في البدء ، من قبيل الالتزام . اما فيما بعد ، عندما حل الجفاف وشاهد كيف تموت حيواناته جوعا الواحد تلو الاخر بينما استمر دون لوبي برفضه ولم يعطه علفا لتطعيمه ، عندئذ ، قام بنزع السور وادخل حيواناته الهزيلة الى المرعى كي تسأم من الاكل ، لسم

يرق ذلك لدون لوبي الذي أمر باقامة السور ثانية فقام خوفينسيو نافا بفتح ثغرة ثانية . وهكذا ، تسد الثغرة في النهار وتفتح اخرى في الليل بينما تنتظر الماشية ملتصقة بالسور ، تلك الماشية التي كانت تحيا من رائحة العشب دون أن تصل اليها .

وكان ، هو ودون لوبي ، يتناقشان ويتنازعان ثم يعاودان ذلك دون ان يتوصلا الى اتفاق ، حتى كان يوم قال فيه دون لوبي :

ــ انظر يا خوفينسيو ، سأقتل كل حيوان تدخله الى المرعى .

فاجاب هـو :

ــ انظر يا دون لوبي ، ليس ذنبي ان كانت الحيوانات تبحث عمـا يريحها فهي بريئة . تحمل المسؤولية ان انت قتلتها .

« وقتل عجلا »

حدث هذا منذ خمس وثلاثين سنة ، في آذار ، ففي نيسان كنت فارا في الجبال ولم تجدني البقرات العشر التي وهبتها للقاضي نفعا ، ولا حجز داري من اجل دفع بدل خروجي من السجن فحتى بعد هذا استولوا على ما تبقى مقابل الكف عن ملاحقتي ، لكنهم ظلوا يلاحقونني . ولهـذا السبب جئت لاعيش مع ابني في هذه الارض الصغيرة التي املكها والتـي تدعى « بالودي فينادو » . وكبر ولدي ، وتزوج من ايغناسيا ورزق بثمانية ابناء . ومن هنا ان القضية قديمة ولا بد ان النيسان قد طواها ، ولكن ، ليس الامر كذلك على ما يبدو .

« كنت قد حسبت آنذاك ان مئة بيسوس ستصلح من الامـر ، فالمرحوم دون لوبي كان وحيدا مع امرأته ، وولديه يحبوان . ماتت الارملة سريعا بعده ، ويقال انها ماتت من الحزن ، واخذوا الطفلين بعيدا ، عند أقارب لهما ،وهكذا فليس ثمة ما يخيف من جهتهما .

لكن الآخرين تمسكوا بكوني ملاحقا ومحكوما وذلك بهدف اخافتي وسرقتي ، فكلما وصل احدهم البلدة يخبرونني :

ــ ثمة غرباء في البلدة يا خوفينسيو .

« فاهرب الى الجبل واتغلغل بين الاحراش . كنت اقضي ايامي قاضما الاعشاب لا غير . وكنت اضطر احيانا الى الهروب في منتصف الليل ، كمن تلاحقه الكلاب . وقد دام هذا كل العمر . لم يحدث لسنة او لسنتين . دام كل العمر » .

وها هم الآن قد اتوا من اجله ، في زمن ما عاد ينتظر فيه قدوم احد ، مطمئنا للنسيان الذي ارتاح الناس اليه ، وظانا ان ايامه الاخيرة ، على الاقل ، ستمضي هادئة . « هذا ـ كان يفكر ـ ما سأجنيه في شيخوختي .

سيتركونني بسلام » .

كان قد استسلم بكل كيانه لهذا الامل . ولهذا يصعب عليه تصور ميتة هذه ، فجأة ، بعد هذا العمر ، بعد كل عراكه تهربا من الموت ، بعد أن امضى ايامه متنقلا من مكان الى آخر يجره الرعب ، حتى صار جسده جلدا لا اكثر ، مطواعا، مدبوغا بفعل الايام الصعبة التي اختبأ فيها من الجميع . ثم ، الم يدع امرأته ترحل عنه ؟ عندما افاق ذلك اليوم وعلم ان زوجته قد هجرته ، لم تراوده فكرة الخروج للبحث عنها ، تركها ترحل دون ان يستفسر مع من مضت والى اين ، وذلك تجنبا للنزول الى البلدة . تركها ترحل كما رحلت كل الاشياء الاخرى ، دون ان يتدخل في الامر . الشيء الوحيد الباقي والذي يتوجب الحفاظ عليه هو الحياة ، وسيحافظ عليها كيفما كان . ما كان بمقدوره ان يدعهم يقتلونه . ما استطاع ذلك ، وبخاصة الآن .

لكنهم جاؤوا به من « بالودي فينادو » لهذه الغاية . ما اضطروا الى ربطه كي يتبعهم ،لقد سار وحده ، مقيدا بالخوف ، افهموه انه لن يتمكن من الركض بجلده العجوز ذاك ، بساقيه الناحلتين اليابستين وقد شنجهما القهر من الموت . لانه ماض اليه ، الى الموت . هذا ما قالوه لـه .

فادرك وتذاك الامر ، وبدأ يشعر بذلك العض في المعدة الذي راوده دوما لدى دنوه من الموت ، والذي يفلت الاضطراب من عينيه ويورم فمه بذلك اللعاب الحامض الذي يضطر الى بلعه دونما اية رغبة ، وذلك الشيء الذي يثقل قدميه بينما يلين الراس ويتخبط القلب بكل قواه بين عظام صدره . لا ، ليس بمقدوره الاعتياد على فكرة انهم سيقتلونه . لا بد من وجود امل ما ، لا بد من وجـوده في مكان ما . لعلهم اخطأوا ، لعلهم يبحثون عن خوفينسيونافا آخر وليس عنه .

سار بين اولئك الرجال صامتا ، مسدل الذراعين ، كان النزع الاخير من الليل مظلما ، بلا نجوم ، والريح تعصف ببطء ، تأخذ في طريقها التراب الجاف وتأتي بغيره ، وتتضمخ منها رائحة تشبه رائحة البول التي يحملها غبار الطرقات .

عيناه ، اللتان ضاقتا بفعل السنين ، ترمقان التراب ، هنا ، تحت قدميه ، وعلى الرغم من العتمة .

في هذه الارض كل حياته . عاش فوقها ستين عاما ، امسك بها بيديه ، وذاقهما كما يذاق طعم اللحم . سار طويلا وهو يفتتها بعينيه ، يستسيغ كل قطعة منها وكأنها الاخيرة ، مدركا انها ستكون الاخيرة .

كان ينظر الى الرجال السائرين بجانبه وكأنه ينوي قول شيء ما . اراد ان يطلب اطلاق سراحه ، ان يدعوه يمضي : «ما آذيت احدا يا شباب» هذا ما اراد ان يقوله لهم ، لكنه ظل صامتا ، وفكر : « سأقولها فيما بعد»

كان يرمقهم لا غير . وكان بامكانه ان يتصورهم اصدقاء له ، لكنه لم يشأ ذلك ، فهم ليسوا كذلك ، وهو يجهل من هم . كان يراهم بجانبه يتمايلون وينحنون بين الفينة والاخرى لمعرفة الاتجاه الذي تسلكه الطريق .

رآهم لاول مرة وقت الاصيل ، في تلك الساعة التي تفتقد صبغتها فيبدو كل شيء محروقا . كانوا قد اجتازوا السور واطئين نباتات الذرة الطرية . وكان قد نزل اليهم ليقول لهم : ان الذرة تنبت في تلك الارض ، لكنهم لم يتوقفوا . لقد ابصرهم في وقت مبكر ، فقد حالفه الحظ دوما ورأى الاشياء بشكل مبكر . كان يستطيع الاختباء ، والتسكع لساعات في الجبل ريثما يرحلون ثم يعود ويهبط . فالذرة لن تنجح على كل حال لانها بحاجة الى الري والماء الذي لم يأت تبدأت بالذبول . لن يستغرق جفافها وقتا طويلا .

وهكذا فلم يكن ثمة داع للنزول اليهم . فزج نفسه بين هؤلاء الرجال كمن يدخل في جب لا خروج منه .

والآن ، وهو ماض الى جانبهم ، كابتا توسله لاطلاق سراحه ، لا يرى وجوههم ، بل كتلتهم في التصاقهم وابتعادهم عنه . لذا ما عرف اذا كانوا قد سمعوه عندما تكلم قائلا :

ــ ما آذيت احدا ابدا .

هذا ما قاله ، لكن شيئا لم يتغير . بدا وكأن احدا لم يفطن لذلك . لم تلتفت الوجوه صوبه ، واستمروا على حالهم وكأنهم يسيرون نياما .

فكر لحظتها انه ليس ثمة ما يقال ، وان عليه ان يبحث عن الامل في مكان آخر .

ارخى ذراعيه مرة اخرى وعبر اولى بيوت القريـة محاطا بأولئك الرجال الاربعة المعتمين بلون الليل الاسود .

★ ★ ★

ــ سيدي العقيد ، ها هو الرجل .

كانوا قد توقفوا امام عتبة الباب . وقد امسك هو قبعته بيده علامة احترام ، وانتظر خروج شخص ما . .

فلم يخرج سوى الصوت :

ــ أي رجل ؟ ــ سالوا .

ــ من « بالودي فيناديو » سيدي العقيد ، الذي امرتنا باحضاره .

فعاد الصوت يقول من الداخل :

ــ اساله ما اذا سبق له ان عاش في اليما .

ــ هيه ، انت ، هل عشت في اليما ؟ ــ كرر الرقيب الواقف امامه السؤال .

ــ اجل ، قل للعقيد انني من تلك القرية ، وانني عشت فيها الى فترة قريبة .

ــ اسأله ما اذا كان يعرف غواد الوبي تيربروس .

ــ يقول ما اذا كنت تعرف غواد الوبي تيربروس .

ــ دون لوبي ؟ اجل . قل له انني كنت اعرفه ، وانه مات .

طرأ وقتئذ تبدل على الصوت الآتي من الداخل وهو يقول :

ــ اعرف انه مات .

وظل يتكلم وكأنه يحادث احدهم ، هناك ، الى الجانب الآخر من جدار الطوب :

ــ كان غوادالوبي تيريروس والدي ، وعندما كبرت وبحثت عنه قيل لي انه ميت . من الصعوبة بمكان ان تنمو عارفا ان الشخص الذي يمكنك التشبث به لاطلاق الجذور هو ميت . وهذا ما حدث لنا . . . ثم عرفت انه قتل طعنا ، وانهم غرسوا في معدته سيخا . حكوا لي انه بقي مفقودا طوال يومين ، وانه كان ما يزال يحتضر عندما وجدوه مرميا عند جدول ماء ، وانه طلب ان يرعوا عائلته . . . .

يبدو هذا وكأن النسيان يحيط به مع الزمن ، يحاول المرء نسيانه ، ولكن ، ما لا ينسى هو معرفة ان الفاعل ما زال حيا ، يغذي روحه العفنة بوهم الحياة الخالدة ، لا استطيع غفران هذا ، على الرغم من انني لا اعرف ذلك الشخص ، لكن وجوده حيث أعرف يشجعني للقضاء عليه، لا يمكنني السماح له بالحياة . ما كان عليه ان يلد أبدا .

ومن هنا ، من الخارج ، سمع جيدا وبجلاء كل ما قاله الصوت الذي امر :

ــ خذوه واوثقوه برهة ، ليتعذب ، ثم اطلقوا عليه النار .

قال هــو :

ــ انظروا الي ايها العقيد ، لم اعد أنفع لشيء . سأموت وحدي قريبا منهارا من العجز ، لا تقتلني .

ــ خذوه . . . عاد يقول الصوت من الداخل .

ــ . . . . لقد دفعت أيها العقيد . دفعت مرات كثيرة . سلبوني كل شيء . عذبوني بأشكال عديدة قضيت أربعين عاما مختبئا كالمصاب

بالطاعون . لا تفارقني مخاوف الموت ولا للحظة واحدة ، لا استحق الموت على هذه الصورة ايها العقيد ... دع الاله يغفر لي : على الاقل ، لا تقتلني قل لهم الا يقتلوني .

كان واقفا كمن تعرض لتوه الى الضرب وقد خبط قبعته على الارض ، صارخـا .

قال الصوت من الداخل :

ــ اربطوه وقدموا له شيئا يشربه حتى يسكر كيلا تؤلمه الطلقات .

* * *

وقد هدا الآن اخيرا ، كان متكوما عند اسفل السقالة . لقد جاء ابنه خوستينو الذي كان قد ذهب وآب ... وها هو يعود مرة اخرى .

رماه فوق الحمار وربطه جيدا على السرج كيلا يقع في الطريق ، وادخل راسه في جعبة كيـلا يترك انطباعات كريهـة ثم هش بالحمار وانطلقا ، عجولين ، ليصلا « بالودي فينادو » باكرا لترتيب مأتم المرحوم .

ــ زوجتي واحفادك سيشتاقون اليك ــ كان يقول له ــ سينظرون الى وجهك وسيظنون انك لست انت .

سيتخيلون ان الذئاب قد اكلتك ما ان يروا وجهك هذا المليء بالثقوب من كثرة طلقات الرحمة التي اهالوها عليك .

ليست الأمور على مايرام ياكارميلوروسا (*)

ريبيرو - البيرو

ليست الامور على مايرام ياروسا عندما صعدت اليوم الى المكتب وخلعت قبعتك البيريه بدون همة ومعطفك بكثير من الاسى وتلفيعتك كما لو انها كفنك الخاص وبين ضجيج آلات التلتايب القيث نظرة عديمة الحماس الى الاوراق التي تنتظر الترجمة وعي دوما الاوراق ذاتها اوراق بورصة اسعار الوول ستريت سوق القهوة وامور اخرى تصنع ثراء او بؤس الكثيرين الذين انت كاتبهم المجهول انت ياروسا منذ سنوات كثيرة يا روسا يا من تصعد الآن ككل يوم من الطابق الاول بين ضجيج آلات التلتايب بعد محادثة بين السابعة والثامنة صباحا مع صديقك المعلم الحبر الاعظم بودا غوربو « سولانو » الذي يصلح من وضع نظارتيه ساعلا مستشيرا قصاصات رسائل اغراق بين ضجيج آلات التلتايب يعلمك بما يحدث في بلدك قائلا لك هذه المرة بالتأكيد متشائما مظلوما انه ليس ثمة اضراب في « استورياس » ولاكاتالونيين « فيرسوس » شرطة ولا باسكيين خاطفي الدمى والاتقارير تعلن مرض السيد وليذا بين ضجيج آلات التلتايب صعدت مطرق الراس ناحلا ميت النظرة عالما انك سترقد هذه الليلة دون ان تشع في روحك حتى ولا اصغر الانوار ولا أمل ولا وهم والالهيب مخلص في هذه الليلة التي تحل كغيرها كثيرا في هذا البيت الضيق المليء بالمجلات وبالصور ستنام بشكل سيء ياروسا صلعتك مضطجعة على المخدة بالذكريات سعالك مع الكافور كنت شابا منذ

(*) تقصد الكاتب في هذه القصة الاستغناء عن الفواصل والنقاط .

(**) انظر الاستفناء .

اربعين سنة واطلقت رصاصة ما في كاتالونيا صرخت الموت للدكتاتورية جعلت امراة ربما لم تكن جميلة تحبك وعرضت نفسك للمخاطر دون ان تجهد هي نفسها لتصل اليك فهي مشغولة بمسائل اعظم انت يا روسا بين ضجيج آلات التلتايب ترمق الورقة الاكثر تلوثا واستعمالا خطها القذر لتشرع في كتابة الحركة كانت اليوم خافتة بين عملاء البورصةولكن يلحظ توجه بسيط نحو الارتفاع وبين ضجيج آلات التلتايب انت المسؤول في المنظمة المنفية محكمة الاغلاق كروية وزير بلا حقيبة ولا كيس للنقود شبح مكتب ينتزع سرا منذ عرفتك بين ضجيج آلات التلتايب من ارشيف برقيات اليوم كل ما قد يهمك تظاهرات محاكمات سرقات واحدا في كل نشاط طلابي سقوط نظام متوهما حتى يهذيان رجال الدين روسا مؤمنا ان بين يوم وآخر سيعود كل شيء ليس الى ما كان وانما الى ما كان يمكن ان يكون وستعود شابا مرة اخرى دون ان تكف ان لاشيء يعود الى الماضي ان كل شيء يتحول ويتعقد اكثر فاكثر ان ليس ثمة مشروع لايحطمه الواقع روسا لم التفكير في هذه الامور تابع الكتابة كما اراك على الورقة ذات النسختين اسعار النحاس تعرضت للهبوط لكن الحديد شهد ارتفاعا طفيفا بينما تسمع عن يمينك وعن يسارك احاديث حول اشياء لاتفهمها حياتك ركدت منذ اربعين عاما ما زال جزء منك يتجول في « رامبلا » ميتة في منظر لم يعد له وجود لكنك تعيش في مدينة لا تعرف منها سوى نفق المترو وثلاث شوارع تجتازها دون ان تراها مدينة تغيرت بدورها بين ضجيج آلات التلتايب ارتفاع القهوة لكن الكاكاو استمر ضعيفا اه لو تستطيع تغيير الخبر وتقول العكس تدنت القهوة لكن الكاكاو سجل ارتفاعا لاختلفت الحياة حتى بالنسبة اليك ايها اللص الصغير المخفق سيء الحظ الحالم العاجز بين الارقام الكبيرة التي تربط وتحل رفيا لمهنتك مسجل ارقام في البورصة بطل المالية المجهول بينما انت تتابع الحلم يا روسا بين ضجيج آلات التلتايب تغزل وتطوح براسك واضراب

في مدريد يسقط النظام الاشياء تتبدل يمكن تبين احتمالات « مسولانو »
يريك بابلويا سقراطيا محمديا ضرورة الاستمرارفي الانتظار بدلوا هذا الوزير
صدر مقال ليبرالي في منشور ما لاقى يهوى كل شيء وستعود يوما ما
بين ضجيج آلات التلتايب الى بيتك البرشلوني لتتحدث مع البواب
صاحب الحان حديثا عن الزمن الحاضر وعن الزمن الماضي وقبعة البيريه
فوق شعرك الممتد الممشط جيدا بالاصلع الكافور باجمجمة لم تماقب
تركت دماغك في ضيعتك روحك في خرقة قذرة احرقيا جندي ما افكار
شنيعة سافلة تجول حقلا قاحلا روحك وتتابع عكذا انتظار سوق السكر
الذي مازال نشطا وحصل اللاعبون بالبورصة على ارباح معتدلة روسا
السرير البارد المراة الحادة المتقشعة والت منتظرا تلفيمتك على الطبقة
والرجل الذي يراك تشتري « لاقانقوارديا » منذ عشر سنوات سائرا
تحت المطر غرناطة فالبان جريحان وشرطي اسبب برشرش قلق في
مصانع سيارات سيان يحدث شيء ما لحظة مشمود الدرج والاوراق
مكدسة هناك من اجل الترجمة بورصة باريس روسا الحياة تهرب من
بين اصابعك المترو ليس صديقك هو جلادك الفرنسية لغة ميتة ومقتولة
من قبلك تتحدث اللاتينية بين البرابرة وهكذا ستموت يوما لن تستيقظ
لن تصل الى الوكالة ستبقى الاوراق في سلتها وسيقال ان حلما شديد
العنف قد اخترقك باروسا المنفي الزوج لم يمت السيد مراجعة البورصة
اكثر اهمية من الرجال بامكان رقم ان يقتل الخس الذي هو خاصتنا
انها رُوث قذر لن تستيقظ كل شيء على هذه الشاكلة باروسا لاداعي
للتمسك بالوهم بين ضجيج آلات التلتايب كل شيء يفيد يعلم من يجيد
الاستماع لا مواساة للمعذبين الموت مستع بلا نجدة بلا سلام بلا وطن بلا
مجد بلا ذكرى .

١٩٧١

المخابرة

سكارميتا ـ تشيلي

وصل الصوت الى اسماعه عندما حاذى نهاية سور الثانوية . وعلى الرغم من انه لم يستطع التكهن بمن ناداه منهما ، الا انه ادرك على الفور انهما شرطيان .

وبينما كانا يقتربان منه تلمس برسغ يده اليمنى جيب السجائر ، واحصى بشكل تقريبي الكمية التي استهلكها منذ الصباح .

اضطر الى نقل الحقيبة والمعطف الواقي من المطر الى اليد الاخرى ليرد المصافحة ، وقيام الشاب بمصافحته بحرارة تجاوزت لباقة المهنة لم يجعل الاستاذ يشك في توقعاته . وتمنى في اللحظة التي كان فيها الشاب الاجرد يتفحصه بدقة ، لو رأى طلابه في الحشد الخارج من باب المدرسة . لكن الفضول الذي راوده بهذا الشكل دفعه الى التفكير باحتمال الخطأ في توقعاته ، فما ان حرر الشاب يده حتى استلمها الاخر ، الحليق والذي كان يزين ياقته بشريط شبيه بالذي يحيط بالقبعات .

ـ الرقيب لوبيث ـ صرح اصغرهما سنا وهو يحملق في عينيه وكأنه يؤكد بان حفلة الابتسامات والمصافحة انما هي رمز ، ولاريب ان الاستاذ اصاب في حدسه . فقال المدرس وقتئذ :

ـ ايها السادة ، سبق وكنت موقوفا لمدة شهر ، وقد اطلق سراحي لانعدام الادلة .

ـ اجل يااستاذ ، بالطبع ـ قال الشاب الاجرد محركا يديه بلا مبالاة ومضيفا ابتسامة ربطها بايماءة من فكه الاسفل وحاول ان تكون

موحية بالتفهم . وخلال الصمت الذي تلا عبارته حافظ على ابتسامته، مرهفة كمطواة ، بينما صلب رقيب الشرطة ذراعيه ووجه بصره باتجاه حركة السير في شارع « الاميدا » .

ــ الا تذكرني يالاستاذ ؟

عاقدا حاجبيه . حاول الاستاذ اصطياد شيء ما مألوف في ذلــــك الوجه الممسوح ، اصطنع التفكير وهو يتلمس جيب السترة بحثا عــن النظارات ، فوجه بيمناه صوب القلب ناويا اخراجها ، لكن الحركة بدت مهددة فلم يستطع الرقيب ملاحظتها دون انتباه متوجس . فقال المدرس:

ــ النظارات .

كانت تزعجه الحقيبة الجلدية والمطف تاضطر الى الانحناء كالمريض ليضع نظارتيه فوق انفه ، ثم عاد ليتوقف في فراغ سحنة محدثة .

ــ هيا ، يالاستاذ ــ بادره هذا مشجعا بايماءة جد ايطالية ـ لاتحرجني. فضغط الاستاذ منخريه بامعان :

ــ طالب ، اليس كذلك ؟

فالتقى الشاب بصره منشرحا باتجاه الرقيب واشار بالايجاب بينما عيناه مازالتا تستحثان المدرس .

ــ اقدر ، بالاعتماد على العمر ، انك من السنوات الخمس المنصرمة.

ــ بالضبط ، تخرجت في السبعين .

ــ السبعين ــ كرر المدرس التاريخ مرتبكا من النية التي انطوت عليها لهجة العبارة التي نطقها الشاب .

خداه يلتهبان ، لاشك ان وجهه محمر وكانه جرع نبيذا محرقا . وسمع نفسه يقول بتهافت :

ــ حدثت امور كثيرة . امور كثيرة ، ثم ان المرء يشيخ والذاكرة . . . .

ــ فوينيتس ــ قاطعه الاخر لحظة ــ ميغيل فوينيتس ، رقم ١٧ .

فهمس المدرس :

ــ بالطبع . فوينيتس ، فوينيتس .

ــ تعين عليّ في الامتحان تحليل قصيدة لـ « نيكانوربارا » وكنت تقول دوما انني اشبه شخصية تلك القصيدة .

بالشعر الاستاذ . . .

ــ آه . اجل ، اجل . . . وكيف لا ؟

ــ وكنت في الصف الذي اهداك اعمال « نيرودا » الكاملة في نهاية العام الدراسي . كانت مغلفة بالجلد والورق انجيلي رقيق .

ــ اذكر ذلك . اذكره بالطبع .

ــ وكان شيئا جميلا لاننا جميعا وقعنا على الصفحة الاولى . اتذكر هذا ؟

ــ وكيف لا يافوينيتس ؟ كيف لا

هز الرقيب راسه موافقا ، وكانه يشهد بصحة ذكريات المدرس . لكنه ، في الوقت نفسه ، كان لاهيا ، وربما راغبا في ركوب باص ينقله الى ملعب سباق الخيل او الى استاد « سانتا لاورا » .

احس المدرس كاحليه‌لزجين ، كثيفين ، وكانه يغرق في اسفلت عسلي . وعند حلول الصمت الثاني كاد يقدم يمناه مرتين اشارة لضيق الوقت ولينهي اللقاء ، لكن تبادل النظرات بين الرقيب والشاب الاجرد ــ

شبيهة بنعرات المرفق ، اشارة غيربينة ـ منحته في المرتين ، وقد غدت اللباقة في منتهاها اكثر ايحاء بالتوقعات ، عمياء وغير محددة .

فبادر المدرس قائلا :

ـ حسنا

ـ وماث « نيرودا » ـ قال فوينتيس وهو يطيل اللفظ ، لاويا رقبته ، ثم اكمل :

ـ من كان يتوقع ذلك ؟ شاعر مجيد للغاية . اليس كذلك ايها السيد ؟

ـ مجيد للغاية ، اجل ، مجيد للغاية .

وحائز على جائزة نوبل كذلك .

لاحظ المدرس العجوز انذارا في زاوية فم الشاب ففكر « دخنت خمس سجائر في الفصل وواحدة في الباحة باقي اربعة عشر ، اربعة عشر لاغير » واستبق تقنية الهجوم : انهم سيضعفون من الدفاع في البداية ، ثم يجسون فيجرحون ، يجرحون ، فتأتي النهاية « ثلاثة عشر » فكر عندما رفع الرقيب يده ليشعلها ، ـ لقد سبق لي ان اوقفت . ـ زفر المدرس لافظا الدخان ـ واجروا معي تحقيقا ، لم يجدوا ادلة يافوينتيس .

ـ اجل ، انني اعرف ذلك يالاستاذ . وكيف لااعرفك وقد كنت مدرسي لسنة كاملة كان قد وضع يده اليمنى على قلبه علامة الصدق ، وتعبيرا جديدا ، متكلفا ، في ذقنه .

ـ انه امر روتيني بحت . وليس هناك ما يدعو الى القلق . انني اقوم مع الرقيب بجولات هنا وهناك بين الفينة والاخرى ، وليس ثمة مشاكل معك ايها الاستاذ . اليس كذلك ايها الرقيب ؟

ـ لامشاكل

قدم الشاب الاجرد يده وهو يلقي نظرة صادقة ـ باسلوب نظرة صادقة ـ وعندما ضغطت كفه باطن يد المدرس العجوز وضع فوقهما يده اليسرى باخوة ـ باسلوب اخوي ـ اما الرقيب فلم يقل سوى : « فرصة سعيدة » . نقل المدرس حقيبة الواجبات المدرسية الى ابطه الايمن وهو يعبر الشارع ، راح يجفف عرق اليدين عاصرا المعطف الواقي من المطر .

في مقهى « انديانا بوليس » ضغط الفيشة اللدائنية الصفراء قبل ان يبدلها بفنجان قهوة . حركها شاردا داخل قبضته وكأنها نرد . ناول عاملة الصندوق على الفور قطعة نقدية وتحشرج صوته عندما طلب فيشة للهاتف . ادخلها قبضته الى جانب قطعة القهوة ، وبحث عن مكان خال بالقرب من جهاز الهاتف ، علق معطفه هناك واسند الحقيبة .

قبل ان يقرر تذوق القهوة ، حرك طويلا الملعقة في الفنجان دون ان يضع فيه السكر ، ولدى اقتراب الفنجان من فمه غبش البخار زجاج نظارتيه ، فجرع الرشفة الاولى مطبقا جفنيه بشدة . ومالبث ان اخرج منديله ليمسحها ادار جسده قليلا نحو اليمين فرأى الرجل البدين جالسا على بعد متر واحد منه وهو يرمق صفحة سباق الخيول في « الاخبارالاخيرة »

انتهى من مسح الزجاجتين ثم رفعهما باتجاه نور الشمس الـذي يتخلل ستائر تبغية اللون باهتة واكمل مسح احدى الزجاجتين مزيلا ذرة غبار كانت عالقة بالقرب من الاطار .

عندها ، افرغ جرعة واحدة ما تبقى من القهوة ، ولانـه شعر بثقة مطلقة في فراسته ، اخذ المعطف والحقيبة ولم يستخدم الهاتف .

انشودة شجرة الحور كارولينا

كونـتي - الأرجنتين

« ياشجرة الخوخ عند بابي اذا لم أعد يوما
فالربيع آت ، دوما .. فازهري ،
انت . »

« شاعر ياباني مجهول »

يظن المرء ان ايام الشجرة متشابهة . وبخاصة في حال الشجرة العجوز . لا ؛ ان يوما من حياة شجرة هو يوم من حياة الكون .

ولدت شجرة الحور هذه هنا بالضبط . وعلى الرغم من ان الحور يتسلل فقد ولدت هذه وحدها . اطلت يوما بين الحشائش القاسية التي كانت تغطيها ، وكانت عشبة اخرى ، معرضة للرياح ، للشمس وللحشرات . وظنت الشجرة انها لن تكون غير ماهي عليه حتى فطنت الى انها تجاوزت الاعشاب . وعندما اشتدت حرارة الشمس وغدا التراب دافئا انتفخت احشاء الشجيرة واستقامت منجذبة بقوة الى اعلى ، نحو السماء ، حتى انها احست في داخلها شيئا كالطريق على الرغم من انها ماكانت تدري ماهي الطرق . فما عرفت ذلك سوى في العام التالي عندما اصبحت الاعشاب بعيدة تحتها واكتشفت خلف الاعشاب اسلاكا معدنية . وشاهدت الطريق وراء الاسلاك ، والطريق عبارة عن شجرة مستلقاة على الارض ذات غصن هنا وهناك ، كل اغصانها يابسة في الشتاء لكن رؤوسها تزهر في الصيف . فكلها تنتهي بمجموعة اشجار حقيقية ، ويسير البشر على تلك الطرقات بينما تدفع الرياح المجنونة سحب الغبار .

وكانت قد ادركت قبلئذ ماهو الغصن ، لانها شعرت جسمها يتسع هنا وهناك بعد أمطار آب ، واحست ان بعضا منها بقي هناك ، لم يتابع النهوض ، مال الى جانب ونما محاذيا الارض بالضبط انها الان شجرة عجوز ، فقد مضى عليها اثنا عشر صيفا . هذا ، مالم تخطيء الحساب . وهي تنمو الان ببطء اشد بل انها تكاد لاتنمو . انها تطلق اوراقها في الربيع في المكان ذاته الذي شغلته في الصيف الماضي ، وتبزغ في اعلاها براعم ذات خضرة اكثر لمعانا تبدو لحظة الغروب وكأنها تلتهب في داخلها . لكنها ، شجرة الحور ، لم تعد تبغي اكثر من هذا النور الصيفي العذب الذي يكسوها كوشاح . وهاهي ، شجرة الحور العجوز ، غارقة في ذلك الضوء ، مليئة بالذكريات .

فبشكل او بآخر كذا كانت منذ اثني عشر صيفا . عندما بزغت من التراب ، ولم تكن عملية النمو اكثر من التفكر في حالها . الفرق الان انها تذكر كل ذلك ، وتفكر بدايتها الى الوراء ولاتلد من ذلك شجرة اخرى . هنا تكمن الشيخوخة ، ايتها الذاكرة الخضراء .

الوقت الان بداية صيف ، وقد ارتدت كل اوراقها مرة اخرى ، اوراق تطلق لونها الاخضر الشديد . (كل واحدة منها كشجيرة) . وعند الاصيل ، عندما تميل الشمس الى الغروب وتدخل بين الاغصان تشتعل شجرة الحور العجوز كقنديل اخضر ، عندئذ تأتي العصافير وتنقض ضاجة بين الاوراق باحثة عن مكان للمبيت ، وهي اللحظة التي تنهال فيها الذكريات على شجرة الحور كارولينا . تذكر الليل ، العصافير والصيف . تتذكر ، مثلا ، فيما يتعلق بالعصافير ، اول من توقف منها على الغصن الاول ، ذلك الذي مابرح في الاسفل والذي كان وقتذاك في القمة ، وهو يكاد لايحمل الان اوراقا وقد ثخن كشجرة صغيرة .

كان ذلك الغصن في تلك الازمنة اكثر اغصانها حياة . وشعر يومها بملاسة العصفور لبشرته وبارتعاشة كتلة الريش الصغيرة . ارتاح العصفور برهة ثم انطلق بعيدا .

وبعد صيفين من هذا ، عندما بانت له اول دار يقطنها الانسان . وخلفها يبرق خطان من السكك الحديدية . جاء عصفور وبنى لنفسه عشا على الغصن الاخير . قطع العصفور اعشابا طرية ثم جدلها ليحولها الى مسكن . وهكذا ادركت الشجرة ماهي الدار ، وصارت تعرف اية حياة تسكن البيوت ، تماما كما سبق لها ان عرفت الطريق وحياتها . تلك الشجرة المريضة المزهرة بالاحلام .

ينوس العشب عند طرف الغصن فتتجنب الشجرة الاهتزاز كثيرا على الرغم من ان رياح الاصيل المجنونة تروق لها ، وتبذل كل ما في وسعها من اجل تامين الراحة والدفء لساكنيها فقد اطلقت ، على سبيل المثال كثيرا من الاوراق حول العش . مع نهاية الصيف خرجت الصيصان الوليدة من العش واحست بها تتنقل فوق الغصن بسيقانها النحيلة المرتعدة وتستعد مرارا للطيران حتى القت بنفسها وارتمت على الهواء كوريقة .

تكاد الشجرة في الصيف تكون عصفورا . انها تكسو جسدها بريش تبزه الرياح ... وتعلو ، اذا شاءت من بطن الارض الى اعلى قمتها ، وتقفز من غصن لآخر ، طيرا خشبيا في قفصه الاخضر .

كان ذلك صيف اكتشاف سكة الحديد . والذي قبله صيف اكتشاف الدار ، لكنها مارات الدار كاملة حتى في السنوات التالية . بعدما ارتقت اعلى . انها تشاهد اليوم من اعلى براعمها سقفا من الصفائح المعدنية يشتعل بالشمس ومدخنة بيضاء ترسل عند العصر تاجا من الدخان .

ويحدث احيانا ان تجلب الريح بعض الاصوات ، لكن الشجرة وصلت الى الدار عبر اوراق الخريف المدفوعة بالرياح ، وابصرت بعيونها الصفراء القديمة الانسانين داخل الدار ، ناحلا وقاسيا ، متشقق القشرة ، كقشرة الاغصان الاولى ، والتقت امراة تفوح منها رائحة دخان الخشب ،وطفلين صامتين مشعثي الشعر كزغب فراخ الطيور .

لقد طرقت الشجرة باب الدار الخشبي المشقق بايديها الصفراء القديمة ، وبها داعبت جدران الطوب المكلس ، وركضت الايدي ، العيون والاجنحة الصفراء امام المكنسة المصنوعة من القدرة النينية ، وزحفت كلها الى اعلى ثانية ، في الدخان العابق بوقد يعلن قدوم البرد وزمن اغفاءة الشجرة والارض .

يمر القطار من خلف الدار ، وكان لابد من النمو صيفا اخر والانتظار ريثما تورق مرة اخرى وتعود العصافير حتى تتبين اللمعان الخفي لسكتين تقطعان الارض . كانت قد سمعت الضجة من قبل ، ذلك الضجيج القائم الذي يهز الارض ، وذلك لان الشجرة تنمو تحت الارض كما فوقها . كانت ، تحت الارض ، شجرة رطبة ذات اغصان طويلة ، ندية وصدفية تتغرس في ليل الارض الفاتر ، وكانت تحيا وتحس من خلال ذلك الجزء بشكل رئيسي ، بفضل تلك الجذور يصبح يومها يوما من حياة العالم ، واسعا وعميقا ، لان نبض الارض يرسل اليها كل انواع الاشارات . كانت الارض جسدا نديا ممتلئا بالحياة يتنفس بعذوبة تحت الاوراق والاعشاب وهي تمسك وتحمل كل ماعلى وجهها . وكانت الحورة تتصل بالاشجار الاخرى عبر ذلك القلا مبالرطب ، فالى الشرق ، حيث تولد الشمس ، كان ثمة غابة . وقد رأتها صباح احد الايام بعيونها الخضراء العالية فارتجفت اوراقها ملتمعة .

كانت الغابة اكبر الاشجار ، اكبرها واروعها جميعا . ومع حلول العصر ، عندما تكنس الشمس بميوليا الاعشاب التي تبدو كليب صغير وادع ، التهبت تلك الاشجار بنار عظيمة . فصوبت شجرة الحوار احد اغصانها الارضية بذلك الاتجاه وتلقت جوابا .

لم تكن شجرة اكبر ، وانما غابة ، اي مجموعة من الاشجار .

لماذا ليست شجرة الحور هناك ؟ لماذا ولدت وحيدة ؟ اليست اختصارا لغابة وكل غصن فيها شجرة ؟ فاجابت الغابة على هذه التساؤلات . جاءها الرد من اخواتها : ليلة بعد ليلة ، اجابت الاشجار على هذه الاسئلة وعلى اخرى غيرها بينما كانت الشجرة في وسط تلك العزلة التي ترهقها بالاسئلة وبالعصافير عند الغروب .

ان الاشجار لاتنام ، بل تنعس ، وبخاصة في الشتاء ، عندما تنزلق النجوم العالية على اغصانها محلة كقطرات الندى ، باردة .

في ذلك الوقت تزداد رهافة الاستماع لاصوات واشارات الارض . تخرج حيوانات الليل من اوكارها لتقرض الظلمات . ويحلق طير ارق باتجاه ضوء بيت ما ، كتلةقاتمة تدب على الطريق ، تصفر الصراصير من بين الاعشاب كانها اوتار زجاجية ، ينبح كلب من بعيد ، يتقلب الانسان في سريره ويفكر كم من الارطال ستنتج الارض المزروعةقمحا . وفي هذهاللحظة ، في هداة الليل ، تعمل البذرة تحت الارض ، تشعر الشجرة بها تنبت ، تحس بمجهودها الصغير ، كيف تنتفخ وتنتشر شيئا فشيئا في الطريق ذاتها التي رسمتها امال الانسان الذي عاد الى النوم حالما بمد بحري من السنابل الصفراء .

وكان عبر الارض ان سمعت الشجرة القطار ، في ذلك اليوم الذي سرى فيه الضجيج داخل جذورها . وبعد ذلك بزمن ، بعدما لاحت

لها دار الانسان شاهدت اخيرا ذلك البيت المجنون الضاج الراكض بمدخنة فوق الارض ، فادركت ان اشياء كثيرة تنتقل من مكان لاخر اضافة للعصافير ، فوخزتها آلام الاستقرار ، فقد كانت في اوج شبابها آنذاك ولم تكن قد شاخت بعد . كل ماتقدر عليه هو الارتقاء نحو الاعلى في طريق قصيرة تتجه الى السماء ، والطيران خريفا بشكل اوراق اذا ماهبت عليها رياح .

كان القطار يعبرها احيانا ، فيصل الدخان الى الحورة . وهذا يتعلق بالريح ، فقد علمتها العصافير كيف تستغل الرياح ، فحسبما تهب تهز الشجرة اوراقها كريش اخضر وتصنع تحليقات راجفة . وتجتاز الريح صعودا ونزولا احشاء القفص النباتي محدثة ـ تبعا لتوزع الدغل ـ همسات وصفيرا بروق الشجرة الموسيقية .

انها تتعلم كل هذا مع السنين ، صيفا بعد آخر ، وتغدو هذه المعارف مادة للتذكر شتاء . يقدم الشتاء اليها مع سقوط الورقة الاولى ، مع شعورها بان اقدم الاغصان بدأت تغفو ثم يزحف النعاس نحو الداخل لكنه لم يصل ابدا الى قلب الشجرة . تشعر باقتلاع بسيط ثم تحلق اولى الاوراق فوق الارض . هكذا تكون البداية .

ثم يتساقط الباقي لتعبث الرياح ، تنثرها ، تهرع وتختلط باوراق اشجار اخرى بينما تغفو شجرة الحور كارولينا وتفكر هادئة بذلك الصيف المنير القادم عبر الارض يحبو على اسوار نسغها الفائر . تضفي الامطار قتامة على اغصانها وتلتمع القشرة كما لو انها من اللوز . ينكسر بعضها بفعل الرياح العاصفة فتوقظ الشجرة للحظة ، فهي تشعر بذلك الموت الصغير . لكنها مازالت متماسكة . وتدرك انها ستحيا فصول صيف

اخرى . في شهر ايلول(*) تلتقي الذكرى والحدث في احضان الزمن فتصعد من عتمة الارض حكة تداعب بشرتها وتزيل الخدر من الاغصان فتبرعم شجرة الحور كارولينا مرة اخرى بطفرات خضراء .

صار الهواء فاترا ، والرجل الذي تأمله من قمتها يعبر الحقل ويرمق العشيبات الخضراء التي ظهرت على وجه الارض .

تكون الشجرة في اواسط تشرين الاول قد ارتدت حلة الاوراق الثابتة الخضراء مرة اخرى ، اوراق تبرق مع الشمس اذ تهزها النسمة عند الاصيل . الشمس في هذه الفترة من السنة اكثر ثباتا ، وهي ترمي ظل الشجرة العظيم على الارض . وحدث في هذا الصيف ، بينما كانت الشمس عالية جدا والظل اكثر قتامة ، ان اقترب الرجل اخيرا من الشجرة ، رآته قادما عبر الحقول ، اسود يمتطي حصانه المتفصد عرقا . ترجل ودخل الظل ، خلع قبعته القش ، وبعد نظرة منه الى اعلى ونفس عميق عبه من الرطوبة العالقة بالاغصان ازال حبيبات العرق من جبينه بكم قميصه ، ثم جلس الرجل الذي بدا عجوزا كشجرة الحور كارولينا ، جلس عند اسفل الشجرة واتكأ على جذعها .

نام الرجل بعد قليل ورأى في حلمه انه شجرة .

(*) الربيع في نصف الكرة الارضية الجنوبي . (م)

فرانسيسكا والمنية
كاردوسو - كوبا

« الى الشاعر ، الرفيق والصديق المولد في بيترو زادنيبرن ، الذي حكى لي عن جواب امه هذا »

ـ صباح الخير . ـ قالت المنية ، ولم يتمكن الحاضرون من التعرف عليها . بالطبع ، فقد جاءت تخفي جديلتها تحت القبعة ويدها الصفراء داخل جيبها .

ـ ارجو الا ازعجكم ، ولكن هلا دللتموني على بيت السيدة فرانسيسكا ؟

ـ انظري ـ قالوا لها ، فقد اطل احدهم من الباب واشار باصبع الفلاح الغليظة :

ـ هناك ، حيث قصب السكر العالي الذي تعصفه الرياح ، اترين ؟ ستجدين طريقا تصعد التل . تقع الدار عند القمة .

فكرت المنية : « لقد نفذت المهمة » ومضت في الطريق المذكور بعد ان شكرت الحاضرين ، في صباح شحت فيه غيوم سمائه وسطعت زرقته نورا .

التقت نظرة على الساعة وهي سائرة فالفتها السابعة صباحا . ستحل نهاية السيدة فرانسيسكا في الواحد والربع من بعد الظهيرة .

« لحسن الحظ ان العمل قليل » : حالة واحدة » قالت المنية لنفسها راضية ، وتابعت المسير في الطريق المحاطة بالزعتر وبالندى . وفعلا ، فقد كان شهر ايار ؛ والامطار التي هطلت قبل ذلك لم تكن لتسمح للبذور البرية وللسويقات من البقاء تحت الارض دون ان تخرج للشمس . كانت اغصان السنابل الوليدة كشجرة السيبا كالكاوبا (*) الشفافة . وجذع

الغوافة يطلق قشرته في مواضع متباعدة ، مظهرا اللحم النظيف للخشب . لم تحوى حقول السكر ورقة واحدة صفراء . اخضر هو كل شيء ، من الارض حتى الهواء ، والازهار تعبق برائحة الحياة . من الطبيعي ان تغلق المنية انوفها ومن المنطقي كذلك الا تنظر الى وفرة الأغصان الميتة بالاعشاش ، او الى النحلات وازهارها .

وما العمل ؟ فليست هذه مملكة المنية ، وانما جاءت عابرة سبيل .

وهكذا اذا ، مشت المنية في الطرقات ، حتى وصلت دار فرانسيسكا .

— رجاء ، اريد مقابلة « بانتشيتا » (*) — قالت المنية :

— لقد خرجت جدتي باكرا : اجابت الحفيدة الذهبية ، خائفة بعض الشيء على الرغم من بقاء الجديلة تحت القبعة واليد في الجيب .

سألت :

— وفي اية ساعة تعود ؟

قالت ام الطفلة :

— ومن يدري ؟ ذلك يتعلق بمدى انشغالها . انها تعمل في الحقول .

(*) السيبا والكاوبا من الاشجار الاستوائية .

(*) — لقب يطلق على من تحمل اسم فرانسيسكا .

فمضت المنية شفتها ، وقد ضاقت ذرعا من الدوران في هذا العالم الجميل الغريب .

— الشمس لافحة . هل بمقدوري انتظارها هنا ؟

— هذه دار كل قادم . لكنها قد لا ترجع قبل المساء ، او الليل .

« اللعنة » فكرت المنية « ساضيع قطار الخامسة . لا . يفضل البحث عنها » ثم رفعت صوتها قائلة :

— اين بالتحديد يمكنني لقاؤها الآن ؟

— خرجت مع الفجر لتحلب . انها بالتأكيد في حقل الذرة ، تبذر .

— واين يقع حقل الذرة ؟ سألت المنية .

— اتبعي السور فتجدين الحقل المفلوح وراءه .

— شكرا — قالت المنية بجفاف وانطلقت لاهثة . لكنها حملقت في الحقل المفلوح ولم تر احدا . طيور مالك الحزين وحدها . افلتت جديلتها وقالت حانقة : « اينها العجوز الشمطاء ، اين اختبات ؟ بصقت وتابعت الطريق بدون وجهة محددة .

بعد ساعة من احتراق جديلتها وتقزز منخريها من رائحة الاعشاب الغضة ، التقت سائرا :

— ايها السيد ، هل بامكانك ان تدلني اين اجد فرانسيسكا ؟

— انت محظوظة — قال السائر — انها منذ نصف ساعة في دار نوربيغاس فالطفل مريض وراحت لتدلك بطنه .

— شكرا — قالت المنية وكالطلقة غذت في السير .

كانت الطريق قاسية ومرهقة . وهي تمضي الآن على ارض مفلوحة ، ومعروف كم هو متعب السير على ارض غير مستوية وطرية كاسفنجة . حيث يضيع نصف الجهد سدى .

وهكذا وصلت المنية كليلة الى دار نوربيناس .

ــ اود مقابلة فرانسيسكا ، اعملوا لي هذا المعروف .

ــ لقد رحلت .

ــ وكيف ! هكذا ؟ بهذه السرعة ؟

ــ اية سرعة ؟ اجابوها : انها جاءت لمساعدتنا بشأن الطفل ، وقد فعلت ، فلم الدهشة اذن ؟

ــ حسنا ــ قالت المنية محرجة ــ عادة يرتاح المرء قليلا بعد كل عمل يقوم به ، هذا ما اراه انا .

ــ اذا ، فانت لا تعرفين فرانسيسكا .

ــ اعرف ملامحها ــ قالت المنية بيروقراطية .

فقالت الام :

ــ وما هي ؟ قولي :

ــ انها ... ذات تجاعيد .. وذلك طبيعي فقد بلغت الستين .

ــ وماذا ايضا ؟

ــ ستربين .. الشعر ابيض .. تكاد تفتقد الاسنان الطبيعية .. الانف ، لنقل ..

ــ لنقــل مــاذا ؟

ــ حــاد ..

ــ اهذا كل شيء ؟

ــ حسنا .. اضافة الى الاسم وكنيتين ..

ــ لكنك لم تتحدثي عن عيونها .

ــ حسنا ... ضبابيتان .. اجل ، لا ريب انهما ضبابيتان .. اضفت السنون عليهما مسحة دخانية .

ــ كلا .. لا تعرفينها .. كل ما رويته صحيح ما عدا مـا يتعلق بالعينين . ان نظراتها اكثر شبابا ، ان التي تبحثـين عنهـا ليسـت فرانسـيسكا .

وخرجت المنية مرة اخرى الى الطريق . كانت تمضي ساخطة ولم تأبه باليد التي خرجت من الجيب وبالجديلـة التي اطلت قليلا مـن تحت القبعة . سارت طويلا ، وقالوا لها في دار غونثاليت ان فرانسـيسكا على مرمى البصر تقطع الفصة من اجل بقرات احفادها . لكـن المنية لـم تجد سوى فصة مقطوعة حديثا ولم تر اثرا لفرانسـيسكا .

كانت قدما المنية قد تورمتا داخل الحذاء الملطخ بالوحل ، وقـد ابتل قميصها الاسـود بالعرق المتفصد . اخرجت السـاعة والقت عليهـا نظـرة :

ــ يا الهي الرابعة والنصف . مستحيل ! سيفوتني القطار !

وقفلت عائدة وهي تكيل اللعنات .

في تلك الاثنـاء ، وعلى بعد كيلو مترين مـن ذلك المكـان ، كانت فرانسـيسكا تقلع الحشائش الطفيلية من حديقة المدرسة . مر بها عجوز من معارفها على صهوة حصانه فابتسم لها وبادرها بتحية عذبـة على طريقتـه :

ــ فرانسـيسكا ، متى ستموتين ؟

استقامت فرانسيسكا ليظهر نصف جذعها من وراء شجيرة الورد وردت على التحية قائلة :

ــ لا وقت لدي ، فالمرء يجد دوما ما ينشغل به .

(نيسـان ١٩٧٣)

الاضـــراب الأخـير

بـــرنارد وكوردون ـ الارجنتين

حدث هذا صباح ٢٢ كانون الاول .

كانت السيارة الشاحنة دودج ـ وحدة رقم ٢٠٧ ـ التابعة للادارة العامة للتنظيفات تقوم بعملها في شارع ارينا ليس .

كان فريقها المكون من اربعة عمال موزعا على الرصيفين ، والشاحنة تتوسط الطريق ، الامر الذي اثار استنكار « ايسيد ورو كاموسو » صناعي في الخامسة والاربعين من عمره ، والذي كان يقود سيارته فاليانت رقم اللوحة ٩٠٥ ـ ٥٩٧ التابعة لمدينة بوينس ايرس .

ضغط ايسيد ورو كاموسو على المنبه مرارا مطالبا الشاحنة ان تفسح له الطريق . اطل سائق الشاحنة من نافذته والقى نظرة شاردة على الرجل المثار ؛ ولم يحرك سيارته الثقيلة مقدار شبر واحد وكان العمال في تلك اللحظة بالذات ينقلون براميل القمامة الكبيرة العائدة للبنايات ذوات الارقام ١٨٥٦ ـ ١٨٥٨ ـ ١٨٤٥ ـ و ١٨٤٦ من شارع ارينا ليس ، تلك التي تفتقد اجهزة حرق القمامة .

اشرنا الى ان السائق اوقف سيارته الشاحنة في وسط الطريق ، معرقلا المرور ومبديا لا مبالاته حيال سائق السيارة السياحية الحانق ولا بد من ان ناخذ بعين الاعتبار بعض التفاصيل المتعلقة بالعمل . تتوقف الشاحنة في وسط الطريق لتكون على مسافة متساوية من كلا الرصيفين حيث يجمع العمال براميل القمامة الثقيلة وغير المريحة . وبالطبع ، ليس

من عادة سائقي الشاحنات التي تجمع القمامة القيام بشرح هذه النقطة او غيرها لسائقي السيارات التي يعرقل طريقها ، بل يكتفون بنظرة لا مبالية يطلقونها من غرفة قيادة ترفعهم اربعة امتار عن مستوى الارض . اغضب هذا السلوك ايسيد ورو كاموسو فأضاف الى المنبه شتائم عديدة وهيأ سيارته للتحرك مستعدا لكل شيء .

ترتفع حرارة الطقس في اواخر السنة ، ويزداد التوتر العصبي في بونيس ايرس . يحدث هذا على جميع المستويات ولكل الافراد .

لم يقبض عمال التنظيفات بعد العيدية ، وكانت ثمة شائعات نقابية مفادها ان الادارة لا تنوي دفعها هذه السنة .

اما رجل الصناعة كاموسو ، فكان — في اليوم ذاته — في طريقه لمقابلة بعض رجالات البنوك ليطلب اعتمادات تسمح له بدفع العيدية لعماله الذين يهددون بالاعتصام في معمله .

قام ، تحت وطأة مشاغله هذه ، بمناورة يائسة ، ادار مقوده حتى النهاية وصعد بعجلتي اليمين على الرصيف مما سمح له المرور بجانب الشاحنة ، لكنه ، قبل ان يتابع سيره ، لم يصمد الصناعي كاموسو امام رغبته ، في ان يقول للسائق بعض ما يدور في خلده . فاخرج رأسه من النافذة وصرخ :

— زبالة ، مكانكم داخل الشاحنة .

كان سائق الشاحنة عاجزا عن الرد وسيارته الثقيلة لا تسمح له بلحاق الصناعي . وكان كاموسو قد درس هذا الامر بدقة . ولكن ، في تلك اللحظة : ظهر عامل يحمل برميل قمامة على كتفه وقام — بحركة خفيفة ودقيقة من ذراعيه ، كلاعب كرة السلة — برمي محتويات البرميل داخل الفاليانت عبر زجاج النافذة الخلفية . سمع ايسيد ورو كاموسو الزجاج يتحطم وفكر بسرعة : « سيعوضه التامين » لكنه ، ما ان استدار

حتى رأى مالا يعوضه احد ، ليس للشرف اسمار ، وقد شعر الصناعي نفسه مهانا ، ورأى رمز امتيازه الاجتماعي ، برميل من القمامة منتشر في سيارته الفخمة .

ملأت رائحة الاهانة والموت سيارته وخلعت قلبه . اوقف المحرك وقفز من السيارة ليحاسب الجاني كان هذا رجلا شابا ومفتول العضلات، لكن هذه التفاصيل لم تثبط من همة الصناعي ، سيعمل على توقيفه غير آبه بالتهديد وحتى ولو ركع طالبا المغفرة . اجل سيلقن الحيوان درسا ، حتى ولو شغله الصباح كله ، اليوم كاملا . لكن العامل الذي القى القمامة ابدى خبثه ، كبرت عيناه بايماءة الدهشة وفاتحا ذراعيه اعتذر :

ـ المعذرة . . . انزلق البرميل . يا للأسف .

وصاح برفاقه :

ـ تعالوا ايها الشباب ، فقد وقع حادث .

وجد كاموسو نفسه محاطا بأربعة عمالقة في عيونهم تصميم ، وافواههم تقهقه ساخرة ، فتملكه الرعب بقدر الحقد . عاد ودخل سيارته ، لكن قهقهات اولئك الرجال كانت غير محتملة . كما لو انها تحقن احماضا في دماغه .

اخرج مسدسه وترجل ثانية لمجابهة الرجال . اطلق النار على العامل الذي القى القمامة في سيارته .

رآه يقع كما لو انه انزلق ، ثم انتهى .

القوا بايسيدورو كاموسو ارضا وداسوه بالاقدام . دعسوا رأسه ببرميل قمامة ثم رفعوا الشاب الجريح الى غرفة القيادة ورموا جثة كاموسو في صندوق الشاحنة . شغل السائق جهاز المجرفة الساحقة فابتلعت رجل الصناعة كاموسو .

انذرت الشرطة . وظهرت من شارع « بلغرانو » سيارة دورية لاحقت شاحنة القمامة التي انطلقت هاربة باتجاه الجنوب في جادة « معركة لوس بوئوس » وعند مستوى شارع « الاستقلال » تمكنت الشرطة من تجاوز الشاحنة ، لكن هذه لم تخفف من سيرها . قال الشهود ان الدودج زادت من سرعتها بدلا من ان تفرمل فصدمت بقوة اكبر سيارة الشرطة .

اخرجت من صفائحها المعجونة ثلاث جثث وجريح بحالة خطرة .

وتابعت الشاحنة هروبها نحو الجنوب بينما ارسلت دوريات اخرى للاحقتها .

استطاعت اثنتان منها اللحاق بالشاحنة وفتحتا نيران المسدسات والبنادق الرشاشة ، الإمر الذي ادى الى مقتل اربعة (من المارة) فالشاحنة المحمية بصفائح الفولاذ لم تخرج من السباق .

انتشرت وقتئذ اشاعة تقول انه لاسباب سياسية ونقابية صدر امر باعتقال او قتل كل عمال التنظيفات .

وسرعان ما اذاعت هذه الانباء اذاعة الاوروغواي مما حدا بسيارات جمع القمامة المنتشرة في شوارع بوينس آيرس الى الاتجاه مسرعة صوب مزابل الجنوب .

عشرون ، خمسون ، ثلاثمائة شاحنة قمامة وصلت من المدينة ، شغلت عرض شارع « الكورتا » وشكلت حصنا في استاد نادى «اورباكان»، في المزابل المجاورة ، وحول جهاز قياس الغاز الذي يرتفع بكتلته الباهتة في حي « باتريسيوس » ، لم تجرؤ الدوريات على الاقتراب من الشاحنات التي اصطفت وقد اداروا محركاتها استعدادا للقتال بصفائحها المتينة في الوقت الذي صدر فيه بيان عن اجتماع مندوبي عمال الادارة العامة للتنظيفات جاء فيه ان نقابتهم تعرضت لاطلاق النار من قبل احد اعضاء

الطغمة الحاكمة في البدء ومن قبل الشرطة فيما بعد . مما دفعهم الى اعلان اضراب لزمن غير محدد .

واجتمعت السلطات البلدية بدورها لتستمع الى المحافظ الذي غمز بعينيه مخاطبا الصحافيين ومؤكدا ان اكثر الامور تباهة التي يمكن الاتيان بها هو « ترك ايام العيد تمضي ، فسرعان ما يعلو العفن الاضراب » .

مضت ايام آخر السنة التي يحتفل بها سكان بوينس آيرس بشهية رهيبة . وارتفعت في كل زوايا الازقة والشوارع تلال من فضلات الاحتفال . صدر امر بحرق تلك القمامة لكنها كانت مواقد فاشلة . لم ترتفع فيها النيران بل الدخان الزاحف الخانق .

وهكذا تم اكتشاف النوعية غير القابلة للعطب لقمامة بوينس آيرس . وكذلك ميزتها العجيبة في التكاثر بسبب عدميتها .

عندئذ لجأت السلطات البلدية الى استشارة القوات المسلحة . امتنع العسكريون عن جمع القمامة معتبرين هذا العمل من اختصاص المدنيين . اضف الى ذلك ما كان قد تسرب عن استغراقهم بتدبير انقلاب عسكري في الاشهر القادمة : ليس الوقت مناسبا لنشر القوات في الشوارع . وخاصة لمهمة متعبة ومهينة كهذه .

دعي قائد القوات الجوية الى تصف تجمع المتعصمين في المزابل ، فاجاب ان كثافة الدخان الذي يغطي المدينة يمنع عمليا من القيام بأي نشاط جوي .

اما السادة ضباط البحرية الحربية فكانوا منتشرين على البلاجات والفيلات للاستجمام .

ونظرا لنقص القوات ، اضطرت السلطات للجوء الى القوانين ، فأصدرت مرسوما يمنع القاء القمامة امام البيوت تحت طائلة الحبس غير القابل للكفالات المالية .

وقد نفذت قوانين المرسوم لمرات قليلة لان احدا لم يلق قمامته امام داره مفضلين دوما بيوت الجيران فنشرت تعليمات اخرى اشد ، ونتجت عنها ظاهرة تجارية غير عادية : ففي ايام معدودة نفذت من الاسواق اوراق اللف المزدانة بالازهار والشرائط الملونة والمواد الاخرى المستعملة في لف الهدايا .

كان الناس يخرجون من بيوتهم يعلوهم مزاج احتفالي يحملون لفائف انيقة وسلال متقنة الترتيب .

محتوياتها : قمامة (ترسل من قبل مجهول او بأسماء مستعارة للاصدقاء والاقارب) .

لم يحتفظ احد في بيته بقمامته ، لكن الجميع يتعثرون بقمامة الآخرين .

حدث اذاً عكس ما حسبه المحافظ : فبدلاً من أن يتعفن الاضراب راح العفن يهيمن على المدينة .

فتقرر ارسال مبعوث للتباحث مع عمال التنظيفات المضربين ، ورجع بأنباء لا تدعو الى الارتياح . انكر المضربون كونهم عمالا للتنظيفات . والمنطقة المحتلة من قبلهم تبرق نظافة ، وبدلا من أن تكون مزبلة في مدينة نظيفة غدت منطقة طاهرة في وسط المزبلة الكبيرة . كان عدد المعتصمين هناك كبيرا فكانت تكفي ساعة واحدة يقوم فيها كل منهم بواجبه استجابة للحس بالمسؤولية المهنية اما ما تبقى من الوقت فكانوا يستهلكونه بالتفكير .

ــ ايعني هذا ان الندم وجد طريقه الى نفوسهم ؟ توهم المحافظ .

ــ لا يبدو الامر كذلك ــ اجاب المبعوث حزينا .

ــ هل اخبرت المضربين بحالة المدينة ؟

ــ لم يدهشهم ذلك ، قالوا انهم لاحظوا من خلال عملهم ان القمامة كانت تزداد يوما بعد يوم ، ولا شيء غير القمامة . والآن يمتنعون عن جمعها ، يقولون ان الوقت فات .

ــ نحن هالكون ــ صاح وزير الثقافة ، وبعد ان منح نفسه جائزة الشعر الكبرى اختفى من القصر .

انهارت جبال القمامة نتيجة للتراكم المستمر وتدفقت في الشوارع كالفيضان ، محولة كل ما تلقاه الى قمامة : نصبا تذكاريا كان ام اشارة مرور ، احد المارة ، مفتش او اي من اشياء البلدية الاخرى .

فضل سكان بونيس آيرس ملازمة بيوتهم مما سبب مقالات افتتاحية كثيرة ومطولة حول استعادة التقاليد البيتية السليمة . لكن الزبالة كانت تنمو داخل البيوت ايضا كما في الخارج فيلتقي الطرفان عند الابواب والنوافذ . قبلات القمامة تلك كانت بمثابة المقدمة لدورات جديدة من النمو الانتاجي ، فمنعت طباعة الصحف والمجلات بعد التاكد من ان الورق يشكل الجانب الاكبر من حجم النفايات . لقد راينا كيف استخدم لتمويه الفضلات المهربة .

اثار حجز الحريات الصحافية استنكارا دوليا فترجمت برقيات النقابة الدولية للصحافة الاستنكارية الى اطنان من الورق الذي كاد يحجب القصر البلدي .

وظهر ذلك العجوز المتدثر بشرشف مهترىء . تسلق ذلك الشريد أو النبي قمة جبل القمامة ، الداخنة واشار الى الغرب . لم يسمع أحد ما قاله (فيما اذا كان قد قال شيئا) لكن رتلا طويلا من المهاجرين تشكل على الفور .

لم يحقق الموظفون الساميون الذين احرقوا انفسهم استنكارا (على الطريقة البوذية الفيتنامية) سوى اغناء تنوع القمامة والروائح بجثثهم . ولم يوقفوا الهجرة بذلك .

عندما حاذت القافلة ابراج الراديو ـ تيليفونية في ضواحي المدينة ، سمعت الاخبار الرسمية الاخيرة : « في خضم النهضة الاقتصادية ، انطلق سكان العاصمة بحبور في رحلة الاجازات التي استحقوها » .. انكسر صوت المذياع واستحال صمتا ثقيلا في اللحظة التي طفت فيها القمامة على قمم ابراج الارسال .

سيول صمغية تترافد وتعود فتتحد في دورتها كالثعبان الذي يلتهم نفسه ، بلا بداية ولا نهاية .

نبتت المادة الاساسية للهجرة والكوليبري(*) ابتلعت طاقة فوسفورية غير جاذبة قافلة الفارين وراحت تمحي ذكرى المدينة .

وبقي سهل طاهر وخال ـ كما حل به عمال التنظيفات المضربين ـ في انتظار تأسيس جديد لبوينس آيرس .

(*) كوليبري : طائر ذبابي (طنان) .

(+) بالفرنسية في الاصل .

الفتاة ذات الندبة
ادواردو غاليانو - الاوروغواي

- ١ -

جاءت بها العاصفة .

قدمت من الشمال . عابرة الرياح في عربة العجوز ماتياس . رأيتها تصل فترى ضعف في ساقي . كانت ترتدي وشاحا أحمر ، وشعرها مشعث ، بفعل الرياح المحملة بالرمل . كان الطقس سيئا . شاهدنا العاصفة تاتي منذ اسبوع من الجنوب المظلم . بينما كان ، يهرع في السماء فتات السحب ، ابيض كذيل بغلة ، والدلافين تقفز في البحر كالممسوسة : حلت العاصفة وباتت لدينا .

كان ذلك في شهر تشرين الثاني عندما تقترب اناث اسماك القرش لتلد على الشاطىء وهي تحك بطونها على رمال القاع .

كانت الخيول تجر المراكب الى ما بعد الرصيف الذي يحمي الميناء ما أن تمنح العاصفة هدنة ، فيمضي الصيادون الى اعماق البحر . لكنه كان ثائرا يمور فتخرج الشباك متشابكة بنباتات اليم وبالنفايات .

بالاضافة الى بعض اسماك القرش الميتة او المحتضرة . فيضيع الوقت في اصلاح الشباك .

وفجاة ، يتغير اتجاه الريح فيهاجم بوحشية في الشرق او الجنوب . تغدو السماء فاحمة وتكنس الامواج المراكب : لا بد من العودة الى الشاطىء .

قبل ان تصل لايام ثلاث انقلب مركب خدعته الرياح . ذهب البحر بالصياد ولم يعده كنا نتحدث عن ذلك الرجل ، كان اسمه « كالابريس » وكنت ادير ظهري للباب مستندا على الطاولة . استدرت لحظتئذ كأنما نودي بي ، فرأيتها ، غص حلقي برشفة الجن . كانت السماء خلف النافذة قاتمة سوداء ، وكان بالامكان رؤية اعلان الصفائح المهترئة الذي يقول « اهلا وسهلا » و « كوكا كولا » وعربة العجوز ماتياس وهي جالسة بجانبه تحادثه ، بلا عجلة ، بينما يحاول العجوز اشعال غليونه فتمنعه الرياح من ذلك .

ــ ما رأيك يا دكتور ؟

قالها رجل يجلس قربي ، وأضاف : ــ « لم يسبق لنا ان رأيناه امرأة جميلة كهذه » . رفضت « فلافيا » اليد التي مدها العجوز وهبطت قافزة . ناولها الجعبة واشار لها برأسه باتجاه المنار ، او بيتي .

ناديتها من باب الخان .

لم اركض ، وهي لم تفعل ايضا .

كانت متسخة بسبب الغبار ، التعرق والريح ، لكنها كانت نضرة .

ضحكت ، مسندة يديها على خصرها :

ــ الا تنهار من المفاجأة ؟

ودعتني اقبلهـا .

كذبت : كنت عارفا انك آتية .

شعرت ان القرية برمتها تحملق فينا . كانت قرية صيادين من الغاوتشو(١) وهي لا ترد في الخريطة .

(١) سكان البامبا الاصليون ، او الهجين الناتج عن اختلاط الاسبان بالهنود .

دلها « كاريتو » على مكاني . وحسنا فعل اذ نفض السر .

كذبت : ــ انك لم تتغيري .

ــ وانت ــ ايها الناحل ، ينقصك سن .

كنت قد فقدته تحت التعذيب ، لكننا لم نتحدث عن ذلك . فهي مرت بالآلة كذلك .

كانت تعرف . وانا اعرف . فلم نتحدث عن ذلك .

كذبت : ــ حدث منذ سنة . شهر احــدهم بي فبحثت عنه حتى وجدته وسألته لماذا لا يدخل لسانه في قفاه . وكان اقوى مني .

عاودت الضحك ، بعصبية ، ولمست بسبابتها ندبتها على الذقن .

كان الحر رصاصيا ، والهواء حامل .

ــ ٢ ــ

شاهدنا معاً في تلك الليلة ، عبر نافذة بيتي المشرعة ، انفجارات البروق وهي تضيء بيوت القرية . انتظرنا معا الرعود . وانفلات المطر .

ــ هل تطبخ ؟

ــ قليلا ، بطاطس ، سمك . . .

وحيدا ، ومستندا بمرفقي على النافذة كنت اقضي الليالي . مداعبا زجاجة جن ومنتظرا النعاس او المرض . عيادتي ارض ترابية ، وفانوس كاز . كانت تحتوي سريرا ، سماعة طبية ، زوجين من الحقن ، رباطات ، ابر ، خيط والنماذج المجانية للادوية التي كان يرسلها كاريتو من العاصمة بين الفينة والاخرى . بذلك ، وبسنتين من الدراسة في الكلية . كنت اتدبر امري في ترقيع الرجال ومقاومة الحمى . وكنت في ليالي السأم اتمنى حدوث فاجعة كيلا اشعر نفسي غير ذي نفع .

لم اكن استمع الى المذياع لان ذلك الشاطيء يحمل خطرا واغراء الوقوع على اذاعة من بلدي .

ـ لم اصادف امراة في هذه القرية هل جرت تلك الامور ايضا ؟
ـ كما ترين .
ـ اكاد لاأتعرف عليك .

كنت انام وحدي ، على سريري الفقير . نوابض الفراش اخترقت وبانت رؤوس اللوالب المعدنية المهددة . الابد من النوم متكورا كيلا تصاب .

قلت لها مفتعلا الفكاهة :

ـ اجل . انتهت بالنسبة الى الحياة السرية . لم يعد لدي مواعيد سرية ، ولا مع نساء متزوجات .

صمتنا .

دخنت سيجارة . اثنتين .

سألتها ، اخيرا لماذا جاءت . فقالت انها بحاجة الى جواز سفر .

ـ اما زلت تزورها ؟

ـ اتفكرين بالعودة ؟ اتذهبين الى فم الذئب ؟ ولم ؟

قلت لها : مادامت الامور على ما هي عليه فان فعلها ستكون حماقة ، ان لاوجود للبطولة عبثا ، ان ..

ـ هذا امر يخصني انا ـ قالت ـ سألتك اذا كنت مازال تزورها . انفجر الرعد الاول في السماء .

قلت لها :

ـ مادمت تحتاجينه .

ـ وكم يطول ؟

للاخرين يوم واحد . اما لك ، فاسبوع .

ضحكت وداعبت راسي . قالت

ـ لست على عجلة ايها الناحل .

سقطت قطرات المطر الاولى ، كبيرة ، حارة ، وارتفعت من الارض سحب البخار ، وجاءنا من التلال عطر النباتات المبتلة الاخضر .

في تلك الليلة ، وللمرة الاولى ، اعددت الطعام بهمة . طهوت لفلافيا سمك الكوفينا على الجمر بينما حضرت هي مرقة مما وجدته في البيت . اكلنا وشربنا النبيذ والمطر منهمر بشدة في الخارج .

ثم جاءت القبلات . كانت ممضغة الهيتين عندما البستها عقدا من نقرات سمك القوش كنت احفظه من اجلها .

ـ ٣ ـ

بدت السماء في اليوم التالي صافية زرقاء . فخرجنا نبحث عن القواقع التي رمتها العاصفة على الشاطىء .

جزر البحر فحفرنا الرمل باحثين عن المحار وعدنا الى البيت نحمل كيسا مليئا بها . كانت الشمس تنتقم محرقة .

ـ ٤ ـ

التقينا ايام حظر التجول . كنا نمشي ونتعانق ويقبل احدنا الآخر ما ان نشاهد زيا عسكريا . املت ضرورات الامن القبلات الاولى ، اما التالية فكانت لرغبة فينا . كانت شوارع المدينة في تلك الايام خالية من الناس . كان التحدث خطيرا ، والصمت كذلك .. كانوا يلاحقوننا ، يحاصروننا ويصطادوننا كالفئران . المذنبون والمتضررون يتبادلون الاسماء ويتلامسون برؤوس الاصابع .

كنت التقي فلافيا في ملجأ جديد دوما . وبتملكنا الرعب في دقائق التـأخـر .

كنا نسمع صفير الدوريات وضجيج خطوات الليـل باتجاه الصباح متعانقين . كنا قد اكتشفنا او سيطرنا على منطقتنا الحـرة ، وكنـا نشعر بضرورة الدفاع عنها ، فذلك حق لنا ؛ فلاننام : يأتينا من الخارج صيـاح الديك نداءات جامع الزجاجات . ضجة صفائح النفايات ، وربما صرخـة او اطلاق للنار . بعدها كان علـى جانب كبير من الاهمية ان نفطـر معـا .

لم نتفوه ابدا كلمة الحب . كانت الكلمة تتسلل تهربا عندمـا نقول : « انها تمطـر » او « انني على ما يرام » وماكنا بحاجة الى اكثر من هذا كنت على استعداد لاطلاق الرصاص على ذاكرتها كيلا تذكر امامي شيئا عن رجـل آخـر .

ــ يوما ما ــ كنا نقـول ــ عندما تتغير الظروف .
ــ عندما نكون اكبر سنا واهدأ بالا .
ــ سيكون لنا بيـت .
ــ وسنبقى فيه ، سويـة ، مانشاءه من الزمن .
ــ سـيكون رائعا .

مرت ليال ونحن نفكر باننا نناضل في سبيل ذلك : بخاطر الناس لكي يكـون ذلك ممكنـا .

لكنها لم تكن سوى هدنة . وسرعان ما علمنا ، انا وهي ، اننا سننسـى او نمـوت قبل بلوغ ذلك .

رعاهي قـد عـادت .

عادت لتجد الطقوس الصغيرة دونما تغيير . الطقوس : ان تبلـل اصبعا في كأس النبيـذ وتمرره على الندبـة التي تقسم ذقنها . ان

تستعير ساقها من تحت الطاولة ، تدخين السيجارة ذاتها ، شرب الانخاب والكأسان ملتصقين ... الطقوس : نقل الدخان او الخبز من فم لفم .

— ٥ —

طلع القمر ، مبتلا ، قبل ان تغيب الشمس .

تمشينا لغاية الشاطيء الصخري . طير البطريق يتبعنا بطيران منخفض .

سبحنا في البحر عراة . لم يسبق لها ان جربت ذلك .

راينا من بعد نقاطا تكبر : قوارب الصيادين . عائدون والمستودعات مليئة بسمك الترش .. كنت اعرف ذلك الاحتشار التنليع : الاسماك المختنقة تتقلب في الشباك موزعة عضات عشوائية عمياء قبل ان تهوي مكدســـة .

هبت رياح الشمال الحارة .

الاسماك تسبح باتجاه معاكس للريح فيمسك الصيادين بها قرب الشاطيء مارسنا الحب على الرمال . لم يسبق لها ان فعلته هكذا .

عدنا بينما تتلاحق على الرمال ظلال النورس .

ركبنا صهوة جياد الشاطيء التي تهوى البحر ، وعدونا بها ناثرين الرغوة .

هبط الليل . امتطينا الجياد عاريين . لم يسبق لها ان فعلت ذلك .

اخترق القمر نصف السماء وارتفع المد .

— ٦ —

لن يجدك احد هنا . ابق . ربما تتبدل الظروف .

ــ وهل تتغير وحدها ؟

ــ وماالذي تنوين فعله ؟ الثورة ؟

ــ جلدي لايسمح لي بكل هذا .

ــ الحرب اذن ؟ حرب في صحراء . لك وحدك .

ــ الصحراء هي بلدك ايها الناحل . وانا ، ما انا سوى نملة ونحن معشر النمل لانقوم باعمال كبيرة كالثورات والحروب . ننقل وريقات او رسائل ، نساعد بعض الشيء .

ــ انها وريقات ، فقد بقيت هناك بعض النباتات .

ــ وبعض الناس ايضا .

ــ اجل . الشيوخ ، الشرطة ، السجناء والمجانين .

ــ ليس تماما هكذا .

ــ بل لاتريدين ان يكون كذلك . وانا ايضا ، بالطبع .

ــ لقد مكثت طويلا في الخارج ، بعيدا .. لوقت طويل .

ــ وماذا في ذلك ؟

ــ وهاانا قد اقتربت . وكانني عدت . اتعرف اي شعور يراودني ؟

ــ يخيل الي ، ولكن ....

ــ مايشعره الرضع لدى اكتشافهم العالم . يتأملون اصبع القدم الكبيرة ويكتشفون العالم ويشعرون بما اشعره الان اتعرف ؟

ــ اجل . اعرف .

ــ ذلك ماشعر به

ــ لايهم الواقع ماتشعرينه انت بافلاقيا . فهو كما هو .

ــ وهل نستكين في الزوايا ونجهش بالبكاء ؟ هل نبلل المناديل في الزوايا ؟

ــ ستة ضرب سبعة يعطيك اثنين واربعين بدلا من اربع وتسعين وانت تغضبين : من ابن العاهرة الذي يبدل الارقام ؟

ــ قل لي ، ايها الناحل ، اصحيح مايقال . .

ــ وماذا يقولون ؟ اجهل مايقال .

ــ انك ماعدت تؤمن بشيء . انك لاتهتم بشيء .

ــ لانني محوت نفسي .

ــ لماذا ؟ اسألك .

ــ اتيت الى قفا العالم . وبالطبع . انا لااصنع هنا التاريخ الكوني . . لكنني تعلمت بعض الامور .

ــ هل انت نادم ؟

ــ لااومن بالعراك مع الذين في الاسفل بينما اصفر واصفق من الشرفة ، لا ، لا اومن بذلك .

ــ ومن الذي يؤمن ؟ لااحد .

ــ لااحد ، هذا ماتظنينه ، اليوم المباراة الكبرى ، اليوم ، الفتى يصارع الحقير ــ بالاحرى : الفتاة ــ توقفي لحظة وفكري قليلا . فكري .

ــ لقد فكرت بالامر كثيرا ايها الناحل .

ــ ماذا تبقى بعد كل ذلك الدخان والبارود المحترق ؟ معسكر اعتقال ومقبرة .

ــ وهل بامكانك ان تبين لي كيف نسقط دكتاتورية ؟ باسهام من الورق ؟

ــ لااعرف بأي شيء

ــ اتسقطها من هنا ؟ بالتوجيه عن بعد ؟

ــ اه . اجل . البطلة الوحيدة تبحث عن الموت . لا . ليست فحولة البرجوازي الصغير ، انها انوثته .

ــ ماعندك هو اسوأ . الانانية .

ــ او الجبن . انطقيها .

ـ لا . لا .

ـ قولي : نذل . قولي : هارب .

ـ لا .

ـ اتدرين ؟ انني اقرف من الالهة والقضاة . لقد سئمت . هل تسمعين ؟ باي حق ..؟

ـ انك لاتفهم ايها الناحل .

انت التي لاتفهمين

ـ ولم رد فعلك هذا ؟

ـ وانت ؟

ـ اعرف انك غني عن التجربة . حسنا ، لندع الموضوع . لاتكن احمق .

ـ لكنك قلت ان ..

ـ وانت قلت بدورك . هل نعاود الحديث ؟ حسنا ، انا التي اخطات .

ـ اعذريني .

ـ لاداعي للخلافات ، فمن الحماقة ان نتشاجر في الايام المقبلة ..

ـ اجل ، الايام القليلة .

ـ ايها الناحل .

ـ ماذا ؟

ـ لن نتشاجر بسبب توافه . ها ؟

ـ لكنها ليست توافه بالفلافيا . لقد نزعت السرج ريثما يطلع الضوء . لااحد يملك الحق في ... اعرف مالافعله ، وليس خوفا .

ـ بالطبع . ايها الناحل .

ـ اجهل ماذا كانوا يبحثون عني ، لكنني واثق من انهم لن يجدوني .

ـ احسنا ، ايها الناحل .

ـ لن يجدوني .

ـ اعرف ذلك .

ـ اذن .

ـ ولكن ، هل ستبقى على ماانت عليه ؟

ـ وماانا عليه ؟

ـ هكذا ، هنا ، في هذا المكان .

ـ اوتعتقدين انه يروق لي ؟ ان اكون هنا ، كالبشر ؟

ـ اذا

ـ اذا ماذا .

ـ لا ، ابدا .

ـ احيانا . . . احلم احيانا . . بانني ابحث عن اناس ولااجدهم . ابحث عن اماكن غير موجودة . واستيقظ مدركا اننا لن نجتمع كلنا مرة اخرى ، فاشعر باعياء يفقدني رغبة الاستمرار .

ـ ولكن . قل لي ، ماالعمل ؟ ماذا بامكاننا ان نفعل ؟

ـ وهل تظنين انني كنت لابقى هنا لوعلمت ؟

ـ اتعرف ، ايها الناحل ؟

ـ ماذا ؟

ـ كلنا ايتام .

ـ اجل .

ـ ايتام .

ـ اجل ، لكنني احبك .

ـ ٧ ـ

رحنا لزيارة القبطان .

القبطان على اليابسة كمن في زيارة . مسكنه الحقيقي هو البحر ، مركبه « فوراخيدا » التي تضيع بعيدا عن الافق في الايام الرائقة .

لقد ثبت خيمة بين اشجار السنديان تحسبا من الطقس السيء ، وفي ظلها يجلس لشرب المتة محاطا بكلاب هزيلة . بدجاجات وبخنازير يرعاها الله .

كانت له عضلات حتى في الحاجبين .

لم يستمع في حياته الى نشرة عن الطقس ، والاستشار يوما خارطة الابحار ، لكنه خبير بذلك البحر . احيانا ، عند العصر ، كنت امضي الى الشاطىء لاراه عائدا . يقف على سطح مركبه وقد باعد ساقية واسند قبضتيه على الخصر ، يقترب من الشاطىء . وكنت اتخيل صوته يلقي الاوامر لعامل الدفة . القبطان يقترب . على حافة الموجة العاتية : يركبها عندما يشاء ، يروضها ، ويجعلها تأخذه بهدوء حتى الشاطىء . كان القبطان يحسن مهنته يحبها ، وكان يسرني الاستماع عليه . اذا حدث لك ان اضعت شمالا فانه مخبأ في الجنوب : علمني القبطان الاحساس بتبدلات الريح . وعلمني كذلك سبب وقوع اسماك القرش في الشباك ، وكيف لا تستطيع التقهقر ، وكيف انها لاتشم رائحة سوى رائحة الدم . وكيف تلتهم اسماك الكورفينا السوداء الاسماك الصدفية المستكينة في القاع : انها تبصق القشور مستلقية على بطنها ، وكيف تتضاجع الحيتان في بحار الجنوب المتجمدة وكيف تظهر من فوق سطح الماء وقد تعانقت ذيولها .

لقد تجول القبطان في هذا العالم ، والاستماع اليه بمثابة القيام برحلة عودة ، من المصير الى ميناء الانطلاق ، فتلاقي في الطريق الغموض ، الجنون ، وروعة البحر ، واحيانا ، نادرا ، ، الالم الابكم ايضا ، لكن الحكايات القديمة كانت اكثر مرحا ، وكنت اتصور ان القبطان ، في سنواتـــه الشابة ، قبل الندوب التي قلما يحكي عنها ، كان يعرف كيف يمـرح حتى في الجنازات .

وبينما نحن نثرثر ، كانت تصل خيمة القبطان همسات منشـــار الابنتبي ، خوار البقر ، وطرقات الحذاء الذي يهوي بمطرقته على لوح معدني يحمله فوق ركبتيه من اجل تطرية الجلود .

كان يحدثني عن مدينتي التي عرفها جيدا ، وبكلمة ادق ، عـرف الميناء والخليج . . واكثر مايعرفه من المدينة هو ازقتها التحتانية ، البارات والفتيات ، واحدة فواحدة . يسألني عن بعض المقاهي والحانات فأخبره انها اختفت ، فيصمت ، ويبصق تبغا .

كان القبطان يقول :

ــ لااثق بهذا الزمان .

تحدثنا مرة عن مقهى يقع عند زاوية الحديقة ، وكان قد اغلق بشكل نهائي ، فقال لي :

ــ عندما تعمر الجدران اقل من الرجال فذلك يعني ان الامـــور لاتسير على مايرام . الاوضاع سيئة في بلدك . انني ادرك ذلك .

وكان يحكي لي عن قرية الصيادين تلك ، التي عرفت ايام عز عندما كانت قيمة كبد سمك القرش تساوي وزنه ذهبا ، وعندما كان البحارة يقضون الايام العاصفة عند دونيا فيكتوريا محتسين الويسكي الممتاز والاعبين بالورق وقد جلست على كل ركبة عاهرة فرنسية ، بينما يلوح قزم بمروحة وعازفي الجيتار ينشدون قصائد الحب . رسق فلافيا بريبة . ارادت ان تستميله ، فكان يشخر . مزحت معه . تدللت ، بلا فائدة .

كان يحدثها عني :

ــ انظري فلافيا ــ كان يقول لها ــ اسمك فلافيا اليس كذلك ؟ حسنا ، استمعي الي جيدا . هذا الرجل لن يتحرك من هنا . لن يغادر المكان . اسمعت ؟ اننا نحتاج اليه .

ــ لكن ، ايها القبطان ــ كانت تحتج ــ انت لا . .

ــ ابدا ، ابدا .

ــ لكنني لا . .

ــ هنا ، في القرية ــ كان القبطان يقول ــ بعضنا البحر والبعض الاخر للارض ، اما هو ــ وكان يشير الي ــ فلنا نحن .

قطب في احدى الاماسي جبينه وحدثها بصوت خفيض كيلا اسمع مايقوله .

ــ عندما جاء هذا الرجل الينا ــ روى لها ــ قتل بنفسه الجواد الذي حمله . اطلق عليه النار .

ماكان يثق بفلافيا لكنه كان يصب لها المتة ويقدمها مرفقة بالبسكويت المصنوع من اليانسون واقصب البارلغواي الذي اجهل من اين يجلبه .

ــ وانت ايضا تعارضين كل شيء ، كهذا ؟ ــ سالها مرة ــ الا يناسبك شيء ؟ فهذا يشكو من كل الامور ــ سخر مشيرا الي بسبابته .

روت له فلافيا قصة ميلاد ثائرة . قالت انها ذهبت في التاسعة من عمرها الى مراكز الشرطة لاجراء معاملة الهوية الشخصية . وهناك ــ قالت له ــ كان موظف بشاربين من الاسلاك جالسا الى الجانب الاخرمن الطاولة: « لون العينين » سال الموظف . فخطت خطوة الى الوراء واجابت «اخضر» فقام ابن العاهرة وانحنى على الطاولة وقرر : « بني » .

لكن القبطان لم يضحك .

بصق النيكوتين وتأمل تبخر لعابه بفعل الشمس ، وطلب من فلافيا القيام بمهمة لدى عودتها الى مدينتنا ان تذهب الى القلعة وتبحث في الجدار المطل على الخليج ، وراء المدفع الاخير الى اليمين . فمنذ نصف قرن قام بحفر علامة حب على ذلك الجدار الحجري .

ــ اذا صعبت قراءتها فاحفريها مرة اخرى .

كان ذلك الطف ماسمعته فلافيا منه . لكنه كان اسلوبا لطردها ، ايقنت ذلك فيما بعد .

- ١٨ -

استيقظنا ليلا على طرقات الباب والصياح . كادوا يهشمون الباب فهرعت برافقة فلافيا الى بيت الابتر خوستينو . حملت معي ماقدرت عليه . لسنوات خلت ، بترت سمكة قرش ذراع خوستينو : انقلبت السمكة وهو منهمك في حل الشباك عنها وعضته ففقد خوستينو ذراعه . كانت معرفتي به محدودة ، لكن الجميع يعرفون الحادثة .

تمايل فانوس الكاز المعلق في الكوخ . زوجة الابتر تعوي وقد ابعدت ساقيها . فخذاها متورمان بزرقة ، على البشرة المشدودة شبكة من العروق .

طلبت من فلافيا ان تغلي قدرا من الماء ، وامرأة الابتر المنفعل الذي كان يتعثر بكل شيء ان ينتظر في الخارج . جاء كلب واختبأ تحت السرير فاخرجته بالركلات .

القيت نفسي وروحي فوق بطن المرأة . كانت تعوي كالوحش ، تعوي وتسب : لااحتمل ، يؤلمني كارلخو ، انني اموت ، وهي تتفصد عرقا . كان الرأس الصغير بين ساقيها ، لكنه يمتنع عن الخروج ، لايخرج ، فصرخت بدوري وضغطت بكل ثقلي دافعا بطنها .

ضربت المرأة بقبضتها على عمود خشبي فكاد السقف ينهار فوقنا ، واطلقت صرخة طويلة وحادة . كانت فلافيا بجانبي .

وتجمدت من الخوف .

ولدت الطفلة وقد احاط الحبل السري رقبتها . وجهها ازرق متورم ، بلا ملامح ، مغموسة بالزيت وبخراء اخضر وبالدم ، والم رهيب

باد على وجهها . لم تكن ملامحها واضحة لكن الالم كان جليا . واعتقد انني فكرت : مسكينة . هكذا ، بهذا الشكل المبكر .

كنت ارتجف من راسي الى اخمص قدمي ، اردت التقاطها لكنني فقدت يدي .

انزلقت .
قامت فلافيا بفك الحبل عن العنق .
وانتظرت ،
فلافيا تمسكها من قدميها وتدليها في الهواء .
ضربتها برفق على ظهرها .
الثواني تمر ،
لا شيء .
وانتظرنا .

اعتقد ان الابتر كان عند الباب ، راكعا ، يصلي . المرأة تئن ، تشتكي بخيط صوتي . كانت بعيد ونحن ننتظر والوليدة مدلاة .

عدت وضربتها على الظهر .
تدوخني تلك الرائحة القذرة الحلوة .

وفجاة ، احتضنت فلافيا الرأس وقربته من فمها وقبلته بعنف .

امتصت وبصقت ، ثانية وبصقت مخاطا ابيض ، لعابا .. فبكت الطفلة اخيرا .. لقد ولدت ، وهي حية .

ناولتني الطفلة فغسلتها . ربطت زوجا من العقد القوية بخيط عادي ، وبشفرة حلاقة قطعة الحبل .

دخل الناس ،

فخرجت مع فلافيا .

كنا مرهقين وقد اعترانا شيء كالبله . مضينا لنجلس على الرمال ، عند البحر ، وبدون تفوه تساءلنا :

وكيف حدث ؟

كيف حـدث ؟

فاعترفت :

ــ انها المرة الاولى . وكنت اجهل ما يجب فعله . كانت المرة الاولى .

فقالت :

ــ وانا كذلك .

اسندت راسها على صدري . شعرت بضغط اصابعها تنغـرز في ظهري وحزرت ان الدموع حبيسة في مقلتيها .

سألت أو تساءلت بعد هنيهة :

ــ ترى ، كيف يكون للمرء ابن ؟ ان يكون لها .

وقالت :

ــ لن يكون لدي ابدا .

ثم جاء بحار ارسله الابتر ليسأل فلافيا عن اسمها . كانوا بحاجـة لاسم من اجل التعميد .

ــ ماريانا ــ قالت فلافيا .

ودهشت . لم اقل شيئا .

ترك لنا البحار زجاجة كحول ، فشربت ، وشربت فلافيا .

ــ وددت دوما لو ادعى كذلك ــ قالت .

وتذكرت انه الاسم الذي كنت اسجله في جواز السفر ببط ، ببطء ، لتذهب .

- ٩ -

غمست الصور في الشاي لتتعتق . محوت حرفا فحرفا باحماض فرنسية كنت احتفظ بها . « ديزان » فوق طبعة الابهم ، ثم عجينة الخبز وممحاة الحبر . كويت الصفحات بمكواة فاترة ، فتعرى الجواز ثم البسته شيئا فشيئا . طبعت اختاما وتواقيع . ثم فركت الاوراق بالاظافر .

- ١٠ -

تقترب نهاية السنة . مضى شهر على قدوم فلافيا . والد القمر وقرونه الى أعلى . لقينا طيرا بطريق صغير تيبس جناحاه بالنفط . كان ينتظر ، بلا حراك ، مديرا ظهره للبحر .

بعيدا من هناك ، ليس كثيرا . احدهم يشتم . احدهم يتهشم . بعضهم يفقدون عقولهم بسبب العزلة والجوع . يضغط على زر فتنشز الآلة . تفتح فكيها الفولاذيين . يرى رجل والده المسجون منذ زمن بعيد ، عبر القضبان ، ويتعرف عليه من الحذاء البني الذي اهداه اياه .

ـ قل لهذه الكلاب ان تصمت .

فلافيا المذنبة . فبسببها كنا نتناول طعاما ساخنا مرتين في اليوم ، ونتدفأ في الشتاء ، ونتمتع بالحرية ، فقالت لي :

ـ قل لهذه الكلاب ان تصمت . اذا صمتت سابقى .

- ١١ -

اوينا الى الفراش متأخرين وافقت وحدي .

سكبت كأسا من الجن . يدي ترتجف . ضغطت على الكأس . عصرته ، كسرته ، فادميت يدي .

- ١٢ -

جاء كاربنو بعد شهر من ذلك .

صعب عليه ان يخبرني .

لم اطلب تفاصيل . لم اشأ الاحتفاظ في ذاكرتي بميتتها الفظيعة ، فرفضت معرفة ما اذا كانوا قد خنقوها بكيس من البلاستيك اوفي بركة ماء ونفايات . اوانهم فجروا كبدها بالرفسات .

فكرت كيف ان سعادتها في حمل اسمها « ماريانا » لم يدم طويلا .

- ١٣ -

قررت الرحيل برفقة كاربنو ، عند الفجر .

جهز لنا العجوز ماتياس الصياد . سيرافقنا .

انتظراني عند الجانب الآخر من النهر بينما رحت لاودع القبطان .

ــ اتسمح لي بمعانقتك ؟

كان القبطان يدير ظهره لي ليستمع الى شرحي . فتح النافذة وتطلع الى السماء . اشتم النسيم .

كان يوما جيدا للابحار .

سخن الماء من اجل المته . لم يقل شيئا . وظل مديرا ظهره . سملت .

ــ امض ــ قال اخيرا بصوت مبحوح ــ اذهب . سنحرق بيتك ــ قال لي ــ وكل ما هو لك .

ركبت صهوة حصاني وانتظرت .

فخرج وهوى بالسوط بقوة على مؤخرة الجواد .

- ١٤ -

عدونا خبباً .

ـ « اخت هذه الشغلة » فكرت . فكرت بنفسي ، بانني مصارع ثيران متقاعد ، اعود الى الحلبة وعليّ ندوب اكثر من الاحلام . « اخت هذه الشغلة » لابد من وجود شيء ما . لابد من وجود شيء افعله لتتحسن الاحوال . لا يمكن الاستمرار هكذا ، لا استطيع . لا نستطيع . لابد من ان نعمل شيئاً فشيئاً ، لابد من وجود شيء آخر غير الهزيمة .

انا رجل وحيد ، بلا ذاكرة أو مشروع . . . فحزنت على نفسي .

كنا نعدو خبباً .

وفكرت في جسد تلك المرأة الطري والعنيف . ستلاحقني حتى النهاية . ساجد رسالة منها ما ان افتح الباب ، وعندما انهار لانام على ارض او سرير ما سأتنصت واعد الخطوات على السلم خطوة فخطوة او ازيز المصعد ، طابقاً فطابقاً ، ليس هذا خوفاً من الشرطة ، وانما لرغبة مجنونة في ان تكون هذه حية وتعود ، سأراها في وجوه الاخريات . سأبحث عن الاسم والصوت والوجه ، سأشتم رائحتها في الشارع . سأسكر ، لكن ذلك لن يفيدني ــ فكرت ــ الا اذا سكرت بلعاب ودموع تلك المرأة .

« الكتاب »

□ هارولدو كونتي □

ولد عام ١٩٢٥ . عمل في مهن شتى . ذاع صيته الادبي منذ اوائل الستينات . ولقد حازت اعماله على جوائز عديدة . نذكر منها : « جنوب شرق » رواية جائزة فابريل ١٩٦٢ ـ « كل فصول الصيف » رواية ، جائزة بلدية بوينس ايرس ـ « حول القفص » ، رواية ، جائزة جامعة فيراكروث . « مع اناس اخرين » قصص ـ « حيا » رواية ، جائزة بارال ١٩٧٢ « انشودة شجرة الحور كارولينا » قصص ، جائزة كاسادي لاس امريكاس ١٩٧٥ .

اختطفته عصابات اليمين الفاشي المتعاونة مع الحكومة الديكتاتورية عام ١٩٧٦ ، ومازال مفقودا منذ ذلك التاريخ ، مثله مثل الكاتب المعروف رودولفو والش .

□ برناردو كوردون □

ولد في بوينس ايرس عام ١٩١٥ ، مارس مختلف انواع الادب وبرع فيه مع نشره رواية « آفاق اسمنتية » عام ١٩٤٠ ـ لكن صحبته تعود الى القصة القصيرة .

من مجموعاته : « شريد في تومبوكتو » ١٩٥٦ ـ « يوم أحد على النهر » ١٩٦٠ « احسن الى الناس » ١٩٦٨ .

□ انتونيو سكارميتا □

ولد عام ١٩٤٠ في انتوفاغاستا (تشيلي) . درس الفلسفة والمسرح . عمل مدرسا جامعيا . يعيش منفيا منذ انقلاب بينوشيت الفاشي .

من اعماله : « الحماس » قصص ١٩٦٧ .

□ ادواردو غاليانو □

ولد عام ١٩٤٠ ـ الاوروغواي ـ صحافي ، رسام ، قاص ومؤلف دراسات اجتماعية سياسية . من ابرز وجوه ما يعرف بجيل الاربعين . عمل في صحيفة « مارتشا » واسس في منفاه الارجنتيني مجلة « ازمة » . يعيش حاليا في اسبانيا .

من أعماله : « أوردة امريكا اللاتينية المكشوفة » دراسة ١٩٧١ (ثلاثين طبعة خلال عشر سنوات) ـ « انشودتنا » رواية « المدينة نمرا » قصص ١٩٧٢ ـ « أيام وليالي الحب والحرب » قصص ... وغيرها .

☐ ماريو بينيديتي ☐

ولد عام ١٩٢٠ في الاوروغواي . عمل موظفا حكوميا ، لكنه استقال ليمارس مختلف الاعمال حتى ارغم على الرحيل مع حلول الديكتاتورية . (خمس سكان الاوروغواي يعيشون حاليا في المنفى (أسباب سياسية) .

يعتبر من أكثر كتاب امريكا اللاتينية شعبية وذلك يعود الى اسلوبه المتميز ، السهل الممتنع ، في معالجة امور الحياة العادية لدى عامة الناس وبخاصة فئة الموظفين .

من أعماله القصصية : « هذا الصباح » ١٩٤٩ ـ « الرحلة الاخيرة » ١٩٥١ « سكان مونتيفيديو » ١٩٥٩ ـ « الموت ومفاجآت اخرى » ١٩٦٨ ـ « بكآبة وبدونها » ١٩٧٧ ـ وروايانه « عيد ميلاد خوان انخيل » ـ « الهدنة » وغيرها . له نتاج شعري واسع ، ومارس اضافة الى هذا الانواع الاخرى كالمسرح ، الدراسة ، المقال السياسي ، الاغنية الملتزمة ، الادب الفكاهي .

☐ اونيليو خورخي كاردوسو ☐

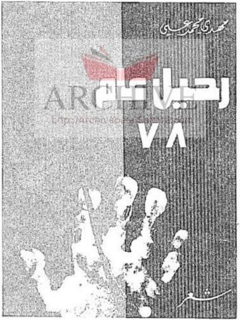
ولد في كوبا عام ١٩١٤ ـ عمل معلما في الريف ، موزعا للادوية ، في مخبر للتصوير وكاتبا لنصوص اذاعية .

من مجموعاته القصصية : « قل لي كيف بأبي » ١٩٤٥ ـ « الراوي » ١٩٥٨ « اناس من الشعب » « ميتة القط الاخرس » ١٩٦٤ ـ « الكلب » ١٩٦٥ ـ « كنت سائرا »١٩٦٥ « القصص الكاملة » ١٩٦٥ ـ « الخيط والحبل » ١٩٧٤ يعمل حاليا في السلك الدبلوماسي.

☐ خوان رولفو ☐

يعتبر خوان رولفو من أهم الكتاب في امريكا اللاتينية ويرشحه بعضهم ـ ماركيز مثلا ـ لجائزة نوبل ، على الرغم من انه لم ينشر حتى الان سوى مجموعة قصصية واحدة « السهب الملتهب » ورواية « بدرو بارامو » وقد نشرت عام (١٩٥٥) ، وتعتبر عمله العظيم مستصدر هذه الرواية أواخر ٩٨٢ عن وزارة الثقافة ضمن سلسلة « روايات عالمية » . اخر ما نشر للكاتب هو فصل من رواية لم يتمها حتى الان .

صدر حديثاً عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي



نحو تأصيل اجتماعي لأدبنا الحديث

د. شكري عزيز الماضي

عندما كانت المرأة .. آلهة

محمد وحيد خياطة

مطالعات :

صدقي اسماعيل مشروع لم يكتمل
قراءة جديدة
في كتاب «الله والفقر»

صالح الرزوق

الحرية لدى العروي

قراءة في كتاب
«مفهوم الحرية» للعروي

عماد شعيبي

الوباء ..

نشيد الخبز والحرية

أحمد مشول

نحو تأصيل اجتماعي لأدبنا الحديث

د. شكري عزيز الماضي

هذه ليست دراسة ولا محاضرة وانما مداخلة تهدف الى اثارة الاسئلة والتساؤلات حول واقع الاشكال الادبية العربية الحديثة وعلاقتها بالمجتمع ، وما يتصل بهذه المسالة من قضايا نقدية . ومنذ البداية لابد ان يؤكد صاحبها بانه غير قادر على تقديم الاجابات الشافية بل كل همه منصب على تسليط الاضواء على بعض المشكلات الادبية والنقدية للقيام برسم الحلول لها ضمن عمل جماعي ممنهج ومنظم . ولعل الاقتصار على هذه المهمة ينطلق من ايمان مؤداه ان اثارة الاسئلة والتساؤلات وتحديد المشكلات هي القمة الحقيقية للبدء باي عمل علمي مثمر .

هذه الاسئلة او المشكلات تتمحور حول علاقة الادب العربي الحديث بالمجتمع ولعلها تتفرع بعد ذلك الى قضايا ثلاث :

الاولى : تتناول قضية نشأة الاشكال الادبية العربية الحديثة .

والثانية : تركز على اهمية التأصيل الاجتماعي للادب العربي الحديث .

والقضية الاولى والثانية تفضيان - وربما تفرضان - التعرض الى القضية الثالثة ألتي يمكن ان نصوغها على شكل سؤال بسيط معقد في آن وهو :

كيف نتناول الاعمال الادبية في سبيل التأصيل الاجتماعي ؟

وفي محاولة القاء الاضواء هذه المشكلات او القضايا لابد من تأكيد النقاط التالية :

اولا : ان هناك ظاهرة ادبية عربية حديثة واحدة ، بكل ما تحمله العبارة من معان على الرغم من تمايز بعض الانواع الادبية من قطر الى آخـــر .

ثانيا : ان الادب انتاج ، ليس بالمعنى الذي يذهب اليه علم اجتماع الادب ، وانما بالمعنى الذي يرى ان النصوص الادبية اعمال اي مرتبطة بالفعل البشري ابداعا ومادة وتلقيا .

ثالثا : ان مصطلح الحداثة - في قولنا الادب العربي الحديث - مقولة زمنية وفنية في آن واحد .

بعد تأكيد النقاط السابقة يمكن القول بأن ظهور أشكال أدبية حديثة (المسرحية ، الرواية ، القصة القصيرة ، الشعر الحديث) قد لقي اهتماما وحوارا ونقاشا واسعا لايزال ممتدا حتى يومنا هذا . وقد توزعت الاراء حول هذه الاشكال الادبية في مرحلة ولادتها بين الرفض التام والقبــول الكامل . وكان هذا الصراع حول الموقف من هذه الاشكال الادبية يخفي

في جنباته صراعا سياسيا واجتماعيا وايديولوجيا بين قوى اجتماعية متباينة .

وبعد ان استطاعت هذه الانواع الادبية الحديثة ان تستقر ـ بعدكفاح عنيد وشاق خاضه الروّاد من ادبائنا ـ انتقل الصراع حولها من الرفض والقبول الى مرحلة اخرى اتخذ فيها شكلا آخر تمثل في الصراع حول تفسير نشأة هذه الاشكال الادبية . ولم يكن الشكل الجديد للصراع هنا اقل حدة من السابق .

وقد هيمن على الساحة النقدية العربية موقفان يجهدان في تفسير نشأة هذه الاشكال الادبية :

تمثل الاول في رؤيته لفن الرواية والمسرحية والقصة القصيرة ، وفيما بعد حركة الشعر الحديث ، على انها اشكال ادبية « مستوردة » من الغرب مع تاكيد خلو تراثنا من هذه الاشكال وحتى من جذورها او بذورها . ورأى اصحاب الموقف الثاني ان معظم هذه الاشكال الادبية ما هي الا امتداد لاشكال ادبية قديمة اصبحت جزءا من تراثنا العربي وجهد هؤلاء في ايجاد خيوط تربط هذه الاشكال الادبية الحديثة بالتراث ولعل احدث محاولة في هذا السبيل تلك التي قام بها « علي عقلة عرسان» في كتابه « الظواهر المسرحية عند العرب » الذي صدر قبل عامين ١٩٨١ . وينطلق اصحاب الموقف الاول الذين يقولون (بالاستيراد) من رؤية تدعي العلمية والموضوعية لكنها متأثرة بالغرب وحضارته وانجازاتهالعلمية والفكرية والادبية الى حد الانبهار .

وينطلق اصحاب الموقف الثاني (التراثيون) من هدف نبيل يتمثل في الحرص على الذات ، مع شيء من المباهاة والمفاخرة بتراثنا الذي يعرفه الغرب من اشكال ادبية حديثة عرفه اجدادنا منذ زمن طويل وادبناالعربي القديم لا يخلو من تلك الاشكال الحديثة الغربية .

غير ان هذين الموقفين يعكسان معا عدة أمور هامة :

اولا : ان حدة الصراع بين اصحاب هذين الموقفين تعكس احساسا لدى الطرفين بخطورة الوظيفة الاجتماعية لهذه الاشكال الادبية الحديثة .

ثانيا : ان الصراع الحاد حول تفسير نشأة الاشكال الادبية الحديثة هو في جوهره امتداد للصراع الفكري الحاد الذي كان مهيمنا على عقول المثقفين العرب آنذاك والمتمثل في البحث عن الذات او تحديد ملامح الشخصية القومية بعد الاحتكاك الحضاري والاستعماري بالغرب الاوربي . والذي عبر عنه بقضية العلاقة بين الشرق والغرب . وقد عالجت هذه القضية اشكال روائية عربية من عدة اقاليم وفي فترات زمنية متقاربة [مثل رواية اديب لطه حسين ١٩٣٥ ، عصفور من الشرق لتوفيق الحكيم ١٩٣٨ ، قنديل ام هاشم ليحيى حقي ١٩٤٤ ، « الدكتور ابراهيم » لذنون ايوب من العراق ١٩٣٩ وجولة حول حانات البحر الابيض المتوسط لعلي الدوعاجي من تونس ١٩٣٥ ، الحي اللاتيني لسهيل ادريس من لبنان ١٩٥٣ ، قدر يلهو ، وقوس قزح لشكيب الجابري من سورية ١٩٣٩ ، ١٩٤٦] .

ثالثا : يغفل الموقفان بأن ظهور الانواع الادبية وانقراضها يخضع لحاجات جمالية اجتماعية ، اي لدرجة تطور المجتمع السياسية والاقتصادية والثقافية والحضارية .

رابعا : يغفل الموقفان اثر الاوضاع والتناقضات الاجتماعية الماثلة في الواقع العربي والتي ترافقت – او ادت – الى ولادة هذه الاشكال الادبية فالموقف الاول يعزو نشأتها الى الخارج الى الغرب والآخر يعيدها الى الماضي وهكذا فان الطرفين يغفلان الحاضر . لذلك يتسم الموقفان معا بقصورهما عن تفسير نشأة هذه الاشكال الادبية الحديثة ، لاغفالهما اثر الظروف المحلية المحيطة بولادتها .

واضافة لهذه القضايا التي يشترك فيها أصحاب الموقفين يمكن القول: بأن الموقف التراثي يخلط بين مفهوم الحكاية والقص وفن القصص وفن الرواية بمعناه الحديث . فلا يخلو تراث شعب من القصص والحكايات والاساطير والسير ، غير أن هذه كلها تختلف عن فن الرواية الحديثة من حيث الموضوع والاسلوب والهدف ، ولا تقتصر حداثة هذا الموضوع الادبي على هذا التمايز بل ان فن الرواية مثلا لا بد له من اوضاع مادية لظهوره ونشأته فلا بد له من مطبعة وتجمع بشري كثيف يولد علاقات اجتماعية معقدة اضافة الى مستوى من التعليم لدى القراء وقدرة على الشراء ووقت فراغ ودور نشر ومكتبات وصحافة . الخ . . لعل كل ذلك ينفي وجود هذه الاشكال الادبية الحديثة في تراثنا ، ولذلك لا بد ان نتساءل لم وجدت هذه الاشكال الادبية الحديثة بمصر بالذات ؟ ولماذا لم تظهر هذه الاشكال الادبية الحديثة في مناطق اخرى من الوطن العربي الى الان مثل شبه الجزيرة العربية (التي لا يوجد بها مسرح ولا رواية) .

اما الموقف الثاني الذي ينفي وجود هذه الاشكال الادبية في تراثنا فيزعم بأنها مستوردة من الغرب او يرى في افضل الاحوال بأنها جاءت بسبب تأثر المجتمع العربي بالغرب فانه يتناسى ان التأثر نتيجة وليس سببا لظهور هذه الاشكال الادبية . ذلك أن المتأثر لا بد له ان يختار او يقتطف ما يتلاءم وتصوراته ورؤاه وطموحاته ومصالحه ، اي ان التأثر لا بد له ان يخضع لمتطلبات البيئة الاجتماعية المحلية . واذا كان المرء لا ينكر التأثر والتأثير فانه لا بد ان يؤكد بأن رؤية التأثر على انه سبب وليس نتيجة تترتب عليها نتائج مختلفة تماما ، اضافة الى ان اصحاب هذا الموقف يغفلون تفسير أسباب تباين وضعف الشكل الروائي العربي عن الشكل الروائي الاوربي في ظروف ولادتهما .

لعل قصور هذين التفسيرين يفرضان رؤية جديدة لنشأة ادبنا العربي الحديث رؤية لا تنكر اثر التراث او اثر الغرب في تشكيل رؤية هذه الانواع

الادبية وفكرها وفنها وحتى لغتها . وانما تجهد في ربط هذه الاشكال الادبية بحركة التحولات الاجتماعية في بلادنا . وبعبارة أخرى ربما أكثر دقة نحن بحاجة الى تأصيل اجتماعي لادبنا العربي الحديث . واحسب ان هذه المهمة ستقضي على مظاهر الفوضى التي تعانيها حركتنا الادبية والنقدية . ذلك ان التأصيل الاجتماعي سيحدد وظيفة هذه الاشكال الادبية بشكل اكثر دقة وهذه بدورها ستحدد ماهية هذه الاشكال اي خصائصها الخاصة . واذا انجزنا هـذه المهام سيكون بمقدورنا امتلاك معايير نقدية مستنبطة من داخل الاعمال الادبية العربية . ولعل كل ذلك يساهم في تحـديد المفاهيم الادبية والمصطلحـات النقدية وبوضوح رؤية الكثيرين من نقادنا الذين يرون بان المقامة شكل روائي عربي مرة وبأنهـا ظاهرة مسرحية مرة ثانية وبأنها نواة لفن القصة القصيرة مرة ثالثة . كما قد يساهم كل ذلك بالقضاء على الفوضى التي تعم تجربة الشعر العربي الحديث ابداعا ونقدا ، واذا صح تأكيد حاجتنا الى تأصيل اجتماعي لادبنا الحديث فلا بد من التنويه بما يلي :

اولا : ان ازمة الادب والنقد جزء من الازمة الفكرية والثقافية العامة التي هي نتاج لازمة الحرية والديمقراطية في الوطن العربي . وبالتالي فان نضج الحركة الادبية والنقدية والثقافيـة مرتهن بنضج حركة النضال الديمقراطي والاجتماعي والوطني ولا شك بان ذلك يلقي اعباء كبيرة على ادبائنا ومثقفينا .

ثانيا : ان الباحث العربي يعاني من قلـة الدراسات الاجتماعيـة والسياسية والاقتصادية والفكرية لمجتمعنا العربي الحديث ، التي تعتمد المنهج العلمي في استخلاص نتائج تفيد الدارس الادبي في الاعتماد عليها في محاولة التأصيل .

ثالثا : في محاولة التأصيل لا بد ان نجيب على السؤال التالي : اذا كان النقد الاوربي قد اجمع على ان الملحمة شكل ادبي نتاج العصر الاقطاعي وان الرواية شكل ادبي ولد مترافقا مع صعود الطبقة البرجوازية فلماذا ظهرت

الرواية في الوطن العربي والعالم الثالث الذي يتصف بناؤه الاقتصادي بخصائص متمايزة ؟.

رابعا : لعل السؤال السابق يدفعنا الى تأكيد ظاهرة هامة وهي ان التحولات الاجتماعية التي شهدها المجتمع الاوربي تتباين عن التحولات الاجتماعية التي شهدها المجتمع العربي .. فالتحولات الاجتماعية في بلادنا ليست جذرية كما هو الامر في أوربا شرقا وغربا .

خامسا : ان الغرب الاستعماري قد اثر الى حد كبير في رسم الخريطة الاجتماعية للوطن العربي ، وفي محاولة التأصيل لا بد من تحديد خصائص القوى الاجتماعية العربية لتفسير السمات النوعية لادبنا الحديث ومسار تطوره .

سادسا : في محاولة التأصيل يبدو من السابق لأوانه البحث عن مدارس ادبية او مذاهب فنية لان مثل هذه المحاولة تغفل حداثة الانواع الادبية العربية من جهة وطبيعة التحولات الاجتماعية في بلادنا من جهة ثانية . اضف الى ذلك افتقاد النقد العربي الحديث الى دراسات علمية يتم من خلالها تحديد المفاهيم والمصطلحات الادبية مثل الكلاسيكية ، الرومانسية ، الواقعية .. الخ . على ضوء النصوص الادبية العربية .

سابعا : يفضي بنا كل ما تقدم الى ضرورة مراعاة خصوصية الظاهرة الادبية العربية الحديثة وخصوصية الواقع الاجتماعي ، ذلك ان عدم مراعاة تلك الخصوصية وحب التصنيف الى رومانسي وواقعي .. الخ . ادبا الى كثير من المخاطر على صعيد تفسير الاعمال الادبية وفهمها وعلاقتها بالمجتمع .

وفي محاولة التأصيل يجب أن نبدأ بالنص الادبي لا بالاطار الاجتماعي ولعل هذا يدفعنا الى طرح القضية الثالثة التي اشرنا اليها في البداية

والمتمثلة في سؤال يتصل اتصالا مباشرا بالقضايا السابقة ولعله يلخص مظاهر أزمة النقد العربي المعاصر ، كما ان الاجابة عليه قد تدفعنا خطوات في طريق امتلاك معايير نقدية فعالة ومؤثرة ومتكاملة . هذا السؤال هو كيف نتناول النص الادبي ؟ اي كيف نتعامل مع النص الادبي ؟ وكيف ننقده ؟ ومن اية زاوية ندخل الى العمل الادبي ؟ وعم نبحث داخل النص ؟ وما الذي نهدف اليه من عملية البحث النقدي ؟ وماذا نريد ان نستخرج من النص ؟.

هل نبحث عن الفكرة ، العاطفة ، الانفعال النفسي ، عن خصوبة الخيال ؟ أم نوازي بين النص والحادثة النفسية مرة أم نربط بين النص وحياة مؤلفه او بين النص والحادثة السياسية او الاجتماعية ؟ ثم هل ندخل الى النص لنكتشف قوانينه الخاصة او نظامه الخاص أو بيئته فحسب ، اي تحتبس داخل النص كما تريدنا ان نفعل البنيوية والالسنية وغيرها من المناهج الشكلية ؟.

لعل ما يدفعنا الى هذا السؤال الذي تتفرع عنه اسئلة كثيرة هو الفوضى التي تهيمن على حركتنا النقدية والتي تتجلى مظاهرها بالانطباعية والاقتطافية والتجريبية والاسقاطات الايديولوجية والتطبيقات الآلية والميكانيكية .

فالمتتبع لمسار حركة النقد العربي بشكل عام يمكن ان يلمس تلك المظاهر بصورة واضحة ، فهناك الطريقة التي تدرس النص من ناحية الفكرة ثم العاطفة ثم الخيال والالفاظ والوزن .. الخ . وهذه الطريقة المدرسية تفتت وحدة العمل الادبي لانها لا تربط عناصر النص بشيء محدد اي لا تبحث في العلاقات الداخلية للنص .

ويمكن ان نجد نهجا آخر أكثر تطورا من السابق يتعامل مع النصوص من خلال دراستها من ناحية المضمون مرة ومن ناحية الشكل مرة ثانية

او من الناحية الفكرية ثم من الناحيــة الفنية ، ولا ينسى هؤلاء الذين يمارسون هذه الطريقة التأكيد في مقدمة كتبهم ورسائلهم الجامعية عدم امكانية الفصل بين الشكل والمضمون !!

والنوع الثالث يحاول ان يربط النص بالحادثة النفسية او السياسية والاجتماعية ويتم التقييم من خلال المقارنة على اساس ان النص ينبغي ان ينقل تلك التجارب والحوادث بجزئياتها وتفصيلاتها .. وقد نلمس في هذا المجال التركيز على دراسة المضامين او البحث عن صورة المجتمع داخل الشكل الادبي وربما نجــد الكثير من الاسقاطات الايديولوجية والتصنيفات السريعة للنصوص والادباء على حد سواء .. فهذا النص رومانسي والآخر واقعي والثالث واقعي اشتراكي لكنه يتضمن عناصر رومانسية !! وهذا الاديب من اصول برجوازية والآخر تهيمن على ادبه الروح البرجوازية الصغيرة وما الى ذلك ..!!

وهذه السمات التي يتضمنها النوع الثالث يعيدنا مرة اخرى الى معيار الصدق في العمل الادبي كما قد يعيدنا الى مفهوم جديد للمحاكاة او الى مفهوم مسطح للانعكاس .

وفي سبعينات هذا القرن نلمس نوعا آخر اذ احدثت كتب البنيويين والالسنيين انبهارا لدى كتابنا ونقادنا ــ بعــد ان مهــد الطريق كتاب « نظرية الادب » لرينيه ويليك واوستن وارني ــ فيتلقفون آخر ما انتجه الغرب مرة اخرى ويتحمسون لهذا الجديد المفتقد منذ زمن طويل .. وتترجم الكتب البنيوية والالسنية وتمتلىء المجالات الادبية وغير الادبية بالمقالات وتترجم محاولات تطبيقية في هذا المجال ..! كل ذلك يتم دون وعي بأن ذلك يعيدنا مرة اخرى الى نظريــة الخلق والمعادل الموضوعي لاليوت بعــد ان اكتسى هــذه المرة ثوبا براقــا تزينه الاسهم المتعاكسة والمتوازيــة والجــداول والاحصاءات واحسب ان الانبهــار بالبنيويــة

والالسنية دليل على شعور كتابنا ونقادنا بقصور الطرق النقدية السابقة ، وتأكيد لظاهرة الاقتطاف والتجريب ، ونتاج لمرحلة الانحدار التي تشهدها منطقتنا العربية وما يترافق معها من قمع وارهاب .

لعل كل ما تقدم يضفي على سؤالنا اهمية كبيرة كما قد يؤكد مرة ثانية حاجتنا الملحة لتأصيل اجتماعي لادبنا الحديث ، لايجـاد معايير مستنبطة من النصوص الادبيـة المحلية تساهم في خلق حركـة نقدية متضافرة (لا تابعة ولا لاهثة) مع حركة الابداع الادبي . .

وبديهي ــ مرة ثانية ايضا ــ ان مثل هذه المهمة ليست بمقدور الافراد وانما تحتاج الى عمل جماعي منظم .

اخـيرا فان هـذه المداخلـة اذا استطاعت ان تثير بعض الاسئلـة والتساؤلات وتساهم في تحديد مشكلات ادبية ونقدية حقيقيـة فقـد حققت طموحها .

عندما كانت المرأة «إلهة»

محمد وحيد خياطة

حين تصدى انجلز لدراسة اصل العائلة ونشوء **الملكية الخاصة ومن** خلالهما واقع المرأة عبر عصور **ماقبل التاريخ ، اعتمد** في دراسته على اخر ماوصل **اليه علماء زمانه من** اكتشافات اثرية والتي تعود الى **عهود موغلة في القدم .**

كما اعتمد انجلز فيما اعتمد على دراسات علماء **الانثروبولوجيا عن قبائل** بدائية تزامنه في كل من امريكا **واستراليا وافريقيا** وذلك لانها لاتزال تحافظ على **علاقات اجتماعية** بدائية تطابق او تكاد علاقات الاجتماعية **اقامها الانسان في** القديم .

كانت هذه اذا وسائط انجلز العلمية في توخيه الحقائق اذ لم تكن كتابات الشرق القديم (التي هي الان احدى مصادر معرفتنا بتاريخ الشعوب) قد اكتشفت ويضيق المجال هنا للخوض في تفاصيل كل مرحلة من المراحل التي اجتازها انسان تلك العصور وقبل ان يصل الى الاستقرار ونشوء المدنية والحضارة .

وكل ما يهمنا في هذا الموضوع هو مادونته الشعوب عن علاقات اجتماعية كانت سائدة ومعترفا بها في حينها دون أن تصدم عقائد اخلاقية ودينية اكتسبها الانسان في العصور الحضارية .

غير ان هذه العلاقات الاجتماعية اصبحت منبوذة ومنفرة للوجدان الاجتماعي في المجتمع .

ولقد استشهد فريدريك انجلز بهذه العلاقات التي انسربت على شكل اساطير وملاحم واغان شعبية الى ادبيات الشعوب الحضارية اليونانية والرومانية والجرمانية ، ولم يكن لحضارات وادبيات الشرق العربي حظ في دراسته الموسعه عن نشوء العلاقات الاجتماعية وتطورها في كتابه المذكور ، الا نادرا واذا ذكرت ، كانت التسمية عامة وغير محددة كقوله (كذا وكذا عند الاسيويين) .

ولاندري بالضبط ماالمقصود بكلمة الاسيويين ! هل هم شعوب حضارات الشرق العربي ام شعوب اخرى ضمن القارة الاسيوية الواسعة ؟ واننا لانستغرب عدم ورود ذكر لحضارات الشرق القديم عند انجلز ، فهي لم تكن مكتشفة بشكل مرض في عهده .

واذا عرف عنها بعض الشيء ، فهو عبر اسفار العهد القديم والمؤرخين القدامى أمثال هيرودوت .

ولكن بعد الاكتشافات المذهلة التي عمت ارجاء الوطن العربي من محيطه الى خليجه ، آن لنا ان نلقي بعض الاضواء على هذه الحضارة

التي هي الاسس التي قامت فوقها الحضارات الاخرى وخاصة اليونانية والرومانية . وسوف نقتصر في هذه الدراسة الموجزة على وضع المرأة الاجتماعي الذي عاشته في المراحل التي مر ذكرها في كتاب انجاز من خلال ادبيات الشرق العربي .

ان دراسة المرأة في العصور التي سبقت الكتابة دراسة صعبة ومضنية، تعتمد في الدرجة الاولى على مخلفات الانسان البدائي من ادوات بسيطة، مصنوعة من الاحجار الصوانية وعظام الحيوانات التي تعطينا فكرة عامة عن بيئة ومحيط تلك الحياة البسيطة التي كان يحياها .

ثم بدأ الانسان يترك لنا بصماته الفكرية الاولى على شكل رسوم في الكهوف .

وكان اول عمل تشكيلي له عبارة عن دمى طينية تمثل المرأة عارية بأعداد كبيرة .

بعضها واقعي منتزع من الحياة وبعضها الاخر تجريدي يرمز الى المرأة باشكال مختزلة .

ومما يلفت النظر ، ان اول عمل فني قام بصنعه الانسان البدائي في احدث فترة من العصور الحجرية القديمة كان يمثل المرأة .

ولم يظهر الرجل الى جانبها الا في فترات لاحقة من مسيرة التطور الحضاري للانسان .

وقد عثر مؤخرا على دمية امرأة عارية في تل المريبط (على بعد حوالي ٨٠ كم شرق حلب) اثناء اعمال الانقاذ الدولية لاثار حوض الفرات يعود عهدها الى الالف التاسع ق.م .

وقد ركز الفنان على ملامح الجسد الانثوية (الثديين والمؤخرة) دون ان يهتم بملامح الوجه والرجلين ، ويعتبر هذا التمثال المصنوع من الصلصال اقدم عمل فني يمثل المرأة ظهر على ارض القطر العربي السوري .

ولدينا مجموعة كبيرة احدث عهدا تعود الى الالفين الخامس والرابع ق.م (محفوظة في متحف حلب) .

تمثل هذه الدمى المرأة في اوضاع مختلفة ، فتارة جالسة على كرسي في حالة الوضع وتارة اخرى تضيع ملامحها وتصبح بطنا كبيرة منتفخة يرتكز فوقها رأس صغير . واحيانا تقف منتصبة تحمل علــى ذراعها رضيعا .

ومما لا ريب فيه ان هذه الاشكال الآدمية للمرأة ماصنعت الا لتجسد فكرة الامومة والخصب . ولكن هل اقتصر دور المرأة على تجسيد فكرة الامومة والخصب فقط ؟

لتوضيح ذلك ، لابد لنا من الاشارة الى تمثال امرأة عارية مصنوع من الفخار عثر عليه في جتل هيك (جنوب الاناضول) من الالف السادس ق.م وتعود اهمية هذا التمثال الى كونه يختلف عن بقية تماثيل المرأة المتعددة .

فهو يعكس الابعاد الفكرية لحالات اجتماعية سابقة والى اثره في تصورات المجتمع الدينية والميثولوجية اللاحقة ، فالمرأة هنا تتربع في حالة الوضع ، على كرسي ذي مسندين على الجانبين ويمثلان حيوانين ، وتستقر قدماها فوق جماجم بشرية في الوقت الذي يبرز من بين فخذيها رأس الوليد الجديد .

نرى في هذا التمثال تجسيدا لفكرة الحياة والموت بشكل واضح .

فوجود الجماجم تحت قدمي المرأة يعبر عن استمدادها القوة مــن جماجم الاسلاف ، ووضع ذراعيها فوق المسندين الجانبيين اللذين يمثلان حيوانين يشير الى سيطرتها على الكائنات الحية والنبات .

ومما يدعم رأينا هو اكتشاف هذا التمثال نفسه داخل مستودع للحبوب الذي يضمه المعبد ، بدوره .

مثل هذه الموضوعات كانت عامة وشائعة لدى مختلف حضارات الشعوب القديمة ، فقد اكتشف رسم امرأة في حالة الولادة في احد كهوف جنوب فرنسا .

كما اكتشفت مشاهد رقص الناس حول حيوانين في وضع الجماع .

ويستدل من ذلك ، على انتشار نوع من الطقوس الدينية تدور حول فكرة الاخصاب واثارة الرغبة في التناسل لدى كافة الكائنات الحية سواء كانت بشرية او حيوانية او نباتية .

فالظاهرة الرئيسية والبارزة في حضارات الشرق القديم هي تعظيم المرأة وتأليهها باعتبارها مصدرا للحياة والموت في آن واحد لما تملك من قدرات على التحكم في مصائر البشر .

فقد عثر داخل قبور (جتل هيك) ، الى جانب جثث المرأة ، على عظام جرذان والجرذان رمز الوباء والفناء كما نعرفه في العصور التاريخية اللاحقة ، واننا لنجد احدى آلهات العالم السفلي في مصر كانت تحمل رأس جرذ .

كما ورد في سفر صموئيل الاول (٥ : ٦) ان الفلسطينيين كانوا يقدمون الجرذان الذهبية قربانا لالهتهم لابعاد خطر الطاعون عن بلادهم (الالف الاول قبل الميلاد ق.م) .

واذا كانت المرأة في العصور الحجرية القديمة تمثل مرتبة الالهة في عبادة الاجداد (الاصل والنسب) ، فقد اصبحت في المجتمع الزراعي لاتمثل الاصل والنسب القبلي كرمز لوجود العشيرة المرتبطة فيما بينها بوشائج القربى من ناحية الام (المجتمع الامومي) فحسب بل تعدت ذلك لتصبح الشخصية الرئيسة الهامة في هذا الوجود .

فبفضلها ، تخصب المراعي والسهول . وبتأثيرها تتكاثر الحيوانات .

وهي التي تسبب عودة الاخضرار والحياة بعد الذبول والفناء ، أي انها اصبحت تجسيدا واقعيا لمظاهر الطبيعة كما شهدها وعاشها الانسان في بدء مرحلة الادراك .

فكما انها تمثل الحياة عند الولادة فهي تمثل الموت عند الفناء والبعث عند تكرار الولادة .

لم تتكون لدى انسان المجتمع الزراعي فكرة الاستقلال الشخصي بعد .

فهو جزء من الكون من خلال العشيرة ولايعرف ذاته كفرد ، يعيش كالحيوان والنبات ويشاركهما وحدة الوجود والخلود .

اما فكرة العدم والفناء واهوال الموت ، فلم تكن معروفة لديه .

وبقيت وحدة الوجود في ذاكرته حتى مطلع فجر التاريخ اي بعد ان اخذ المجتمع اشكالا تنظيمية خلال مرحلة الاستقرار في بيوت منتظمة بعد اكتشاف الزراعة .

ولقد عبر الانسان السومري عن حنينه واشتياقه الى تلك الفترة الموغلة في القدم بكلمات مؤثرة يبكي فيها فردوسه المفقود :

« في غابر الازمان منذ امد بعيد
كان لا يوجد ثعابين ولا عقارب
كان لا يوجد ضباع ولاسباع
كان لايوجد كلب وحشي ولاذئب
كان لايوجد خوف ولاباس
لم يكن للانسان عدو »

وبكلمات مشابهة كان شعور الفرد المصري :

« لم يكن في البلاد ظلم
ولم يكن اي من التماسيح ليعتدي

ولم يكن هناك عضات افاعي
كان ذلك في عصر الالهة منذ الازل »

فالموت لم يكن معضلة تخيف الانسان بل ظاهرة طبيعية تقبلها انسان الالف السادس والسابع ق.م كما لم يتقبلها اي انسان في العصور التاريخية اللاحقة (لنتذكر بحث جلجامش عن الخلود هربا من الموت الذي هو مصير كل كائن في الملحمة الشهيرة) ومن هنا نفهم تقديس السلف على شكل جماجم تحت اقدام المراة المنجبة على كرسي الولادة حيث تعيد عملية الخلق ثانية مستمدة العزم والقوة من اجداث الذين رحلوا .

ولم تكن عبادة السلف المتجسد على شكل جماجم منتشرة في الاناضول فحسب بل كانت منتشرة ايضا في كافة انحاء حضارات الشرق القديم ، ولدينا امثلة كثيرة من العصر نفسه في فلسطين ، اذ عثر على جماجم بشرية باعداد كبيرة مطعمة بالجص في مدينة اريحا الفلسطينية .

واذا كانت المراة تجسيدا للحياة ورمزا للوجود فان الخنزير الذي قتل ادونيس ـ اله الخصب في الحضارة الكنعانية ـ يجسد الفناء والموت . .

وهناك افروديت المراة الالهة التي اعادت الحياة للاله الشاب .

كما عثر على الاثنين معا (المراة والخنزير) في قبر واحد من قبور الالف السابع ق.م في الاناضول ، وعرف الخنزير كرمز للفناء والموت في حضارات ايران قبل اكتشاف الكتابة .

وهكذا نرى الحياة والعدم ضدين متلازمين في الوجود ويشكلان وحدة لاغنى لاحدهما عن الاخر (وحدة الاضداد) . وبقيت المراة في التطورات الدينية ـ بعد ان قطع انسان مرحلة العصور الحجرية ـ محور حياة الانسان وبعده المادي المحسوس الذي يعطي الوجود الانساني استمراره وعطاءه ، مرتبطة بالارض التي تمثل هذا العطاء .

وان كنا لا نستطيع ان نجزم بأن التماثيل الاولى للمرأة المصنوعة من الفخار ، كانت تجسيدا لالوهيتها الا ان تقديسها في تلك الفترة من العصور الحجرية ، استمر حتى العصور التاريخية التي عرفنا فيها المرأة الها واما للآلهة والبشر على السواء .

العـرس الالهي :

عندما وطىء الانسان عتبة التاريخ باكتشافه الكتابة في عصر فجر السلالات السومرية (نهاية الالف الرابع ق.م) وظهور المجتمع والسلطة في صورة المعبد والسدنة القائمين على خدمته ، لم يتغير احساس البشر بأنهم جزء من الالهة ومرتبطون معها جسديا بواسطة الكاهن ، قائد المجتمع ورأس السلطة الصاعدة ، تعاونه كبرى الكاهنات .

ومن هنا جاءت فكرة الزواج الالهي المقدس .

وكان اول من استخدم هذه التسمية هم اليونانيون ، عندما زفوا كبير آلهتهم (زيوس) الذي يمثل السماء ، الى الالهة انثى (هيرا) التي تمثل الارض .

ومن لقاء العروسين ــ السماء والارض ــ تخصب الحياة الانسانية .

فقد استعار علماء الاثار هذه التسمية ليطلقوها على حالات مماثلة لدى بقية الحضارات .

ويقوم (آن وكي) الالهان السومريان في حضارة الشرق العربي بهذا الدور قبل ان يكون للحضارة اليونانية وجود .

وكان يمثلهما على الارض كبار الكهنة من كلا الجنسين .

وقد يتم الزفاف المقدس لممثلي الآلهة في الحقول والمراعي .

وقد انتقلت فكرة تجسيد الآلهة على شكل البشر الى الحيوانات التي اخذت تتصرف تصرفها وتسلك سلوكها ، فهي تزف الى بعضها

بعضا في موسم الربيع وتحتفل كالآلهة ، والبشر ، ويرافق الاحتفال الموسيقى والرقص وموائد الطعام والشراب .

ومازال هذا الاحتفال الديني المهيب مستمرا حتى يومنا هذا في احتفالات اعياد الكرنفال حيث يتخفى المحتفلون باقنعة مصنوعة على شكل وجوه الحيوانات .

وما ظاهرة التصوف التي ظهرت عبر التاريخ في مختلف الديانات الا تكرارا لعملية الدمج الالهي مع البشر (الزفاف المقدس) .

فالمتصوف الذي يغوص في اعماق نفسه عبر بعض الطقوس الدينية ليصل الى حالات نفسية تمكنه من تحقيق الاتحاد الروحي مع الاله بشكل غير مباشر ، فهو انما ينشد الاندماج الكلي او الجزئي مع الطبيعة ، حيث يظهر الرب على شكل عريس متجرد عن الطبيعة المادية في حفل زفاف حقيقي .

ويضيع التباين بين الحقيقة الموجودة في الطبيعة كمادة محسوسة لا تخضع لمؤثرات فكر الانسان والذات البشرية العاقلة .

وقد تعرض هيرودوت الى ذكر احتفالات الزواج المقدس التي كانت تتم داخل المعابد البابلية خلال زيارته لمشرق الوطن العربي قبل ان تنطفىء آخر جذوة لحضارة الشرق ذات الجذور المتأصلة على ضفاف دجلة والفرات .

ونحن نعرف اليوم ان الزواج المقدس كان يتم منذ فجر الحضارة السومرية (الالف الرابع ق.م) بين الالهة السماوية (انانا) في شخص كبرى الكاهنات (ممثلتها الارضية) والاله العريس [دوموزي] الذي يمثله الملك ــ الكاهن الاعظم ــ على الارض .

وان هذا التقليد لم يظهر قطعا دفعة واحدة في الفترة التي نتحدث عنها وانما هو استمرار لماض سحيق تناولته الاجيال مشافهة قبل

التدوين الكتابي . وقد تتبدل الاسماء (أسماء الآلهة) وتتجدد أماكن العبادة الا ان المضمون يبقى واحدا في كل ما وصلنا من أدبيات شعوب المنطقة العربية .

فالاله العريس الذي تجسد في شخص الملك ــ الاله النصف اسطوري دوموزي ــ ملك اوروك اصبح اسمه فيما بعد تموز في الحضارة البابلية .

كما اندمجت عشتار ــ الهة الخصب السامية ــ بانانا سيدة السماء السومرية وانانا هذه ، تستقبل عريسها في رأس السنة لتحتفل وإياه عرسهما المقدس وهو الراعي الذي اختارته قرينا لها من البشر في مدينتها المقدسة (اوروك) لتمنحه الخلود والحياة الازلية .

الا انها تتخلى عنه وتتركه رهينة عوضا عنها في عالم الاموات .

ان [دوموزي] يمثل في هذه الحقبة من الزمن العناصر الاساسية للحضارة السومرية ــ النشوء والارتقاء ثم الموت والفناء ــ التي بدأت في أوروك ــ مدينة الالهة انانا ــ وموته يعني ان الانسان مهما بلغ من القوة ، لا يمكن ان يرقى الى مراتب الالهة .

، ويقر جلجامش خليفة [دوموزي] بهذه المسلمة (وهو يحمل ايضا بعضا من دم الالهة) فيرفض الاقتران بالالهة لان الخبرة والتجربة علمته ان الحياة الابدية ــ مطمح الانسان ــ لا تطالها يد البشر والاعمال الخالدة هي التي تتحدى فناء الابطال .

حديث الحب المكشوف :

حافظت المرأة على مواقعها المتقدمة التي كانت تحتلها خلال العهد الامومي رغم كل التغيرات والتبدلات التي طرأت على موقف المجتمع تجاهها ونظرة الرجل الدونية اليها في نهاية الالف الثالث وبداية الالف الثاني ق.م وبقيت آثار هذه المواقع عالقة في أذهان الادباء والمتشددين من رجال الدين .

فالكاهنة الكبرى ، ممثلة الهة الخصب ـ انانا ، عشتار ـ على الارض تستقبل عريسها الملك في مخدعها بعد انتهاء حفل الزفاف الالهي المقدس .

ويقوم الملك بدور الانسان الاله متقمصا شخص دوموزي . وقد جاء على لسان العروس في احد اناشيد الطقوس الدينية لعصر النهضة السومرية مخاطبة الملك شوسين بكلمات تقطر عذوبة ورقة تستحثه الوصال :

« ايها العريس ... يا غاليا على قلبي
ما اروع جمالك ، حلو كالعسل
ايها الاسد ... يا غاليا على قلبي
ما اروع جمالك ، حلو كالعسل
لقد هززتني ... دعني ارتعش واقفة امامك
ايها العريس ... خذني الى مخدعك
ايها العريس ... دعني امنحك الحب
فحبي شهي ، اشهى من العسل
وفي المخدع الجميل ...
دعنا نستمتع بجمالك الأخاذ
ولانك تحبني ، امنحني حبك الممتع
ياسيدي ... وحامي ذماري
يا شوسيني الذي اسعد قلب انليل
تلطفْ وامنحني حبك الممتع

وتصور قصيدة اخرى استعداد العروس للقاء عريسها الاله :

عندما اغتسل من اجل ثور الوحش
من اجل سيدي ...
عندما اغسل من اجل الراعي دوموزي ...

عندما اطيب فمي بالعنبر ...

عندما أزين عيني بالكحل ...

عندما يحيط خصري بكلتا يديه الجميلتين ...

ان هذه الاناشيد ، كما نرى دعوة سافرة جاءت على لسان المرأة لممارسة الحب المكشوف وتحريض الطبيعة على التجدد في ــ موسم الربيع وهو الموسم الذي يتم فيه الزواج المقدس احتفالا بعودة الاله المفقود الى الحياة حيث كن يعتقد انه كان يقضي نصف عام في عالم الاموات .

اننا لانستغرب الطلاقة وورود الحديث السافر عن العلاقات الجنسية بين المراة والرجل بهذه الصراحة وهذه الجراة وعلى لسان امراة في عصر من العصور التاريخية التي قطعت فيها الانسانية شوطا كبيرا في مضمار التطور الاقتصادي والفكري ــ بدليل ان رواسب العهد الامومي ظلت مستمرة حتى يومنا هذا وبقيت العلاقة الجسدية التي تربط بين الجنسين متعلقة بفكرة الخصب والانجاب ، منها أن المراة القروية في بلادنا ترضع وليدها على صدرها على مرأى من الناس دون احساسها بالحرج .

هذا المشهد يعيد الى ذاكرتنا صورة المراة العارية وهي ترضع طفلها في عصر من عصور ما قبل الكتابة .

نقول هذا رغم ان الرجل استطاع في عصور لاحقة ان يقلص سلطة المراة وان يعفيها من معظم مهامها الاقتصادية ويسلبها تلك الحقوق التي كانت تتمتع بها في العصر الامومي ورغم مكانتها كانسان رائد في حياة الفرد والمجتمع .

وهذا الامر يذكرنا أيضا بما جاء على لسان ابن هشام في كتاب السيرة في معرض حديثه عن المراة التي عرضت نفسها على والد الرسول محمد (ص) حين كان برفقة والده عبد المطلب :

« قال ابن اسحق : ثم انصرف عبد المطلب آخذا بيد عبد الله ، فمر به ـ فيما يزعمون ـ على امرأة من بني اسد . . . وهي اخت ورقة بن نوفل . . . وهي عند الكعبة ، فقالت له حين نظرت الى وجهه :

اين تذهب يا عبد الله ؟ قال : مع ابي ، قالت : لك مثل الابل التي نحرت عنك ، وقع على الان ، قال : انا مع ابي ، ولا استطيع خلافه ، ولا فراقــه » .

وبعد بناء عبد الله بآمنة ام الرسول (ص) يتابع ابن هشام روايته قائــلا :

« . . . ثم خرج من عندها (اي من عند آمنة) ، فاتى المراة التي عرضت عليه ما عرضت فقال لها :

مالك لا تعرضين على اليوم ما كنت عرضت على بالامس ؟ قالت له : فارقك النور الذي كان معك بالامس ، فليس (لي) بك اليوم حاجة . . . »

فرغم كل اساليب القهر والاستبداد التي مارسها الرجل على المراة بعد ان تقلص دورها في مجتمع الرجل ، استطاعت ان تفرض ذاتهــا حسبما ورد في النصوص القديمة ان بطريق الملاحم والاساطير او الاناشيد الشــعبية .

المراة الالهة في اسطورة الخلق :

رأينا كيف ان الانسان جسد قوى الخصب والانجاب في شخص المراة التي تصورها في اباكير تاريخه على شكل تماثيل طينية وفي اوضاع مختلفة

وان معظم هذه التماثيل تظهر المراة عارية ذات بطن كبيرة او جالسة على كرسي الولادة او واقفة تحمل رضيعا على ذراعيها .

وقد اعتبر علماء الاثار هذه التماثيل مظهرا من مظاهر تقديس المراة وعبادتها في اقدم العصور .

وقد برزت فيما بعد في شخصية الالهة الام في النصوص الكتابية .

ويرد وصف الالهة الام في النصوص السومرية بالام المنجبة للالهة وخالقة للبشر ، ولا نستطيع ان نحدد لها اسما معينا لان اماكن عبادتها تتوزع في مناطق متعددة في بلاد ما بين النهرين .

فكل مدينة من مدن الدول الرافدية لها الهتها الخاصة بها تقوم على حمايتها ضد اخطار العدو الخارجي .

وتعكس كثرة الاسماء الواقع السياسي غير الموحد لدول المدن السومرية ومن الطريف ان نذكر هنا احد اسمائها السومرية الذي هو محاكاة صوتية للفظ الام انتشر في كل انحاء (ماما ومامي ... الخ) الا ان المراة الالهة المنجبة والقادرة على الخلق لم تعد تحتل مركز الصدارة في المجتمع الكهنوتي الذي سيطر عليه الرجل بعد نشوء الدولة ، نرى اسمها يأتي في المرتبة الثالثة او الرابعة في عداد قوائم الالهة .

ورغم ذلك ، يذكرها كبار الملوك والحكام السومريين والبابليين امثال [ميزيليم واناتوم وحمورابي ونبوخذ نصر] على انها امهم وهم ابناؤها .

وتوصف بسيدة الالهة (بعلة ايلي) في احد النصوص البابلية .

كما تظهر جالسة على كرسي الولادة محتضنة طفلا في الاعمال الفنية او واقفة يبرز من كتفيها راس طفل من كلا الجانبين ولا تخفي النصوص تفوقها في الخلق على الرجل الاله .

فعندما يتبارى معها اله الاعماق والمحيطات (انكي) في عملية الخلق تبزه وتتفوق عليه وتثبت مقدرتها المستمدة من عصور ما قبل التاريخ على تجسيد فكرة الحياة والفناء معا .

فعندما تقوم بزرع ثمانية انواع من النباتات لتخلق منها اجيال الالهة كما تقول الاسطورة ، يلتهمها الاله الذكر (انكي) الواحدة تلو الاخرى

مما يثير حفيظتها ، فتسلط عليه ثمانية اوبئة كادت ان تودي بحياته لولا تدخل بعض الالهة لانقاذ حياته .

فتجلسه في حضنها وتستل من اعضائه الامراض الثمانية بواسطة ثماني آلهات خلقتهن لهذا الغرض .

فقدرتها لا حدود لها وتستطيع ان تسلب الحياة حتى من كبار ذكور الالهة مثل الاله (انكي) .

ان الالهة الام هي التي قامت بعملية خلق (انكيدو) صديق وند جلجامش وذلك استجابة لطلب الربة عشتار التي ارادت ان تنتقم من جلجامش .

ونراها تظهر في الملحمة باسم (آرورو) :

وحالما سمعت « آرورو » ذلك

تصورت في لبها صورة لآنو

وغسلت « آرورو » واخذت قبضة من طين ورمتها في البرية .

وفي البرية خلقت « انكيدو » الصنديد ، نسل « ننورتا » القوي » .

المراة الهة خصب :

تعودنا ان نرى المراة اما للآلهة وللبشر منذ عصور ما قبل التاريخ . ويرتبط اسمها بالخصب والاحياء للطبيعة .

نراها في العصور التاريخية ــ بعد اكتشاف الكتابة ــ توزع مهامها على عدد من الالهات الاناث اللواتي برزن في الملاحم والاساطير بنوع من « التخصص الوظيفي » . اكتفت الالهة الام بمهام الانجاب فقط في حين تركت وظيفة الخصب لآلهة اخرى تظهر بأسماء متعددة في حضارات الشرق العربي ، (فانانا) السومرية مثلا اندمجت (بعشتار) البابلية التي وفدت ارض الرافدين من منطقة الجزيرة عبر الارض السورية .

واسم (عشتار) هو الاصل المشترك لكل التسميات التي ظهرت في اماكن عبادتها في الوطن العربي مثل (عطار ، وعشتارت ، وعشتارته ، وعشيرة ، وعشيرات ، وعشتارات ، واثيرة) وحيث توصف في معظم الكتابات بالعذراء .

وكل هذه التسميات لا تتعدى معنى المخالطة والمصاحبة في قواميس اللغة العربية :

فعاشر معاشرة : المخالطة والمصاحبة وتعاشر واعتشر القوم وتصاحبوا واختلطوا والعشير القبيلة والقريب والصديق وزوج المراة وجمع العشيرة عشائر وعشيرات وتعني القبيلة وعشيرة الرجل بنو ابيه الادنون .

اما كلمة عطار : تعطرت البنت اقامت عند ابويها ولم تتزوج

والاثير : الفضاء وعند الاقدمين نجم في السماء .

ومن استعراضنا لكل اسماء آلهات الخصب نجد انهن يمثلن الالهة السماوية على شكل نجمتي الصباح والمساء (نجم فينوس ؛ الزهرة) ويصاحبن الرجل كزوجات وخليلات ، ويوصفن العذراوات رغم انجاب بعضهن ومعاشرة بعضهن الآخر لعدد كبير من الرجال .

وهن اصل العشيرة عند بدء تكوين المجتمعات البشرية وذلك عندما كانت المراة تمثل اصل النسب الاومي قبل أن تتباين مفاهيم العشيرة في عصور لاحقة .

ولا يعني وصفهن بالعذراوات كونهن غير قادرات على الاخصاب بل يعني انهن رمز الجنس والحب .

والعذرية جوهرهن لا يؤثر فيهن لقاء عابر او حمل او ولادة .

فالسيدة مريم ام السيد المسيح توصف بالعذراء رغم انجابها الطفل المعجزة .

فالمعروف هو ان دم الحيض عند العذراوات اكثر غزارة منه لدى المتزوجات وخصوصا بعد الوليد الاول ، وان انتهاء الحيض يعني ، انتهاء القدرة على الانجاب عند تجاوز المرأة لسن اليأس .

ولسوف نختار اكثر الاسماء شيوعا لآلهات اللواتي ورد ذكرهن الا وهو اسم (انانا) السومري مقابلا لعشتار البابلي .

(انانا ، عشتار) المتعددة الشخصية :

تطالعنا هذه الالهة اول ما تطالعنا في المخلفات الفنية النحتية والادبية في الجنوب الرافدي حيث شيد السومريون معبدا خصا لها في مدينة « اوروك » ، التي اعتبرت مدينتها المقدسة منذ فجر التاريخ الحضاري لبلاد الرافدين .

وتظهر على الوعاء النذري الموجود حاليا في متحف بغداد ، الذي يمثل اجمل واروع المشاهد المنحوتة للفنان السومري .

وتروي هذه المشاهد حكاية المجتمع الزراعي ، فنرى الماء (اصل الحياة) مصورة على شكل نهر في الشريط السفلي للوعاء .

وتلي ذلك مجموعة من النباتات ثم قطعان الماشية واخيرا قدس الاقداس في الشريط العلوي حيث تساق كل خيرات المجتمع الزراعي من غلال واضاحي الى حضرة الالهة حيث ينقلها المتعبدون تحت اشراف الكهنة وسدنة المعبد ولا نستطيع للاسف ان نتبين صورة الالهة نفسها نظرا للتشوية الذي لحق بالوعاء قبل اكتشافه انما نستدل عليها عن طريق الرمز الذي يشير اليها ، والذي اصبح بدوره فيما بعد اسمها نفسه بعد ان تطورت الكتابة وتحولت من حيز الصورة الى حيز الرمز المجرد .

اننا نرى من خلال هذه المشاهد ؛ ان المرأة مازالت تهيمن على قوى الخصب في الطبيعة وكل ما تنتجه الطبيعة من خيرات مسخر لها وللقائمين على خدمتهـا .

وعندما تختفي من الارض يعم الجفاف ويسود القحط وتفنى الكائنات وتموت أحاسيس البشر .

واننا لنشاهد اجمل الصور التي تصف الحالة المزرية التي وصلهـا الانسـان والحيوان على السـواء بعد نزول عشتار الى عالم الاموات في النص الاشوري التالي :

« منذ ان نزلت « عشتار » الى ارض اللاعودة
لم ينز الثور على البقرة ، ولم يلقح الحمار الأتان
وفي الحي لم يضاجع الرجل العذراء
فالرجل يرقد في مخدعه ، والعذراء على جنبها »

وعشتار هي الالهة الانثى الوحيدة التي لم تترك وظيفة من وظائف الكون دون ان تشارك فيها .

وعلينا ان ندرك ان دراسة النصوص المتعلقة بها تعود الى فترات متعددة وهي انعكاسات لحالات المجتمع وتجسيد لتصوراته الدينيـة والفكرية والاقتصادية والسياسية ، فهـي سيدة الحيوانات والنباتات والالهة المحبوبة لدى البشر القريبة من نفوسهم وغرائزهم ، وهي نجم السماء تطالعهم به صباحا ومسـاء .

وباختصار هي كل شيء بالنسبة للانسـان في بداية تكوين المجتمع الزراعي قبل ظهور الملكية الخاصة والايدلوجية السياسية لرجال الدين التي مهدت السـبيل الى نشوء الدولة والسلطة المنظمة .

غير اننا نرى عشتار هذه تكسب صفات جديدة تتلاءم والوضع السياسي القائم والمتطور لدول المدن الرافدية التي تتناحر في سبيل السلطة ، فبعد ان كانت الهة خصب وتناسل تاخذ طابعا عسكريا الى جانب كونها الهة حب .

يسألها رجال السياسة المتمرسون عن شؤون الحرب والغزوات ، وعندما تذهب عشتار الى الاله (انكي) شاكية طالبة المزيد من السلطات، والمزيد من الوظائف الالهية يجيبها الاله المعروف بالحكمة ، بما يلي : حسبما ورد في النص السومري :

« انليــل

جعلك ترتدين هناك ثوب « قوة الفتى الشاب »

وانت هيمنت على الكلمات التي ينطق بها « الفتى الشاب »

واشرفت على العصا والصولجان والمحجن (رمز الملكية)

فماذا تريد طلى هذا ايتها العذراء « اننانا » ؟

وانت تجيبين على اسئلة السائلين عما يخص الحروب والغزوات

وانت التي لايمل المغرمون بها من التطلع اليها .

ورغم الشخصية التي اكتسبتها بعد نشوء دول المدن السومرية يبقى جوهر الانوثة اصيلا في نفسها ، لانه الاساس الاول الذي بنت عليه شخصيتها في بدء تكوينها الالهي في المجتمع الزراعي .

وان اضافة النفس العسكري الى شخصيتها لا يمنعها من ان تظهر بكامل انوثتها وفي ابهى حللها من زينة النساء وعطورهن اثناء مقابلتها لابيها (آن) كبير الالهة في مهمة حربية عاجلة .

« ارتدت اننانا ابنه [سن] ثوب السيادة الانثوية

واحاطت نفسها بالجمال

وزينت جبهتها ببريق الرعب الاحمر

وقلدت جيدها بعقد من العقيق

تقدمت برجولة حاملة الصولجان بيدها اليمنى

فوق ثور من اللازورد

خرجت متباهية من السماء عند الغسق

الى شارع البوابة

امام اعجاب الناس »

تظهر (انانا ــ عشتار) في النصوص ابنة اله القمر (سن) وتارة اخرى ابنة كبير الآلهة (آن) .

ولا يتورع عابدوها ان يزفوها الى ابيها (آن) لرفع مرتبتها في سلم الالوهية .

فقد جاء على لسان الكاهنة « انخدوانا » ابنة الملك الاكادي سارغون « ٢٤٠٠ سنة ق.م تقريبا » في احد تراتيلها المقدسة الحفل الزفاف الالهي ما يلي :

« معا مع آن العظيم

ترقدين في غرفة النوم المقدسة »

صراع السلطة في شخوص الآلهة :

عرفنا مدى السلطة التي كانت تتمتع بها المرأة في عصور ماقبل التاريخ ومن خلالها صورة المجتمع الرعوي ثم الزراعي .

الا ان هذه السلطة لم تفقدها المرأة دفعة واحدة بظهور الملكية وجهاز الحكم المستبد بيد الرجل فمنذ فجر التاريخ والالهة (انانا ــ عشتار) تحتل مركز الصدارة في طقوس العبادة في الجنوب الرافدي .

ويمكن ان نعتبر اوروك (وهي اهم دول المدن السومرية) مدينتها المفضلة ، بل مملكتها المسؤولة هي شخصيا عن حمايتها ورفع شأنها من بين كل دول المدن ، وينافس الالهة (انانا) الاله الكبير (انكي) في مدينته (اريدو) .

ويتجلى الصراع بين المدينتين في محاولة كل منهما انتزاع مركز الصدارة من الاخرى – اي ان الصراع بدا بين سلطة الرجل الناهضة وسلطة المراة التي هي في طريقها الى التراجع ، اذ ان النواميس المقدسة ومقادير الكون اصبحت في حوزة الاله (انكي) وهذا يعني علو شأن الدولة التي يعبد فيها كإله ذكر .

الا ان (انانا – عشتار) تصمم على انتزاع النواميس المقدسة منه ونقلها الى مدينتها (اوروك) غير آبهة بالتصدي لاله خطير امثال (انكي) .

فتقوم برحلة ودية الى (اريدو) مستخدمة اساليب المراة في الغواية وتحصل على مبتغاها بالحيلة والخداع بعد ان تترك الاله الرجل ، المتسم بالحكمة والوقار ، ثملا نشوان قابعا في فراشه .

ويحاول الاله الحكيم استعادة ما فقده بعد ان يثوب الى رشده في اليوم التالي .

نفهم من خلال هذه الاسطورة ان هناك تطورا ما قد حدث في العلاقات الاجتماعية .

فلم تعد المراة أصل الوجود وذات القدرة المبدعة على الخلق ، بل اصبحت انثى ذات مفاتن جسدية يمكن ان تستغلها في تحقيق مآربها .

وهذا في حد ذاته اكتشاف جديد ، لم تعهده المراة في نفسها من قبل حين كانت العلاقات الجنسية عفوية وطبيعية ومقدسة تؤدي دورها الطبيعي في استمرارية الخلق وتجديد الوجود في المجتمع البسيط الخالي من عقدة التملك الفردي .

وطبيعي ان يتقهقر وضع المراة اجتماعيا ، فقد اكتشفت المراة ايضا، ان لها مفاتن ذات تأثير على الرجل يمكن استغلالها للايقاع به بطريق الغواية ، ضمن الحدود التي لم تزل العلاقات الاجتماعية تسمح لها بمقارعة الرجل على السيادة او ان تستعيد بعضا من حقوقها التي فقدتها او تحاول الاحتفاظ ، قدر الامكان ، بحقوق قد تفقدها غدا .

رواسب الماضي :

تذكر احدى الاساطير السومرية ان الالهة (أنانا ــ عشتار) غفت تحت احدى الاشجار الباسقة في حديقة البستاني « شوكا ليتودا » بعد أن انهكها التعب من جولة كونية قامت بها .

فاستسلمت لسلطان الكرى في بستان جميل لاحد الناس من البشر .

ويبدو انها كشفت عن مفاتنها الانثوية خلال النوم ، فوقعت عينا البستاني على مفاتن جسدها فاغتصبها وهي نائمة .

وعندما صحت من غفوتها ورات ما حل بها .

استشاطت غضبا وحاولت الانتقام من البستاني ، غير انها لم تستطع العثور عليه ، اذ انه هرب من المدينة عملا بنصيحة والده .

فلجأت الى الاله الذكر الحكيم « أنكي » طالبة النصح والارشاد وتفلح اخيرا في تسليط ثلاثة انواع من الاوبئة على بلاد سومر ، يذهب ضحيتها الصالح والطالح في آن واحد وينجو الآثم من العقوبة الجماعية .

تصور لنا هذه الاسطورة بعض رواسب المجتمع المشاعي المنقرض ، فلم يعد الانسان جزءا من الآلهة يتحد معها متى شاء بل عبدا مسخرا لخدمتها ، واصبحت المراة سواء اكانت الهة او بشرا اداة متعة ووسيلة ترفيه للذكر تدخل في نطاق ملكيته الفردية .

وان محاولة الفلاح « شوكاليتودا » تخطي الحدود الجديدة التي رسمها له المجتمع باخلاقية اقطاعية مغايرة لما سبق ، لم تعد تتلاءم مع مفاهيم الوضع القائم ، فالالهة (انانا) انفصلت عن البشر ولم تعد ملكا لهم والتقرب اليها بطريق الاندماج الجسدي كما كان يحدث في الماضي اصبح ضربا من ضروب المحال ، بل تعديا على حرمة املاك الآخرين .

كما تظهر الاسطورة ايضا المدى الذي وصل اليه وضع المرأة الاجتماعي ، (فانانا) الربة القوية التي كانت تسيطر على مقادير البشر خيراً كان أم شراً .

نراها عاجزة عن اتخاذ اي اجراء انتقامي لشرفها المثلوم من فلاح بسيط من بني البشر .

فتلجأ باكية مستضعفة الى الاله الذكر علويتنف الى جانبها في محنتها .

ويتضح ضعف هذه الالهة اكثر فاكثر من ملحمة جلجامش المضافة في النص السومري (قبل ان تتخذ الملحمة شكلها النهائي المعروف في العهد البابلي القديم) .

فهي لم تطلب العون من الآلهة الذكور فحسب بل تلجأ الى الابطال من البشر .

تقول الاسطورة السومرية :

ان الرياح الجنوبية اقتلعت احدى الاشجار والقتها بعيدا عن ضفة نهر الفرات فعثرت عليها الالهة (انانا) واحاطتها بالعناية والرعاية في بستان معبدها الخاص في (اوروك) لتصنع من خشبها سريرا وعرشا اليها .

الا ان المخلوقات الدنيا لا تقيم وزنا او اعتبارا لممتلكات الربة فتتخذ (ليليث) مأوى لها ولفراخها في جذور الشجرة ويصنع الطائر المفترس (امد كود) عشا لفراخه فوق قمتها .

فتلجأ الربة (انانا) الى اخيها شاماش اله الشمس والعدالة طالبة العدل والانصاف واعادة الحق الى نصابه بعد ان تلوف امامه الدموع السخية وبتملكها اليأس والقنوط وهي التي ماعرف الاسى والحزن يوما طريقا الى قلبها وهي التي تسبب البهجة والسرور في قلوب متعبديها.

فيدلها شاماش على بطل من البشر اسمه جلجامش ليقوم بمساعدتها.

ويستطيع هذا البطل ان يحرر الشجرة بما عرف عنه من قوة وبأس، فتكافئه على صنيعه بهدية صنعت من الشجرة المحررة .

فيستغل جلجامش هذه الهدية لاستعباد شعبه ، فيستأثر بالعذارى ويفصل الابن عن ابيه والزوجة عن زوجها :

« لم يترك جلجامش ابنا لابيه
ومظالمه لاتنقف ليل نهار
ولكن جلجامش هو راعي (اوروك)
انه راعينا ، القوي ، الجميل ، الحكيم
ولم يترك جلجامش عذراء لحبيبها
ولا ابنة مقاتل ، أو خطيبة نبيل »

وهكذا تصور لنا النصوص السومرية العلاقة العاطفية التي كانت تربط بين الالهة (انانا) وبين (دوموزي) الذي رفع الى مرتبة الآلهة .

ومن خلال تلك النصوص ، نستشف وضع المرأة الاجتماعي الذي يشبه الى حد كبير وضعها في مجتمعنا الشرقي الراهن .

فلقاءات الالهين العاشقين كانت تتم خلسة وبعيدا عن أعين الرقباء والفضوليين .

وعندما يدركهما الوقت وهما يستمران نشوة الحب في ضوء القمر تتوسل انانا الى دوموزي ليتركها تذهب الى البيت :

« ما هذا يا ثور الوحش . اخل سبيلي
باكولي ــ انليل (اي ياصديق الاله انليل) اخل سبيلي لابد
ان ارجع الى البيت
فباية حيلة سأتذرع الى امي ؟
باية حيلة سأتذرع الى امي ننكال ؟

والمقصود بنعت (دوموزي) الثور الوحش ، تصوير مقدرته على الاخصاب .

وكان يطلق هذا اللقب على كل ملك خلال احتفالات الزواج الالهي المقدس الذي مر ذكره .

وكثيرا ما كان (دوموزي) يلقن معشوقته الاكاذيب لتبرير غيابها عن بيت والديها ، كان يقول لها بأنها كانت عند احدى صديقاتها ، مثلا .

ويصور احد النصوص فرحة الالهة العاشقة التي يقودها حبيبها الى بستانه :

« ادخلني اليه
ادخلني اخي الى جنينته
فتمشيت معه بين اشجارها الباسقة
وتوقفت معه عند اشجارها الممتدة
ثم جثوت كما يجب عند شجرة التفاح »

وتتمنع انانا عن خطيبها بدلال وخفر العذارى عندما يطرق بابها ، بقصد الزيارة ، فيخاطبها قائلا :

« اختاه لم اغلقت عليك الباب ؟
ياصغيرتي لم اغلقت الباب ؟ »

وترد عليه « انانا » مبررة تأخرها في فتح الباب الموصد في وجهه :

«كنت استحم ، كنت اغتسل بالصابون
اغتسل بالابريق المقدس
اغتسل في الصابون في الطست الابيض
كنت ارتدي ثياب الملوكية ، ملوكية السماء .
ولهذا اغلقت على نفسي الباب »

ويذكرها (دوموزي) بالهدايا التي جلبها لها فيقول :

« أختاه الى قلبك انا من جلب الشهد
اجل الى قلبك ، القلب المحبوب انا من جلب الشهد
اختاه باضوء النجوم ، باشهد الام التي ولدتها
اختاه بامن جلبت لها ارغفة الخبز خمسة خمسة »

ان كثيرا من الدارسين يفسر كلمات ام ، أخ ، اخت ، ابن التي يرد ذكرها على لسان (اثانا ــ دوموزي) في مخاطبة احدهما الآخر بانهـا تعني صلة النسب بقدر ماتعني عمق العواطف وصدقها .

وهذه الالفاظ لا يقتصر استعمالها على هذين الالهين في الجنـوب الرافدي فقط ، بل تتردد كثيرا على لسان بعل وعناة وبعل وعشتاروت وادونيس وافروديت في ادبيات الحضارة الكنعانية وادبيات الحضارات الاخرى المتأثرة بالحضارة الكنعانية .

واننا نعتقد ان هذه الكلمات لا تعبر عن عمق الاحاسيس البشرية بين العاشقين فحسب بل تعني صلة النسب ايضا ، وهي بقايا عـلاقات اجتماعية كانت سائدة في العصر المشاعي قبل ان تكون اللغة مكتوبة او حتى مكتشـفة بعد .

ثم تسربت الى لغـة الادب في الملاحم والاساطير والاناشيد الدينية والشعبية في عصر تغيرت فيه كل القيم الاجتماعية والاخلاقية والدينية .

وفي عصرنا الحاضر ، لا يجرؤ الرجل ان يخاطب حبيبته أو زوجته باختي او امي ولا المرأة زوجها او عشيقها باخي او ابي بل على العكس من ذلك ، فعندما تتعلق امرأة ما برجل وترغب فيه زوجا ، وهو يريد ان يصرفها بكياسة وادب يقول لها :

انا احبك فعلا ، ولكن حبي لك مثل حبي لأختي .

وعندما تكون الحالة معكوسة تقول المرأة للرجل :

احبك مثل اخي .

فهذه الكلمات لا يمكن ان تستخدم في حالة من حالات التعبير عن مشاعر الحب الذي يقود الى الزواج او العلاقة الجنسية .

واحد النصوص السومرية يصف حزن (انانا ـ عشتار) على (دوموزي) بعد اختفائه في العالم السفلي مخاطبا اياها ما يلي :

« بسبب زوجك الأسير
بسبب ابنك الأسير
اصبح غضبك كبيرا
ولم يبرد هـواك »

ويقول نص آخر :

« بكت انانا على زوجها الأسير
على ابنهـا الأسير
على زوجها المقتول
على ابنهـا المقتول »

فالزوج والابن يتبادلان الدور في حياة الالهة (انانا ـ عشتار) حيث انها ، كما يتفق معظم الدارسين على انها الالهة الأنثى الوحيدة التي تكاد ان تنفرد بكونها عاقرا ، رغم كل مغامراتها الجنسية .

وقد رأينا ان كبير الآلهة (آن) رفع مرتبتها في سلم الالوهية فجعل منها زوجته بعد ان كانت ابنته .

ويمكننا القول ان الحياة العائلية للآلهة هي الحياة العائلية نفسها التي كان يحياها البشر .

ففرحة (انانا ــ عشتار) كبيرة لا توصف ، عندما تسمع من عشيقها (دوموزي) عن عزمه المجيء الى بيت اهلها ليطلب منهم يدها ، وبعد ان يتم زواجهما تقع مشادة كلامية ، يفتخر كل منهما بعلو نسبه وبالوضع الاجتماعي المرموق الذي يحتلانه .

وفي الطريق الى بيت الزوجية يلقن دوموزي عروسه آداب السلوك والمعاملة وكيف عليها ان تتصرف تجاه امه وابيه واخوته .

الا انها على ما يبدو ، تشق عصا الطاعة على اوامره ونواهيه وتفرض ذاتها في البيت وعلاقاتها مع الآخرين حتى انها تتخلى عنه وتودعه العالم السفلي لتنجو هي بنفسها من الموت .

وعندما تهيم بجلجامش البطل الاسطوري وتطلب منه الزواج يعرض عن حبها ، يقول نص الملحمة الشهيرة :

رفعت « عشتار » الجليلة عينيها ورمقت جمال جلجامش (فنادته) :

« تعال يا جلجامش وكن عريسي الذي اخترت
امنحني ثمرتك (بذرتك) اتمتع بها
كن انت زوجي وأكون زوجك »

ثم تعدد عشتار المكاسب التي سوف يحصل عليها جلجامش اذا رضي بها زوجاً .

الا ان جلجامش يستهتر بكل المغريات المعروضة ويتطاول على مقام الإلهة فيعيرها بعشاقها الذين هامت بهم قبله ثم تخلت عنهم فيقول :

« تعالي اقص عليك (مآسي) عشاقك :
من اجل تموز حبيب صغرك (صباك)
قضيت بالبكاء والنواح عليه سنة بعد سنة
لقد رمت (طير) الشقراق المرقش
ولكنك ضربته وكسرت جناحيه
ورميت بحبك الأسد الكامل القوة
ولكنك حفرت (للايقاع به) سبع وسبع وجرات
واحببت « ايشولنو » بستاني ابيك
وانت لما سمعت كلامه هذا ضربته بعصاك ومسختة ضفدعا
وجعلته يقيم في عذاب ومذلة
فلا يستطيع ان يعلو مرتفعا ولا ينزل منحدرا
فاذا ما احببتك فستجعلين مصيري مثل هؤلاء »

ان موقف جلجامش البطل في هذا المشهد الدرامي يغاير تماما الاعمال العظيمة التي قام بها من اجل (انانا ـ عشتار) فهو « سيد كولاب ، الذي تى باعمال مجيدة للالهة انانا » .

وكولابْ حي كبيرَ من مدينة (اوروك) التي كان يحكمها جلجامش ، وقد شيد فيها المعابد الفخمة لإلهته الجليلة عشتار ، فكيف نفسر هذا الموقف المعادي ؟

لم نعثر في كل النصوص الادبية المكتشفة في مشرق الوطن العربي على اية اشارة تنبيء عن تحدي البشر للآلهة الذكور مهما بلغت القحة في البشر والاستخفاف بالقيم الدينية السائدة آنذاك .

في حين تتعرض المرأة الإلهة من الاهانات في شخص (انانا ــ عشتار) من قبــل اناس عاديين مثل البستاني (شوكا ليتودا) او سـواهم ممن يحملون في اجسـادهم بعضـا من دم الآلهة مثل جلجامش .

واصبحنا الآن ، نعرف من هي الالهة عشتار ، اليست هي التي ثبتت الملكية في الارض ودعمتها في بداية الخلق الكوني ؟

عندما أعطت الراعي عصا الرعاة ؟

« عندما لم يكن من يحمل التاج والصولجان
وعندما لم تخلق بعد أطراف الدنيا الاربعة
بحثت عشتار عن راع للشعوب
بحثت عشتار عن ملك »

أوليست هي التي كانت تثير الرعب والخوف حتى في نفس كبير الآلهة (آن) عندما جهزت حملة عسكرية ضخمة ضد (ايخ) (منطقة جبلية في شمال العراق) فظهرت على صفحة السماء مجهزة بسبعة كلاب ضخمة ، مما اجبر والدها (آن) على الوعد بامتلاك طقوس الآلهة وكبار الملوك ، فجاء الملوك اليها راكعين يكنسـون الارض بلحاهم امام اقدامها أولم تسجد لها الجبال ؟

فما الذي تغير حتى تتلقى عشـتار العظيمة الصفعة تلو الاخرى وتسيل دموعها على خديها أمام حضرة ابيها شاكية متذمرة ؟

« صعدت عشتار ومثلت في حضرة أبيها « آنو »

وفي حضرة امها « أنتم » وجرت دموعها وقالت : ــ

يا أبي ان جلجامش سبني وعدد فحشائي وعاري »

ففتح « آنو » فاه وقال لعشتار الجليلة : ــ

« انت التي تجرشت فجنيت الثمرة
وعدد جلجامش فحشاءك وعارك »

الا ان كبير الآلهة يستجيب لتوسلاتها ويرسل ثور السماء لتنتقم به من جلجامش .

غير ان الصديقين جلجامش وانكيدو ، يتمكنان منه ويصرعانه ويقذف (انكيدو) فخذ الثور في وجه الإلهة مكيلا المزيد من الشتائم :

« أما عشتار فانها اعتلت فوق اسوار « اوروك » العالية

صعدت على الشرفات وقذفت بلعناتها (صارخة) :

« الويل لجلجامش » الذي دنسني واهانني وقتل ثور السماء
وما ان سمع « انكيدو » هذا القول من عشتار
قطع فخذ الثور السماوي وقذفه بوجهها وقال :
« لو مسكت بك لفعلت بك مثل ما فعلت به
ولربطت احشاءه باطرافك »
فجمعت عشتار بنات المعبد وبغاياه والمخصيين
واقامت البكاء على فخذ الثور السماوي »

ويمكننا ان نستنتج مما تقدم ، بأن صعود وهبوط الإلهة الأنثى يرافقهما صعود وهبوط في وضع المرأة الاجتماعي عبر مسيرة التاريخ الطويل الذي قطعته الانسانية في حضارة المشرق العربي .

فعشتار الهة السماء تحمل كل صفات المرأة المتقلبة التي أضفاها المجتمع عليها منذ بداية تكوينه الحضاري حتى انطفاء جذوته بدخول المستعمر الاجنبي (الفارسي واليوناني) .

فالالهة عشتار امرأة حاقدة وشجاعة ومخادعة وطموحة وعدائية ومحبوبة ومحبة .

وقد مجدتها الاساطير ومدحت اعمالها وسلطاتها الواسعة الملاحم في جميع مراحل الوجود البشري في المنطقة العربية .

فعندما كانت قوية اختارت لنفسها عريسا من البشر [دوموزي ـ (تموز التوراة)] الذي اصبح سنة في قوانين المجتمع وقاعدة متبعة .

فكل ملك يتلقى منها عصا الرعاة ويصبح عريسها المختار في رأس كل سنة وكانت هي خلال مراسيم الزواج الالهي البطل المسيطر الفعال .

اما الملك فكان الرجل المطاوع غير المقاوم المفتون بهبات ثدييها ، التواق الى الخلود بالالتحام الجسدي معها ، الا ان مجتمع الرجل وليكن (دوموزي) ـ الانسان المؤله ـ كره ان يكون تابعا لامرأة حتى لو كانت الهة .

لذلك كان يتحين الفرص ليلعب دور الرجل القوي الجبار خلال فترة غيابها في عالم الاموات .

فاسلمته ، هي بدورها ، الى الهة الموت .

ونرى سلطات الالهة الام ينتزعها رجال الدين الذكور ليعطوها الى إله ذكر مثلهم فحل « انكي » إله الاعماق والحكمة محل الالهة الام في الخلق والتكوين .

وفي محاولة لتبرير وتلطيف هذه القرصنة الدينية من قبل الذكور المتنفذين في المعابد جعلوا منه ابنا لها . ولم يعد في مقدرة مجتمع الرجل أن يتصور الهة انثى مثل عشتار تجتمع مع كبار الالهة في مجلس حربي ان لم تكن رجلا لذلك صوروها نقشا على الواح النحت في شكل رجل ملتح .

وهاكم احـد ملوك ماري يقـدم تمثاله مشفوعا بالنص التالي الى الإلهة عشتار :

« لامجي ماري ، ملك ماري ، الكاهن الاكبر للاله انليل ،
قدم تمثاله وقفا للالهة عشتار الرجل »

فأين إلهة الحب والجمال ، الانثى التي كانت تستمد القسـاء مريسها في ابهى حللها ؟

« تستحم الالهة وتمسح نفسها بالزيت
وترتدي ثوب الملوكية النسائي
وتكحل عينيها وتهتم بزينتها
وقصة شعرها المتهدل على شكل
جدائل فوق جبينها وجيدها
وتلبس الخاتم الذهبي
وتتقلد بعقود الاحجار الثمينة »

ورغم احتفاظ الانسان في ذاكرته بعلاقات اجتماعيـة ـ منذ عصور ما قبل التدوين الكتابي ـ كانت مقبولة ومعترف بهـا في حينها الا أن التطور التاريخي الحتمي لطبيعة المجتمعات جعـل من السير فيها في عصور لاحقة . وتطور العلاقات الاجتماعية بين البشر يقتضي بالضرورة ، تطورا مماثلا لمجتمعات الآلهة .

ولا يمكن تفسير وضع المرأة الالهة وتارجحه علوا وانخفاضا بمعزل عن الخلفية التاريخية المادية .

فثمة علاقات بسيطة وساذجة اندثرت لتحل محلهـا علاقات اكثر تعقيدا او اكثر تأزما .

وقد انعكس ذلك في فهم الانسان للحياة والوجود ووضعه في الكون وارتباط احدهما بالآخر .

وتبقى المراة رغم كل ما عانته من صنوف الاضطهاد والظلم في مجتمع الرجل حيـة مقدسة في ذاكرة الشعوب ولا تتخلى عن الوهيتها التي اكتسبتها يوما ما رغم اندماجها الكلي في الإله الذي يبدو لنا كله ذكرا .

كما تصوره النصوص العبرية المقدسة ، حيث اننا نستشف بعض الاصداء الخافتة للمراة الالهة في تلك النصوص .

فمثلا ، بعض المتصوفين اليهود الذين يدعون (بالكبليين) يتحدثون عن عنصر انثوي في (يهوه) يدعى (شيكناه) مساويا لعنصر ذكر يسمى « الواحد المقدس » .

ويرد في كتاب (الكبليين) المعروف بـ (الزوهار) ان موسى بن الله كان له علاقة فعلية بعنصر (شيكناه) في (يهوه) ونقرا في سفر الخروج ، الاصحاح الرابع ٢٤ ــ ٢٦ ما يلي :

« وحدث في الطريق في المنزل ان الرب التقاه (موسى) وطلب ان يقتله .

فأخذت صفورة (زوجة موسى) صوانة وقطعت غرلة ابنها (المقصود غرلة موسى) ومست رجليه (رجلي الرب) فقالت انك عريس دم لي .

فانفك عنه . حينئذ قالت عريس دم من أجل الختان » .

وهذا صوت بعيد ولكنه ليس خافتا يذكرنا بـ « الزواج المقدس » بين تموز وعشتار .

مراجع البحث :

١ ــ انجلز : أصل العائلة ونشوء الملكية الخاصة والدولة ــ برلين ١٩٧٠ (باللغة الالمانية).

٢ ــ ب. برنتيس : من شانيدار الى أكاد ــ برلين ولايبزغ ١٩٦٨ (باللغة الالمانية) .

٣ ــ هانس. ف. هاوسيك : آلهة وأساطير في الشرق الادنى ــ شتوتغارت ١٩٦٥ (باللغة الالمانية) .

٤ ــ ويليام. و. هالو : نساء سومر (في مجلة المكتبة الرافدية) ماليبو ١٩٧٦ (باللغة الانكليزية) .

٥ ــ دار الكنوز الادبية : السيرة النبوية لابن هشام .

٦ ــ نائل حنون : شخصية الالهة الام ودور الالهة « اننا » عشتار في النصوص السومرية والاكادية في مجلة سومر الجزء ١ ــ ٢ المجلد ٣٤ ــ ١٩٧٨ ، بغداد .

٧ ــ د. فاضل عبد الواحد علي : أناشيد الزواج المقدس لتموز ونشيد الانشاد لسليمان في مجلة سومر السالفة الذكر .

٨ ــ طه باقر : ملحمة كلكامش . طبع وزارة الاعلام العراقية ١٩٧١ م .

٩ ــ فراس سواح : مغامرة العقل الاولى ــ دمشق ١٩٧٦ .

١٠ ــ دار الكتاب المقدس : الكتاب المقدس . القاهرة ١٩٦٨ .

١١ ــ دار المشرق : المنجد في اللغة والاعلام ، بيروت .

مطالعات :

صدقي اسماعيل مشروع لم يكتمل

قراءة جديدة في كتاب «الله والفقر»

صالح الرزوق

يقول مالرو : ان الرواية الحديثة وسيلة محظوظة للتعبير عن العنصر المأساوي في الانسان(١) . واعتقد ان صدقي اسماعيل من المؤمنين بهذه المقولة . فمجموعته القصصية اليتيمة (الله والفقر) لا تكتفي بالبحث عن المأساة في الهزيمة الاجتماعية والحضارية ؛ بل تقدم المسألة على انها عطب وعطالة ووهم اصبح اكبر من الحقيقة .

وهذا يحيلنا الى دراسته القيمة (العرب وتجربة المأساة) التي تجد المأساة في البداية والنهاية من كل حضارة . فالحضارة تبدا منذ ان يعي الانسان مكانته في العالم ، ويتبين الفجوات الفاجعة في وجوده ، كالموت والالم والخطيئة ، على انه يدرك في الوقت نفسه انه الكائن الوحيد الذي يستطيع ان يتمرد على الواقع ، ويتدخل في صنع مصيره . ولهذا اطلق ماكس شيلر على الانسان اسم (الكائن المحتج) . ولهذا ايضا كان التمرد هو كلمة السر في اي حضارة(٢) .

---

(١) ثلاثة روائيين فلسفيين ص ٩ .

(٢) أعمال صدقي اسماعيل الكاملة — الجزء الاول ص ١٩٦ .

وقد توصل اسعد الوراق الى هذه الحكمة الخالدة حينما راودته رغبة جامحة في الاستمتاع بالحياة(٣) . فهل نقول ان اسعد الوراق هو احد الاصوات الخفية التي تنقل آراء وتطلعات صدقي اسماعيل بالذات؟.

ذكر اسعد ذات مرة : ان الله لا يخلق الناس كي يذعنوا لما يقدره عليهم فحسب ، بل انه يفعل عن طريقهم اعمالا خارقة(٤) .

وفسر مقتل عصفور صغير اصطاده ببارودته قائلا : لقد مات هذا العصفور لأن الله انهى اجله ، هذا لا شك فيه ، ولكن من الذي نفذ ارادة الله(٥) ؟

مثل هذه التساؤلات والافكار التي يثيرها اسعد تفضح طبيعة العلاقة الماثلة بين بطل القصة والكاتب ، ولعلنا نجزم بأنهما كل لا يتجزأ .

وعلى اعتبار اسعد الوراق نموذج البطل الفلسفي الذي يجسد نظرية الكاتب واجتهاداته الفكرية ، يمكن ان نجد فيه الاقطاب الرئيسية لمغزى القصة عند صدقي اسماعيل . وهي محددة بالمأساة والثورة او الفاجع والتمرد .

☆ ☆ ☆

تبدأ قصة الله والفقر من مأساة وتنتهي بمأساة . وهذا يعني ان ابطالها والواقع الاجتماعي الذي تبحث فيه يعيشون حالة نهوض وثورة .

وحتى لا نقع في مغالطة من نوع ما تجب الاشارة الى ان هذه القصة قصة أفكار . فالبطل الاول فيها وهو (اسعد الوراق) يمثل البرجوازية

(٣) الاعمال الكاملة ــ الجزء الثالث ص ٣٢ .

(٤) الاعمال الكاملة ــ الجزء الثالث ص ٣٣ .

(٥) المرجع السابق .

والنكوص في قلب المجتمع الاقطاعي ، ونظيره (عبد الحي الراشد) يمثل التمرد والثورة حتى ان في اسمه وكنيته مداليل تشرح ذلك .

وان صفات (عبد الحي الراشد) المعنوية والمظهرية تحمل بعض ملامح طريق الثورة / المغامرة التي طالما احبها صدقي اسماعيل ودرس نماذجها ابتداء من طرفة وانتهاء بالمتنبي .

فالظاهرة الاكثر الحاحا في ادب صدقي اسماعيل علاقته الوثيقة بالفلسفة ؟...

وحتى لا يساء فهم هذه الملاحظة اود تذكير القارىء باتقان صدقي اسماعيل لاصول القصة الكلاسيكية ، فكتابته لها تأخذ صفة الذكاء والمهارة .

وقصة (الله والفقر) تقوم على مداميك فنية راسخة ، قلما نعثر على امثالها في قصة الخمسينيات او حتى في قصة الستينيات .

وان المعالجة الفلسفية تمنحها جوهرا ديناميكيا فيه تانق الادب وايجاز الفلسفة وصراحتها .

* * *

لا شك ان قصة الجيل الوسيط تلميذة في مدرسة الادب العالمي الكلاسيكي والحديث . وهي غير مخلصة في انتمائها الى انجازات الجيل الخمسيني .

فوليد اخلاصي الذي فاجأنا بمجموعته القصصية الاولى (قصص) بعيد كل البعد عن سعيد حورانية او فؤاد الشايب او العجيلي . ولكنه شديد الاتصال بواقع الهزيمة الحضارية ، الجانب المأساوي الوجودي منها على وجه الخصوص . وهذا ما يتأكد لدينا في مجموعته التالية (الطين) التي تبحث في هزيمة الجوهر الانساني وضرورة خروجه من الطين الذي غرق فيه .

والقاصيص زكريا تامر تذكرنا بالهزيمة الانسانية للجنس البشري وانحطاطه الى درك الخطيئة والغرائز . ولعل هذا من تاثير القمع والكبت اللذين جعلا التحرر من قيود الضرورة وانطلاق الغرائز البشرية المبدعة خطيئة تحاسب عليها قوانين المجتمع المتخلف .

ويؤسس صدقي اسماعيل ادبه على ادراك المأساة . لكنه يقترب من الواقع اكثر حين يعالج المأساة من خلال الهزيمة التي نعيشها .

وهو يدرس ذلك في ثلاث شرائح : المجتمع الاقطاعي (الله والفقر) والمجتمع البورجوازي (ماقبل السهرة) والانتلجنسيا العربية (العطب) . وينتهي الى تعميم قانون الهزيمة على الجميع ، ولايمنح شرف الانتصار الا للمتمرد او خارج على القانون او ميت ، وقد نال اسعد الوراق المنهزم ابدا هذا الشرف حينما وضع البارودة على ذقنه واطلق النار . فبهذه الحادثة التافهة يكتب اسعد اسمه في سجل البطولة باعتباره انتصر على ارادة القدر العمياء وقرر مصيره المستقل الذل وهوان الهزيمة .

ان هذه الرؤية قد تشكلت في الستينات يوم تلاشت احلام الرومانتيكيين العرب بابتلاع الكيان الاسرائيلي وغسل عار الهزيمة في مياه البحر الابيض . ويوم تساقطت احلام القادة العرب المغامرين واخفقت بطولاتهم الفردية ، ويوم عجزت الحركة الشعبية عن احراز انتصار سياسي او اجتماعي او عسكري .

لذلك كان من الطبيعي ان تقترن هذه الرؤية بقضايا الفكر الطليعي القائد والموجه لنضال الجماهير الشعبية .

هذا ماادعا اليه صدقي اسماعيل في دراساته الفكرية وقصصه ، فحقق شرط الواقعية في الادب من غير ان يكون واقعيا اشتراكيا بالمعنى المدرسي . انه ينتمي الى الواقعية الطليعية التي سوف تتطور وتأخذ اسماء متعددة الى ان تبلغ درجة التجريب الواقعي على ايدي جيل السبعينات .

ان ما يميز الواقعية الطليعية عند صدقي اسماعيل عن الخرافة لدى العجيلي هو خروج الاول على المأساة برفض الفاجع فيها ، بينما يفر الاخر من المأساة بالحظ والخرافة والمعجزة والغيب . فالمعجزة مثلا هي المستقبل الذي يفاجىء الناس بما لايستطيعون ولايفهمون ، ومن ثم فهو يعفيهم من كل التزام تجاه المصير .

وانها لفتة ذكية من صدقي اسماعيل ان يجعل اسعد الوراق خرافة، وهو الذي رسمه منذ بداية القصة كحصان الهزيمة الاسود المتمرد عليها بالموت واتاحة فرص الحياة والاستمرار للجانب المقاتل والمغامر (عبد الحي الراشد) . وهو بهذا الجدل مابين اطراف الخنوع والثورة يحاول ان يعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله . فيصر المتسلط يأخذ اسعد الوراق، والله يستأثر بروح اسعد الوراق الحرة الطليقة وبروح وجسد عبد الحي الراشد المقاتل ضد الظلم والطغيان . فهل تنتصر ارادة الله العادلة على ارادة قيصر ؟ . .

* * *

قد يكون النظر الى الهزيمة في المجتمع الاقطاعي بعين الماضي اتاح المجال البارقة أمل . فادانة هذا الماضي السياسي والاجتماعي مسالة بسيطة ،وقد لايختلف اليوم اثنان في ذلك ، لكن دراسة واقع الهزيمة في المجتمع المعاصر تبدو مسالة صعبة وحدية . ومع هذا تناول صدقي اسماعيل في قصته (قبل السهرة) فجيعة ابناء المجتمع البورجوازي بقيمهم التي كانت ثورة منتصرة . وهكذا نخرج من هزيمة الاقطاع وندخل في هزيمة البورجوازية . ويمثلها الكاتب في تفسخ العلاقات الاجتماعية والتنصل من المسؤولية وعار الاحباط .

(٦) الاعمال الكاملة ــ الجزء الاول ص ٢٤٠ .

في هذه المرة نحن امام جريمة بشعة ، مصرع زوجة مدير الشرطة ، والمرشح لاقترافها هم كل من : الزوج ، الدكتور صاني ، الاخت النعيمة سعاد ، المحامي عبد الرؤوف .

الا ان حكم المحكمة يصدر ضد الخادمة البائسة التي تقوم برعاية المغدور بها .

من هي المرأة القتيل ، ومن هم المتهمون في قتلها ، ومن هي الخادمة التي الصقت بها الجريمة ؟ .. ان الاجابة على هذه الاسئلة دفعة واحدة ، تفترض الالمام بشيء اسمه الاسقاط (في الفلسفة) والاستعارة (في الادب) .

وقد اراد صدقي اسماعيل ان يسقط افكاره ويرمزها على طريقة (كليلة ودمنه) . وهذا مايدفعني الى اعتبار قصة (قبل السهرة) من القصص السياسية التي استوعبت الفاجع في هزيمتنا وعبرت عنه فنياقبل مسلسل الادب الهجائي الحديث ومقدساته الحلمية المرتبطة بالدولاب البورجوازي الاناني . وربما كان صدقي اسماعيل في قصته الثالثة (المعطب) يتكلم عن هذه الشريحة من المثقفين . وقد اصاب كبد الحقيقة حينما اطلق على وعيهم السياسي المنهزم صفة (المعطب) بدلا من الهزيمة او المأساة او الفاجع لان المعطب لاشفاء منه .

واذا كان توكا في الحدث الدرامي على قصة (حذار من الشفقة) لستيفان زفايج ، ففرضه من ذلك ، على ما اظن ، تحريض عناصر التراجيديا والميلودراما .

اليست تراجيديا سوداء ان تكون الانتلجنسيا العربية اليوم مصابة بعطب الهجاء السياسي الاناني ، بينما يجد اسعد الوراق منفذا للخلاص من هزيمته الميتافيزيقية والاجتماعية بطلقة رصاص تقتل الطرف السالب وتحمي عبد الحي الراشد ــ الطرف الموجب ؟ .

اليست تراجيديا سوداء ان يثير اسعد الوراق زوبعة ، وينتحر (ب) مؤلف رواية (الرحمة للجميع) بالسم ؟..

ان مثل هذا التطور الموضوعي في مجموعة « الله والفقر » يربط اقاصيصها الثلاث بخيط حريري واحد . فقصة (الله والفقر) تقدم مأساة وفاجعة وهزيمة ، وتسمح للطليعة المقاتلة ان تتغلب بالتمرد الثوري على الواقع المتردي .

وقصة (قبل السهرة) تشير باصبع الاتهام الى القاتل الحقيقي الذي كان خلف ابشع جريمة في تاريخنا الحدث .

وقصة (العطب) تتهم المزمور الرديء الذي تعزفه جوقة الانتلجنسيا المصابة بالانيما والمهزومة في اعماقها والمرتبطة بشرط الهزيمة . وكان من العدل ان ينتحر (ب) زعيمها وممثلها بالسم لا بطلقة رصاص في خضم مغامرة متنبئية (*) جريئة مثلما فعل اسعد الوراق ....

ايار ١٩٨٢

قراءة في كتاب «مفهوم الحرية» للعروي

عماد شعيبي

يأتي مفهوم الحرية كاتمام لمشروع واسع يخطوه العروي محدثا زلزلة في القاع الثقافي العربي .

فتحديد المفاهيم وظيفة بل مسألة هامة في سياق التعامل الفكري مع الواقع ومع الايديولوجيا ، هذا التحديد لا يعني وضع ابواب وارقام وقوانين للمفاهيم انما يعني التعامل معها كمجردات وككلمات كبيرة فهي انعكاس تجريدي لواقعة ولحدث وهي لا تستنفد غنى الواقع .فالواقع

(*) نسبة الى المتنبي .

يحمل من التغيرات النوعية والكمية ما يستدعي التعامل مع المفاهيم بدون شيطنة او تاليه او تصنيم . والواقع ان احدا لايستطيع ـ خاصة المتابع والمهتم ـ ان يحرم العروي والكاتب « الياس مرقص » حقهما في شكر عميق للمعركة التي يخوضانها مع غيرهما ، ضد الايديولوجيا ومن اجل مشروع فكري عربي مطابق . فمنذ البدايات للعروي « الايديولوجيا العربية المعاصرة ـ العرب والفكر التاريخي ـ التي واكبتها كتابات الياس مرقص الهامة » مقدمة دفاتر عن الديالكتيك ـ مقدمة مبادىء فلسفة المستقبل ـ مقدمة فكر هيغل .. » والتي لنا وقفة خاصةمعها في المستقبل القريب بدات معركة ضد الايديولوجيا كزيف وكتلبس للدماغ .

ففي مقدمة الكتاب تطالعنا فكرة هامة حول استخدام الحرية بمعادلتها اللاذاتية المشخصة ـ بمقدار الحقوق المخولة للفرد ويستنتج منها ان الحرية بعمومها الشعبي شعار ومفهوم وتجربة . ويميز العروي بين التجربة والتعبير عنها وهذه اللاحقة لا يمكن ان تكون بدون رموز اي (مسبقات) ونقد المفاهيم يبدأ بنقد تلك المسبقات اي بنقد الكلمات والمفاهيم التي تشكل معايير وادوات التعبير .

في فترات التلمس الاولى لبعض مفاهيم الحرية الليبرالية الغربية يلاحظ العروي ان فهم الحرية كان متعارضا من حيث ادوات الفهم والقاع الموروث الايديولوجي ، مع فهم الغرب لتلك الحرية والامر لا يعدو هنا اكثر من ترجمة اصطلاحية لكلمة فمادة الحرية في القاموس ذات ابعاد اربعة خلقية وقانونية واجتماعية وصوفية وكلها تدور حول « الفرد وعلاقته مع غير ذاته » .

ومـا فهم الحرية لا تتوقف عنداللغة بل تتعداها الى الشرع ايضا الذي اسهم في صياغة تطويق المفاهيم عهدا طويلا من الزمن ، فهي اتفاق مع ما يوحي به الشرع والعقل . وطالما ان الفكر الليبرالي يحصر الحرية في ميدان الدولة وبالتالي القانون او الفقه فمعرفة الحرية في مجتمع ما يعني فقه ذلك المجتمع . ومأثرة العروي في هذهالنقطة انه ربما يرى

أن التجربة الانسانية مع الحرية تتعدى اشكال المؤسسات وتتعدى المجردات القانونية والمفهومية « وهذا امر تتفق مع العروي فيه الى ابعد حد » ـ ان كان فهمنا له بنفس الدقة المتوخاة ـ ومثال العروي هنا في البداوة كنموذج لا يخضع القوانين انسانية اصطلاحية انما يخضع للانواء وللعوائد العشائرية ، ناجح الى حد بعيد ، فالبدوي خارج اطار « السلطان » يعدو حرا طليقا ، وخضوعه للعوائد والتقاليد العشائرية هو خضوع لثوابت هذه التقاليد بالتعارض مع تغيرات اهواء السلطان « والعادة » في آخر تحليل هي جزء من الذات . الدولة عندما ترمز في غالب الاحيان للعبودية تأتي العشيرة لترمز بالعكس الى ما يعارض تلك العبودية .

كذلك فان التقوى تحرر الوجدان كنداء للجزء الاسمى في الانسان هذا اذا تناولنا مسألة التقوى بعيدة عن الادانات المختلفة الخلفيات وكتعامل مادي واقعي مع منعكسات الاشياء وليس مع الصورات الفوضويين وتجاربهم الصغيرة كذلك يأتي التصوف وهو علاقة حضرية يقابلها الحب العذري في البادية .

الواقع ان العروي يلتقط مسألة هامة مفيدة وهي معلقة الى حد كبير لليائسين وغير اليائسين : ان واقع الحرية اوسع من مفهومها وان الامكانات الكامنة للسعي نحو الحرية يكمن أساسا في استطاعات الفرد وكذلك تطلعاته حيث ان الترميز كوسيلة بدائية تعكس ضيق مجال الحرية الواقعية المعاشة .

ـ مع العروي نجد ان الدولة، عندما تتسع بنظامها الشمولي الذي وسم الشرق كان تضيق الحرية كواقع ، ويرى العروي ان الدولة التي اتجهت في فترة الصدمة الكولونيالية الى سياسة الاصلاح والتسوية بين الجميع فنقضت العادات وابدلتها بقوانين متعددة فأصبحت تجربة الفرد تدور بأغلبها في نطاق الدولة وسرعان ما افرغت التجربة الصوفية من محتواها . وما يمكن لي ان اضيفه هنا ان سياسة التسوية هذه

ادت الى مصالحة مع جوهر ورواثر العادات ، الامر الذي حرم المجتمع العربي من نقلة نوعية على صعيد التحديث كما انني ارى ان التجربة الصوفية عندما انداحت سلطة الدولة قد خلقت صوفية من نوع جديد تمثل في عزوف كبير وفي سلبيمية شعبية كبرى .

كذلك فان العروي يرى ان المجتمع العربي حين رأى التنظيمات وجد الحرية كشعار لاثبات ضرورة الحرية اي التاكيد على امر غائب ، وبالتالي فان المنحى الذاتي هو الذي صاغ علاقة السياسة المتموضعة خارج الحكم مع مفهوم الحرية بدون اهتمام أصيل بتأصيل وتنظير « الحرية » .

وكمساهمة مشكورة في فهم الليبرالية يحدد العروي مراحلها التاريخية كسيرورة متغيرات : مرحلة التكوين كوجه من اوجه الفلسفة الغربية ومرحلة الاكتمال كاساس لعلم الاقتصاد والسياسة النظرية ومرحلة الاستقلال حيث نزعت الليبرالية كل فكرة تنتمي للاتجاه الديموقراطي ، ومرحلة التقوقع لخطورة تطبيقها . حيث أن المرحلة الاولى : قد صبغها مفهوم أساسي (الذات) والمرحلة الثانية : مفهوم الفرد العاقل المالك لحياته وعمله وذهنه . والمرحلة الثالثة : مفهوم المبادرة الخلاقة المعتمدة على المحافظة على الحقوق الموروثة دون اللجوء الى الطفرة التي تقطع حبل الاستمرار التاريخي والمرحلة الرابعة : مفهوم المغايرة والاعتراض حيث ان الاجماع على رأي واحد هو اجماع اصطناعي يسبب ذهولا فكريا وتعثرا للمجتمع ككل حيث الاختلاف هو اصل الجدال والجدال هو اصل التقدم الفكري والابداع . فالعرب حينما تعرفوا على الليبرالية عرفوها مفهوما يحمل في طياته اثار المراحل السابقة ، اي على ليبرالية ورثت روح الفلسفة الغربية وروح الثورة الفرنسية وروح الردة على الثورة ونخبوية معادية للديمقراطية والاشتراكية .

ـ هذا الخليط الذي يعكس نتائج ومرحلة ارهاصات تعيشها غالبا المفاهيم الجديدة أضعف امكانية فهم مترابط منفتح لمفهوم الحرية

الليبرالية ــ واغلب المفكرين النهوضيين العرب « ان جاز تعبير النهضة » كمحمد عبده والكواكبي والتونسي ولطفي السيد وطه حسين وحسين هيكل .. الخ . لم يضعوا الحرية في اطار فلسفي ولم يبحثوا عن أصلها ومداها واحدثوا قطعية مع الفكر الاسلامي التقليدي الذي كان يطرح مسألة الحرية . وقد تميز المؤلفون العرب على رأي العروي بدفاعهم عن الحرية ضد خصومهم في مجتمعاتهم ــ الامر الذي ساهم الى حد كبير في اضعاف مشروع الحرية (كسياسة) ــ وبالتالي فان من مميزات العهد الليبرالي في تاريخ العرب المعاصر توظيف كل فكرة تعرض له لتبرير الدعوة الى الحرية حتى مع الافكار التي تبدو منحرفة عنها كاستخدام الماركسية القائمة على نقد الحريات الليبرالية للعمل موضوعيا على الاقل لتثبيت تلكم الحريات .

وتنقسم نظرية الحرية الى ثلاث اتجاهات : ماركسية ووجودية وكلامية حيث ان الليبرالية لم تكن نظرية فهي ــ أي الاخيرة ، ترى في الحرية مشكلة) . وفي معرض حديثه عن مفهوم الحرية الهيغلي المسقوف بالدولة يرى العروي . ــ ونتفق معه الى حد ما ــ ان مفهوم المطلق المعين عند هيغل يقابله الطبقة العاملة عند ماركس والواقع ان هذه الرؤية عند العروي صحيحة الى حد كبير الا ان مفهوم الطبقة العاملة لم يكن عند ماركس مفهوما سياسا بحتا بقدر ما كان مفهوما (تاريخيا ــ اقتصاديا) اي بالنتيجة استراتيجيا وفي معرض التكتيك والتفاصيل السياسية فان ماركس لم يمتنع باسم الطبقة العاملة عن تأييد طبقات أخرى وتثمين الانجاز البرجوازي الليبرالي القومي « الناقص » خاصة فرنسا والمانيا . ويرى العروي ان تركيز التحليلات منذ البداية على الحرية وانطلاقا منها يوقع بالضرورة من الناحية المنطقية على الاقل في مواقف الوجودية ورجال الدين ــ وهامشه الصغير حول روجيه غارودي يعكس « حقيقة » . فتجربة الوجودية هي تجربة الحرية المتفتحة

الدنيوية اما التجربة الدينية فهي تجربة الحرية بعد الممات وكلاهما يعتمد على مسبق اولي — .

الواقع ان استنتاجات العروي الاخيرة تحمل في طياتها الكثير خاصة تأكيده الرائع على ان الحرية قد تنتفي من الواقع والمجتمع لكنها لا يمكن ان تنتفي من التاريخ حيث انها في استطاعتها ان تلجأ دوما الى الخيال الذي ينخر الواقع يوما بعد يوم باستمرار وعناء ومهما حاولت هذه الدراسة — العرض — ان تفي العروي حقه فانها مقصرة وما مفهوم الحرية الا مدخلا كما اراه لدراسة جديدة غير طفلية او مؤامجية نزقة للتاريخ ولوعي بالواقع اكثر ارتباطا ونزاهة مع المتغيرات اليومية .

الــوبـــاء..
نشيد المخصبين والمحسوبية

أحمد مشوّل

إن الصراع الاجتماعي هو في جوهره صراع طبقي ، وهذا الصراع يطغى على كافة اشكال الصراع الاخوي والتي تندرج في النهاية تحت هذا الصراع وتستجيب لحتميته ، وورواية — الوباء لـ « هاني الراهب » تبحث في هذا الصراع وتجسد من خلال افكار وتصرفات واعمال شخوص الرواية مواقف ايديولوجية متناقضة المصالح والاهتمامات بتناقض انتمائها الطبقي والايديولوجي ، ولهذا فرواية الوباء تؤرخ لمرحلة الانتقال من العلاقات العشائرية الاقطاعية الى مرحلة جديدة وصفها المثقف الثوري — صديق شداد — بأنها « مجتمع غير حقيقي لا هو اقطاعي ولا رأسمالي ولا اشتراكي مجتمع هلامي ، ويرى انه اذا كان المجتمع هكذا فالافراد يتشكلون على صورته » ص ٤٥٦ .

ويمثل الصراع ما بين الشخصيات في الرواية صراعا اجتماعيا له جذوره الاقتصادية والسياسية ويستند على مواقف ايديولوجية تعكس طبيعة القوى المتصارعة وتسلسلها في مراتب السلم الطبقي ، ولهذا تسعى كل قوة اجتماعية اقتصادية سياسية الى حسمه لصالحها .

والرواية تبدأ بوصف مستعجل وسريع لمقدمة احداثها منذ اوائل القرن الثامن عشر تقريبا وتستعرض احداثا تعلق عليها ثم تستمر في عملية السرد ، حتى المنتصف الثاني من القرن العشرين حيث تبدأ احداثها الفعلية ، ولهذا سوف تبدو القراءة الاولى للمقدمة مملة ، وتفتقد الى التشويق ولكن تصبح هذه الاحداث ضرورية لان كاتبها اراد ان يقارن ما بين مرحلتين لا وجود لفرق كبير بينهما ، لذا فالصراع ما بين الاقطاع والفلاحين في التشكيلة الاقتصادية الاقطاعية ، بدأ يأخذ شكلا جديدا وفقا لقوانين الصراع ما بين الطبقات الاجتماعية المتناحرة ، ولهذا يقول شداد « طبقة تمضي ، وطبقة أخرى تجيء ولا جديد تحت الشمس ، لم يتغير شيء ، بقي الغني ، وبقي الفقير » ص ٤٨٤ .

فالصراع بقي قائما وفقا لمعطيات جديدة تتناسب وظروف تطور بلدان العالم الثالث ولهذا يقول لينين : « وما من شك في ان كل حركة لا يمكن ان تكون غير حركة برجوازية ديمقراطية لان معظم السكان في البلدان المتأخرة يتألف من الفلاحين الذين يمثلون العلاقات البورجوازية الرأسمالية » ولذا مثل عبسي شريحة اجتماعية آمنت بالثورة وبالتغيير بمقدار استفادتها من هذا التغيير وقدرتها على توظيفه لمصلحتها ، فالثورة على الفقر والاستغلال والتبعية التي نادى بها عبسي في مرحلة معينة فقدت اهميتها في مرحلة لاحقة فلم يعد يطالب بعد ان اصبح عميدا في الجيش بقانون مبني على العدالة والاشتراكية ، ولم يعد يهمه خيانة الحكام العرب وهزيمتهم في حرب ١٩٤٨ ولا الوحدة العربية وفقدت الحرية محتواها لديه ، وبدأ يمارس ديماغوجيته للاستفادة من الشعارات التي

تحافظ على بقائه واستمراره ، ويوظف هذه الشعارات لخدمة أهدافه الشخصية ، ولقد اراد شداد ان يمثل نقيضا ايديولوجيا لشقيقه عبسي ، لكن كلاهما ينتميان لشرائح متباينة ومتناقضة من البورجوازية الصغيرة .

ولقد رفض شداد العلاقات الاقتصادية والسياسية الجديدة بما تمثله هذه العلاقات من قوة قمع واستلاب وفقدان للحرية ، وكان يحتج على سلطة اخيه فيقول لزوجته زهرة « ليس من حق رجل الامن احتجاز الناس واهانتهم لمجرد الارتياب بولائهم للسلطة » ص ٤٦٠ .

فالتغيرات الاقتصادية هي التي ادت لتغيرات ايديولوجية عند عبسي ، ولقد فسر شداد هذه التغيرات فقال مخاطبا عبسي « كلانا نقف مع الثورة ، ولكن مع من تقف الثورة نفسها ؟ من الذي يستبد بالثورة ، أنا اتكلم عنك انت بالذات عن عبسي من دون كنية ولا سلطة ، ولا ظروف ، عبسي المتمرد عام ١٩٥٠ ، والمليونير الآن » ص ٤٦٤ .

إن عبسي يمثل شريحة بورجوازية بيروقراطية قامت بتغيير أسس العلاقات الاقطاعية لتؤسس سلطة تستفيد منها ، ولهذا فان الثورة الحقيقية التي يطمح اليها شداد والتي يقوم بها العمال لن تقوم الا بتشكل الطبقة العاملة ، فتقول زهرة « ليس هنالك ثورة بلا طبقة عاملة كل حركة غير عمالية تسمي حالها ثورة ليست ثورة » ص ٤١٠ .

فهو يمثل ــ شداد ــ موقفا ايديولوجيا يطمح للتغيير ، ويقوم على بناء علاقات جديدة ينتفي فيها الاستغلال ، وتؤدي الى الغاء سلطة الدولة ، بما تمثله من قوة اضطهاد وقمع ، يقول « ليس في الماركسية اجمل من تبشيرها بالغاء الدولة » ص ٥٦٧ .

ولقد كان شداد يتصور جموعا من الناس تنيض وتغني « نشيد الخبز والحرية » وهذا النشيد يمثل طموحا عند اسماعيل فيقول « اولا الايمان ومخافة الله لصرت شيوعيا من زمان فقري يكفي لان يجعلني شيوعيا » ص ٤٧٢ .

فهذا التناقض ما بين الوعي والوجود ، يعكس طبيعة الصراع بين الوجود المادي للواقع وبين الوعي الميتافيزيقي عنه ، واذا كان اسماعيل يعيش هذا الواقع ويدرك ضرورته ، فانه يعلن رفضه التناقضات التي تحكمه ، لذا يعلن احتجاجه على الجيل الشاب لان « اقفتهم مطرزة بالعلم الاميركي ، وعقولهم مطرزة بشعارات الشيوعية » ص ٤٧٣ ، لان هذا التناقض ما بين النظرية والتطبيق يجسد موقفا ديماغوجيا يرفضه اسماعيل ، لان أمريكا ليس شعارا وانما هو موقف حياتي يجسد هذا الشعار ، بما تمثله الولايات المتحدة الامريكية من قوة امبريالية تسعى لنهب العالم واستغلاله . فهي « تأخذ شتائمنا النضالية بيد وأموالنا وثرواتنا بيد » ص ٥١١ .

وتقوم بانشاء طبقة حاكمة في كل بلد لا صفة لها ، كما قال المثقف الثوري صديق شداد ان الصراع في الرواية يجسد جانبا من الصراع في الواقع ، لكنه يعكس الصراع الطبقي بكليته ، فان عدم تكون الطبقة العاملة لا ينفي وجودها ، لان حالات تهميش دورها وشل فعاليتها ، هو أحد الاسباب التي تمنع تبلورها ، والذا ارتبط الصراع من اجل الخبز بالصراع من اجل الحرية . لان للديمقراطية محتوى اجتماعي يجب أن تكتسبه بمجرد تحققها .

ويفسر شداد العلاقة القائمة بين السلطة واصحاب رؤوس الاموال فيقول « ناس معهم السلطة وناس معهم المال الاتفاق تام ، الذين معهم مال مضطرون للذين معهم سلطة لكي تمشي اعمالهم ، والذين معهم سلطة مضطرون للذين معهم مال لكي تتنفس جيوبهم » ص ٤١٥ .

ولقد اعتقل شداد وعذب وعانى من فقدان الحرية في المعتقل ، ويصف هذه المعاناة فيقول « فقدان الحرية حالة صعبة ، يأتي رجلان ويأخذان رجلا من بيته هكذا ببساطة مثلما يساق البسكليت الى غرفة مثل التصليح » ص ٤٤٦ .

ولهذا قرر شداد ان يرفض هذا الواقع وان يتحداه وان يعلن التمرد على العلاقات الاجتماعية والاقتصادية القائمة ، والان اية محاولة لرفض هذا الواقع يعتبر من قبيل التمرد لوحق شداد بعد اعتقاله لاول مرة بعد ان تاكدت السلطة بان شداد يبدي استياءه ونقده للسلطة لكنه هرب من البيت تاركا زوجته واولاده اضابيات لرجال الامن ، ولقد تستر في بيت شقيقته خولة اول الامر ، ثم هرب الى الغابة القريبة من الميناء على ساحل البحر ، ولقد عانى شداد من البرد الشديد والجوع والمرض ، وبدأ يضيق ذرعا بحياة التخفي والفرار ، وكان يبحث عن ايام هادئة خالية من عناء السعي وراء الخبز والبنطال والفرق ، وسعين عضه الجوع ، وكانت القمامة آخر وسيلة له ، لكنها كانت خليطا من كسور الخبز وبقايا الاطعمة الخفيفة وعظام الدجاج وبدأ ينتشل من كيس القمامة كسرات الخبز ويأكلها .

إن شداد كان يبحث عن الامن والاستقرار والحرية وكان يؤمن بأن حتمية الصراع ستؤدي الى الغاء مظاهر القبح في الوجود الانساني فهذا يقول : « ستنتهي الامور كلها نهاية حسنة ، هذه طبيعة الحياة ، لا تطيق القبح ، والا لما قامت الثورات ولا تجدد الانسان » ص ١١٦ .

إن شداد كان يقاوم القمع وديكتاتورية السلطة الحاكمة ، لكن التمرد الفردي وضيق الافق البورجوازي الصغير ، وشدة القمع في الواقع هو الذي ادى الى قتله بين حقول القصب وهو يتسلل نحو البيت لرؤية زوجته واولاده .

ولقد فسر هاني الراهب حالة سقوطه في مقابلة اخيرة نشرت في جريدة البعث فقال « ان اسطورة الافراد الاكبر من شرطهم الاجتماعي والتاريخي قد آن لها ان تنتهي ، ليس هناك افراد اكبر من هذا الشرط كما دابت الرواية الغربية على تلقيننا ، هذا بالاضافة شداد في الوباء ان يمانده باحثا عن الحب والحرية والامن خارج الضرورة فقتل برصاصها » .

لكن مفهوم البطل الايجابي لا يقتصر على الفرد كنموذج خارج عن الشرط الاجتماعي ــ انه الفرد ــ البطل الايجابي ــ باعتباره تكثيف لحالة نهوض اجتماعية واقتصادية وسياسية ، وهي وان بدت جنينية فهي موجودة ، ولا يمكن نفي وجودها لعدم قدرتها على الوجود الشامل والكلي، لان حالة وجودها ونموها وبروز دورها تحدده معطيات الصراع في الواقع الاجتماعي وليس مرتبطا بذات الاديب وإرادته ، واذا كان الراهب قد ابرز احد نماذج البورجوازية الصغيرة ليكون بطلا ايجابيا لروايته ليؤكد مقولته الاخيرة حول ارتباط الفرد بصيغة البطل الايجابي خارج اطار النهوض الجماهيري ، لذا يبدو الصراع في الرواية ما بين السلطة والفرد وليس بين السلطة والشعب واذا كانت السلطة هي احدى اطراف الصراع ، فان شداد لم يكن الطرف الاخر لوحده ، ولهذا عبر هاني الراهب عن ذلك بوجود المثقف وابراز ظلاله دون ان يؤكد حضوره ، ولم ينقله من الوجود الوهمي الى الوجود الفعلي ، فكان المثقف الثوري طموحا لشداد وزوجته وحياته لكن دور المثقف الثوري بقي هامشيا ، فلماذا لم يسع الراهب لتأكيد وجوده الواقعي ونفي وجوده الصوري .

ولكن يبدو ان هاني الراهب قد لجأ الى ذلك لاحد سببين او لكليهما :

١ ــ إن المثقف الثوري يلعب دورا هامشيا في الحياة السياسية والثقافية والاقتصادية ، لا تسمح لهاني الراهب بابراز وجوده ونقله من الوجود النظري الى الوجود الفعلي .

٢ ــ إن هاني الراهب لا يثق بدور المثقف الثوري ، فأراد ان يؤكد عزلته وابتعاده عن مجريات الحياة بجوانبها المختلفة .

ولان دور المثقف الثوري لا يتحدد بفعل عوامل ذاتية ، فان النظرة الموضوعية تؤكد وجوده وتعاظم هذا الوجود بفعل زيادة التراكم الكمي في الواقع ، وزيادة الوعي كمحصلة لهذا التراكم ، بغية تحقيق نقلة نوعية .

وإذا كان المثقف الثوري غير قادر على انجاز البناء الثوري لوحده بدون العمال والفلاحين اصحاب المصلحة الحقيقية في التغيير ، فانه يساهم مساهمة جادة في عملية البناء الثوري .

ان رواية الوباء للدكتور هاني الراهب تتحدث عن طبقة اجتماعية بيروقراطية ممثلة بعبسي ، استطاعت ان تقضي على الاقطاع وان توظف السلطة لصالحها ، ولهذا انتشر الوباء في المجتمع ، وبدأ يعاني الانسان من التفسخ في علاقة الانتاج القائمة ، نتيجة الانسحاق المادي الذي بدأت تعاني منه الجماهير الشعبية الفقيرة ، ولمصادراتها للحرية ، ولهذا وقفت زهرة — زوجة شداد — ضد هذا الواقع وارتبطت بالارض ودافعت عنها ، ومنعت شداد من بيعها ، فقد كانت تقول لزوجها « اذا تعودت ان يكون معك ليرة ، ستريد ان يكون معك الف ، وبعد الالف مئة الف ستريد ان تشتري لاولادك العابا وتعطيهم مصروفا مثل اولاد الاكابر وتعودهم على حياة الترف البرجوازي التافه » ص ٥١١ .

إن زهرة تمثل موقفا ايديولوجيا يرفض كافة التغييرات الشكلية التي لا تطال جوهر الملكية ولهذا تقول « هؤلاء الاغوات الجدد ، طلعوا ضد الاغوات في الضيعة ، وصاروا اغوات في المدينة » ص ٤٨٢ فهي ترفض — زهرة — الملكية القائمة على الاستغلال ، وتدافع عن العدالة والمساواة والحق ، ولهذا كانت على عداء تام مع عبسي ووجهت اليه اهانة اعتقال زوجها كما رفضت اية مساعدة تقدم اليها خلال اعتقاله .

ولقد مثلت زهرة الثورة على الواقع الاجتماعي ، بينما كانت خولة تمثل موقف ترسيخ الواقع بغض النظر عن الصراع الاجتماعي القائم والاختلاف الايديولوجي الذي يستتبعه ، لذا سعت خولة للتوفيق بين شقيقيها (عبسي وشداد) في اطار العائلة الواحدة ففشلت في تحقيق ما تريده ، كما انها فشلت في إبعاد ولدها حيان من المشاركة في النضال

السياسي ، ولقد عبر حيان عن انتمائه الثوري حين قال « اي محكمة تحكم بانه يجب الا يصاب اولاد اسماعيل بفقر الدم » ص ٥٩٨ .

ولقد قامت السلطة بعد ذلك باعتقال حيان ، لان السلطة تطارد كل القوى الوطنية والتقدمية التي لا تتفق مع سياساتها او توافق عليها ، فالقمع والتعذيب .. والمطاردة .. هي السمات العامة للسلطة البورجوازية في علاقاتها مع الجماهير الشعبية وقواها الوطنية والتقدمية.

ولذا لا بد للسلطة ان تعتقل كافة الاشخاص الذين يشكلون خطرا على وجودها ، فكان حيان ثوريا والسلطة لا تبغي تثوير الواقع بقدر رغبتها على الابقاء على وجود الواقع المتخلف لاستمرار نهبها واستغلالها .

إن رواية الوباء حاولت ان تصور الواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في مرحلة تاريخية محددة ، وان تكشف عن الصراع الاجتماعي ، ولذا فقد استطاعت الرواية ان تشير بأصبع الاتهام الى مرحلة كاملة من نمو وتطور وتفسخ البورجوازية الصغيرة والبيروقراطية ولكن الصراع في الرواية في النصف الثاني من القرن العشرين لم يكن ممثلا بالبورجوازية الصغيرة ،البيروقراطية والطفيلية ، لان هذا الصراع ما بين شريحتين داخل طبقة واحدة يمثل جانبا من الصراع الاجتماعي لكنه لا يجسد هذا الصراع بكليته .

كما ان الشعارات التي كان يطرحها عبسي في الخمسينات والتي تخلى عنها فيما بعد ــ بعد أن اصبح عميدا في الجيش ــ لم تكن وحدها المطروحة ، ولذا فالرواية تؤرخ لمرحلة الخمسينات من القرن العشرين دون ان تحدد طبيعة المواقف الايديولوجية المتبانية في تلك المرحلة ، كما لم يكن الصراع محددا في المرحلة التي تلت ذلك ، وخاصة بعد ان تخلى عبسي عن كافة الشعارات والمواقف ، لان عبسي يمثل في الرواية قوة

اجتماعية وسياسية ظهرت بظهوره وسوف تأفل بزواله ، ولهذا فان شداد في صراعه مع شقيقه عبسي لم يكن يمثل القطب الاخر في هذا الصراع ، لان عبسي كما يصف نفسه « بورجوازي صغير » حصل على الرشوة ، ويمتلك بيتا ثمنه ربع مليون ليرة سورية وموظف في الميناء ، وقد قام بثورة فردية ادت الى مقتله .

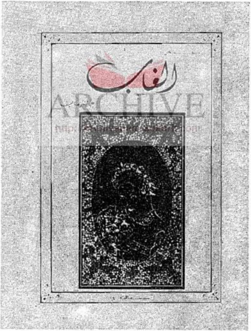
كما ان القانون لم يشترط حضور الغائب لتوزيع التركة على الورثة بدليل المادة / ٢ و ٣ / من قانون الاحوال الشخصية السوري ، وهذا مخالف لموقف القاضي في الرواية حين طلب حضور كنعان فقال « ليس هناك من حل الا ان يأتي بنفسه » ص ٤٩٩ .


في ألمانيا
ترجمة وتقديم
عبده عبود

صدر حديثاً عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي



صدر حديثاً عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي



صدر حديثاً عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي

الحياة السينمائية

العددان ١٧-١٨ ربيع وصيف ١٩٨٢

مجلة فصلية تصدر عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي - مؤسسة السينما - دمشق

